

جناحي الفاتح



يوسف دورسون

جناحي الفاتح

ترجمة

آلاء الجعفري - دعاء الجعفري

دارُ الْمَكْتَبِ

الطبعة الأولى
2020 - 1441

FATIH'IN
KANATLARI

جناحي الفاتح

YUSUF DURSUN

يوسف دورسون

ترجمة

آلاء الجعفري - دعاء الجعفري

مراجعة وتحرير مركز التعريب والبرمجة
بإشراف الدكتور غيث المكتبي

قامت دار المكتبي بترجمة هذا الكتاب الصادر عن

Nar Yayınları



منحة الترجمة
Translation Grant
صندوق منحة للشارقة للترجمة
Bharjah Translation Grant Fund

محفوظ
جميع الحقوق



دمشق - الشارقة - القاهرة

دمشق هاتف: 00963112248433 فاكس: 00963112248432 ص.ب: 31426

الشارقة هاتف: 0097165512262 فاكس: 0097165512264 ص.ب: 3309

Email: daraibaraem@gmail.com alimaktabi@gmail.com

www.alimaktabi.com

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع



يوسف دورسون

أنهى الكاتب المولود في موسى بيلي بمدينة
يوزغات عام ١٩٤٩ دراسته في مدرسة يوزغات
لإعداد المعلمين في عام ١٩٦٨، والتحق بقسم
اللغة التركية في معهد أضرورم التعليمي عام ١٩٧١ ،

وأتم برنامجه التعليمي الليسانس في جامعة الأناضول في عام
١٩٩١ . وبعد تقاعده عن تدريس اللغة التركية وآدابها في عام ١٩٩٦
عمل مدرساً في العديد من المنشآت التعليمية الخاصة لمدة ١٧
عاماً .

وقد لُحِثت بعض أشعار الكاتب ، الذي حصد العديد من
الجوائز في مجال الشعر ، وعلى رأسها قصيدة الفتاة اليتيمة ،
وأدخلت بعض أشعاره في الكتب المدرسية أيضاً . وما يزال يوسف
دورسون الحائز على جائزة إيسكادر (رابطة الأبحاث الأدبية
والثقافية والفنية) عن أدب الأطفال ، يخدم الأدب التركي بمؤلفاته
التي شملت مختلف الفروع من شعر وحكاية وقصة ورواية .

الكتب الصادرة عن دار نشرنا :

١- قلبي عش طائر (شعر ، الطبعة ٢ ، ٢٠٠٦) .

٢- الصوت الأعلى - نشيد الاستقلال (رواية للأطفال ، الطبعة ٩ ، ٢٠٠٦) .

٣- جغرافيا القلب (شعر ، الطبعة ٢ ، ٢٠٠٧) .

٤- تعال غداً (شعر ، الطبعة ٣ ، ٢٠٠٧) .

٥- حكايات طبيب في حديقة الحب (حكاية ، الطبعة ٢ ، ٢٠٠٩) .

٦- حكايات طبيب في البحث عن المجرم (حكاية ، الطبعة ٢ ، ٢٠٠٩) .

٧- حكايات طبيب في بلاد السعادة (حكاية ، الطبعة ٢ ، ٢٠٠٩) .

٨- كرة الطائر (حكاية ، الطبعة ٢ ، ٢٠٠٩) .

٩- الحذاء الطائر (حكاية ، الطبعة ٢ ، ٢٠٠٩) .

١٠- العصفور الصغير (حكاية ، الطبعة ٢ ، ٢٠٠٩) .

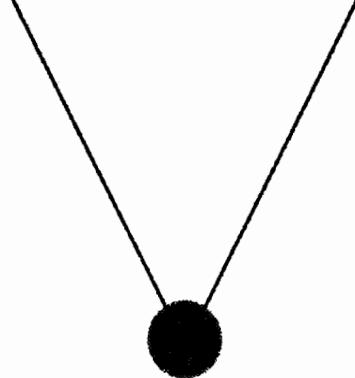
١١- كنت سلطاناً أصبحت فاتحاً (رواية ، الطبعة ٦ ، ٢٠٠٩) .

١٢- السلطان ألب أرسلان فاتح الأناضول (رواية ، الطبعة ٤ ، ٢٠١١) .

- ١٣- إسطنبول لأولؤة من اللآلىء (رواية ، الطبعة ٩ ، ٢٠١١)
- ١٤- لعبة طفولتي (رواية ، الطبعة ٣ ، ٢٠١٣)
- ١٥- تشانكليہ بوابة الجنة (رواية ، الطبعة ١٣ ، ٢٠١٣)
- ١٦- والدي المميز (أشعار عن الأب ، ٢٠١٦)
- ١٧- إلى الآفاق البيضاء (رواية ، ٢٠١٦)
- ١٨- ماميش / اسم / (رواية ، ٢٠١٦)
- ١٩- تويلو / اسم / (رواية ، ٢٠١٦)
- ٢٠- طبيب القرقرة (رواية ، ٢٠١٦)
- ٢١- تاتوش / اسم / (رواية ، ٢٠١٦)
- ٢٢- الأرنب والحملان الصغيرة (رواية ، ٢٠١٦)

www.yusufdursun.com.tr 66yusufdursun@gmail.com .

* * *



القسم الأول

رؤيا الفتح

ضرورة اكتساب الخبرة

تلقى الكاتب الشاب خبر وفاة المؤلف البار الذي كان معجباً به . في الواقع ، كان خبراً متوقعاً . رغم أن معرفة من سيوافيه الأجل ومتى وكيف سيأتي يعد أمراً مستحيلاً ، ولكن الحالة الصحية لأستاذه الكاتب كانت خطيرة منذ فترة طويلة ، حتى أن رئيس الجمهورية قام بزيارته . وبعد أسبوعين صدر البيان المتوقع من إدارة المستشفى على النحو التالي : « انتقل إلى رحمة الله تعالى سيد الأدب التركي بعد صراع مع مرض لم يمهله طويلاً . فليرحمه الله ، ونقدم أحر التعازي لأحبائه وأقربائه » .

إنتابت الكاتب الشاب مشاعر مختلفة عند تلقيه هذا الخبر . لا يدري ما يفعله في مواقف كهذه سوى أن عليه حضور صلاة جنازة أستاذه . وقد تم الإعلان عن صلاة الجنازة التي ستقام في مسجد الفاتح بعد صلاة الجمعة ، وعن مراسم الدفن التي ستقام في مقبرة أيوب سلطان عبر وسائل التواصل الاجتماعي . كما كانت الرسائل الواردة إلى هاتفه المحمول واحدة تلو الأخرى تحمل الأخبار نفسها .

اقترب شهر رمضان من نهايته . كان يوم الجمعة ، وفي غضون أيام ستكون ليلة القدر . كانت درجات الحرارة مرتفعة جداً في إسطنبول في أوائل شهر أغسطس . لم تكن الجنازة قد بدأت بعد ، عندما وجد الكاتب الشاب نفسه في ساحة مسجد الفاتح .

تجول قليلاً في الساحة . كان هناك أكثر من ساعة على موعد صلاة الجمعة . توجه الكاتب فجأة إلى تربة السلطان الفاتح محمد خان . كان الهواء فيها بارداً على عكس ما هو عليه في ساحة الجامع . دخل إلى التربة بخطوات ثقيلة . لم يكن مخطئاً بما فعله ، لأن هذا المكان كان يثلج صدر الإنسان .

يقع ضريح السلطان محمد الفاتح الضخم في وسط التربة محاطاً بإطار فضي وعليه غطاء مقصب بخيوط الذهب والفضة مما يزيد من هيئته . كما كانت الشمعدانات الفضية الموضوعة في مقدمة ومؤخرة الضريح ، والثريا المعلقة من القبة ، والستائر المصنوعة من المخمل الطبيعي التي تزين النوافذ تثير مشاعر الإعجاب لدى الإنسان . نعم جميع هذه الأشياء عظيمة ولكن من المقدر لها الزوال . أما الشيء الوحيد الذي سيبقى هو إهداء السلطان محمد الفاتح ، الذي يعيش حياته الأبدية داخل هذا التابوت ، العالم عصراً جديداً بفتحه مدينة إسطنبول .

وقد أحاط بالتابوت أناس منهم من يدعو الله بخشوع ، ومنهم من

يقرأ القرآن ، ومنهم من شبك يديه أمامه ووقف بإجلال واحترام .
كانت الصفة المشتركة بين هؤلاء الأشخاص : أنهم على وعي
وإدراك تام بوجودهم في حضرة فاتح مدينة اسطنبول . حيث يشعر
الجميع بثقل على أكتافه لوجوده في حضرة هذا السلطان الورع الذي
حارب لنصرة دين محمد صلى الله عليه وسلم .

انزوى الشاعر الشاب في إحدى زوايا المقبرة وبدأ بالدعاء بقلب
خاشع قائلاً :

« يا رب ،

بجاه ساكن الجنان السلطان محمد الفاتح ، اعفو عن معلمي
الذي سنصلي صلاة جنازته بعد قليل ، وخفف عنه عذاب القبر ،
واجعل مقامه الجنة » .

توقف قليلاً ثم تابع الدعاء بكل تواضع وخجل :

« يا رب ،

إنك تعلم رغبتني بأن أصبح كاتباً جيداً ، وأنني أنوي أن أخدم هذه
الامة بمؤلفاتي مثلما فعل معلمي . لكن للأسف لم أشر على دار نشر
تقبل بطباعة الرواية الأولى التي كتبتها . وكل ما أحصل عليه هو
النصائح أينما ذهبت . أعلم أنني ما زلت شاباً ، وأن إسراعي في
طباعة الرواية ليس صائباً . ينبغي عليّ اكتساب مزيد من الخبرة أولاً
ثم إفراغ ما في جمعتي .

يا رب ،
أعني على تحقيق ذلك .
إنك على كل شيء قدير .
آمين » .

عند خروجه من المقبرة كان قد بقي أكثر من نصف ساعة على صلاة الجمعة . توجه هذه المرة مباشرة إلى الجامع ودخل إليه . كانت أعمال الترميم في مسجد الفاتح قد انتهت حديثاً . كان المسجد يتلألأ ويتوهج . فكر في نفسه إن مسجداً كهذا لا يليق إلا بسلطان مثله . ثم تدفق الناس إلى الداخل وامتلأ المسجد . تحدث الإمام عن زوال الحياة الدنيا ، وأن الحياة الحقيقية الأبدية بانتظارنا في الآخرة . وهي دار بقاء حيث لا رجعة منها . يعيش الناس فيها كلٌ وفق ما جاء به من هذه الدنيا . وقد لخص القضية برمتها في كلمتين اثنتين هما : الإيمان والعمل .

فكر الكاتب الشاب للحظة . لم يكن لديه أدنى شك في إيمانه ، لكن ماذا عن عمله ؟ لم يكن متيقناً من ذلك . كان يدرك ضرورة أن يبذل مزيداً من الجهد في عمله . لذلك قرر وهو في حالة من الخشوع أن يعمل كثيراً وبجد .

عند انتهاء الصلاة وخروجه إلى الساحة ، أصابه تعب شديد

بسبب الحرارة المرتفعة . وبضعوبة وجد لنفسه مكاناً لأداء صلاة الجنازة . كانت هناك شخصيات معروفة حوله ، لكن معظمهم لا يعرفونه . قال في نفسه ؛ وإن يكن ، سيأتي اليوم الذي أعرف فيه عن نفسي .

حضر عدد من الوزراء والنواب برفقة والي إسطنبول صلاة الجنازة . وقد أعجب بتصرفهم هذا ، وشعر بسرور غريب . ثم فكر في صلاة جنازته ، وتساءل في نفسه قائلاً : كيف ستكون صلاة جنازتي يا ترى ؟ أتمنى أن تكون جيدة إن شاء الله . بالطبع إن ذلك الأمر يتعلق بي وبعملي . . . لأن الأمر يدور ويدور ويعود للعمل . جدّد الوعد الذي قطعه على نفسه مرة أخرى وهو : أن لا يضيع وقته أبداً ، ويبذل قصارى جهده لكي يصبح كاتباً ناجحاً .

أقيمت صلاة الجنازة . وألقى الإمام خطبة قصيرة عن الحياة الأبدية . وحمل التابوت على الأيدي ونقل إلى سيارة الجنازة . أقلت الحافلات الراغبين بالذهاب إلى مقبرة سلطان أيوب . كان الكاتب الشاب من بين أولئك الذين ذهبوا إلى المقبرة .

تلا الإمام القرآن بينما كان التابوت يوضع في القبر ثم ألقى خطبة قصيرة قال فيها : « أول ما يسأل عنه الإنسان في القبر هو عن ربه ودينه ونيه . وبانتظار من يجيب عن ذلك بشكل صحيح . . . جنات

من نعيم يوم القيامة . أما من لم يستطع . . . » .

نزل كلام الإمام كالصاعقة على رأس الكاتب الشاب . إذن ، سيسأل معلمه عن تلك الأمور أولاً . ليس هناك أي سؤال عن كتاباته ! كان يدرك مدى أهمية أن يكون كاتباً جيداً ، وأن يترك أثراً مفيداً للبشرية . لكن ذلك غير كاف لملء سجل أعمال الإنسان ، لأنه يمتلئ بامتلاء خانة الحسنات . لكن كما هو واضح ، إن الأسئلة الأولى في القبر لا تتعلق بذلك . فكر بالأمر قليلاً ، ورأى أن من واجبه أن يكون مسلماً صالحاً قبل أن يصبح كاتباً جيداً ، وما بقي من أشياء تأتي من تلقاء نفسها . عندها شعر بالارتياح .

وأن عبثاً ثقيلاً قد زال عن عاتقه . وفي طريق العودة ، انعكست حالة السكون التي في داخله على وجهه ، ونظر إلى ما حوله نظرة حب .

عاد الكاتب الشاب إلى منزله متمسكاً بتلك الأفكار ، قالت والدته :

- يا بني ، من ينظر إلى حالك هذا يعتقد أنك عاد من نزهة .

- كلا يا أمي ، لقد عدت من الجنازة .

- لكن ابتسامتك تلك التي تعلو وجهك تقول غير ذلك . . .

- آه بشأن ذلك ، لقد اتخذت قراراً . . .

- هل قررت أن تتزوج ؟

- تمهلي قليلاً يا أمي ، سيأتي الوقت المناسب لذلك .

- الحمد لله على قولك هذا . . . لم تكن تذكر ذلك سابقاً .

- إنها مسألة نصيب يا أمي ، ستتكلم بهذا الموضوع عندما يحين

الوقت المناسب .

- إذن ما هو القرار الذي اتخذته ؟

- سأعمل بجِد .

- هل هذا ما يسعدك ؟

- نعم هذا هو . سأبذل قصارى جهدي لكي أصبح مسلماً صالحاً

أولاً ثم كاتباً جيداً .

- لقد فهمت الآن . إذن ، ووفقك الله .

- ستساعديني أنت أيضاً يا أمي ، أليس كذلك ؟

- بالطبع سأساعدك يا صغيري ، ولكن ماذا أعرف عن الكتابة ؟

- يمكنك أن تحضري لي المائدة لإني أنضور جوعاً . . .

- بالطبع يا ولدي ، ولتكن المائدة التي تريدها . استرح قليلاً ،

وسيكون الطعام جاهزاً خلال نصف ساعة .

أُكل الطعام وشُربَ الشاي ، وتبادلوا أطراف الحديث . ثم حان

وقت النوم ، تقلب الكاتب الشاب على فراشه يمنية ويسرة لا يستطيع النوم . كان يفكر بما جرى معه طوال اليوم . ثم تذكر القرار الذي اتخذته ، وفكر في الرواية التي لم تقبل دور النشر بطباعتها ، وأن عليه التخلي عن ذلك . من الصعب أن يتخلى الكاتب عن عمله ولكن ينبغي عليه فعل ذلك .

مما يعني عدم اكتسابه الخبرة الكافية بعد . قد يكون الناشرون على حق برفضهم نشر أعماله . ينبغي عليه إيجاد موضوع جديد ، وأن يعمل عليه . موضوع جديد ؟! ماذا يمكن أن يكون هذا الموضوع الجديد ؟ ثم تذكر فجأة الكلام الذي سمعه من معلمه وهو : « ليس المهم ما تكتبه بل كيف تكتب » . إذن ، ألن يكون الإنسان أكثر نجاحًا في موضوع يشعره بالسعادة والرضا ؟ بالطبع ينبغي عليه أن يعثر على موضوع يرتاح له ويستأثر قلبه . من غير المعروف كم استغرق من الوقت وتلك الأفكار تجول في رأسه ، حتى استسلم للنوم .

* * *

حباً بالفتح

كان نوم الكاتب الشاب مضطرباً تلك الليلة . فقد رأى في منامه الأحداث التي عاشها طوال اليوم . عايش فيها مشاعر الحزن والفرح . لأنه بالرغم من حزنه الشديد على موت معلمه ، كان مسروراً للغاية بالقرار الذي اتخذه . إذ سيزيد من خبرته ثم سيقدم عملاً أدبياً يشبه المياه النقية المتدفقة من النافورة . لكنه لم يقرر بعد عن أي موضوع سيكتب .

استيقظ على صوت الأذان القادم من المسجد المجاور . كان المؤذن يأذن لصلاة الفجر بصوتٍ مؤثر . نهض على الفور ، توضأ ، وتوجه نحو المسجد . حتى أنه لم يسمع كلام والدته أثناء خروجه وهي تدعو : « ألف حمد وشكر لك يارب لأنك أريتني هذه الأيام التي يذهب فيها ولدي إلى الجامع للصلاة » . وعند عودته ، وجد نفسه في أحضان النوم مجدداً . وبعد مضي فترة وجيزة حلم أنه يتجول في حقول خضراء ، ورائحة الربيع تعبق في الأجواء . وعندما نظر حوله رأى جنوداً على أهبة الاستعداد يرتدون ملابس غريبة . ثم سمع صوتاً متعجرفاً من أحدهم ينادي :

- أنت ، كيف تتجول هنا من دون أخذ دستور ؟
- ماذا يعني أخذ دستور ؟
- ألا تعرف ما معنى أخذ دستور أيها المتطفل ، إنه يعني أخذ إذن ؟
- قل ذلك من البداية يا أخي .
- لا بد أنك غريب لأنك لم تفهم معناها .
- كلا ، أنا من هنا ، من إسطنبول .
- لا تدعني أضحك ، لا يوجد مكان هنا يدعى إسطنبول !
- قلت أنني من إسطنبول ، بالقرب من القرن الذهبي .
- إذن أنت من المناطق القريبة من القرن الذهبي ، قل إنك من القسطنطينية .

فكر الكاتب الشاب للحظة . ثم فهم ما يجري على الأرجح . إن هؤلاء الجنود يعيشون في حقبة ما قبل فتح إسطنبول . من ذاك الصبي الذين يقومون بحمايته ؟ ومن يخدم هؤلاء العشرات من الرجال البالغين الموجودين من حوله ؟ ثم أعطى أحدهم قوساً وسهماً للصبي ، بينما قام آخر بتعديل لوحة الهدف . شد الصبي وتر القوس بقوة غير متوقعة وانتظر على هذا النحو مدة من الزمن ، حبس الجميع أنفاسه خلالها . ثم همس الطفل بصوتٍ غير مسموع

« بسم الله » ورمى السهم بغضب شديد . اختلط فيها صوت طنين القوس مع قول « حباً بالفتح » الممتدة إلى السماء ، وفي غمضة عين اضطرب الهدوء فيها ، وأمطر لهيب نيرانه على لوحة الهدف مثل برق غاضب .

أصاب الهدف كلمة « القسطنطينية » المكتوبة في منتصف اللوحة تماماً حتى أصبح حرف « النون » قطعاً متناثرة .

لم يستطع الشاب المذهول أن يمنع نفسه من سؤال الجندي بالقول :

- لابد أنكم جنود الفاتح ، وهذا الصبي هو الفاتح نفسه . . .

- لقد أخطأت مرة أخرى ، ولكنه خطأ جميل هذه المرة . نحن جنود الأمير محمد ، وسيصبح أميرنا هذا سلطاناً أولاً ، ثم سيفتح مدينة القسطنطينية ويصبح فاتحاً حقيقياً بإذن الله . أما الآن فهو الأمير محمد فحسب .

أدرك الكاتب الشاب حينها جيداً مكان وزمان وجوده .

نظراً إلى عمره فإن الأمير محمد كان حاكماً على سنجق مانسيا آنذاك ولم يبق الكثير من الوقت حتى يصبح فاتح القسطنطينية . استأذن الجندي وأخذ يتابع تعليم الأمير محمد على الرماية من البداية إلى النهاية . كان الأمير في كل مرة يشد الوتر فيها يقول البسملة ، ثم

يرمي السهم قائلاً بالغضب نفسه « حياً بالفتح » . وفي كل مرة يصدر نفس صوت الطنين ، ونفس البرق والرعد ، والنتيجة نفسها . . . ومع كل سهم يطلقه كان يسقط حرف آخر من حروف كلمة « القسطنطينية » على الأرض . وعند سقوط الحرف الأخير ، أخذ الخدم الراكضين على وجه السرعة السهم والقوس من يدي الأمير . في حين ركض أحدهم وأخذ يمسح عرق الأمير . ولكن محمد الصغير منعه قائلاً :

- لا أريد ، لم أتعرق بعد !

شعر الكاتب الشاب بصفاء ذهني عند استيقاظه . فقد عثر على الموضوع الذي يبحث عنه على ما يبدو . جمع كافة الكتب التي أمكنه العثور عليها بخصوص هذا الموضوع . وأخذ يقرأ ليلاً نهاراً . وأخيراً ، توضأ مجدداً بعدما صلى صلاة الفجر ثم بدأ بالكتابة :

* * *

تهويدة صغيري محمد

همهمت هُما خاتون لطفلها بينما كانت تهز مهد المقصب . من الطبيعي أن تهتمهم كل أم لطفلها ولكن تلك التهويدة كانت مختلفة . فهي والدة الأمير ؛ مما جعلها تعتقد أن تهويداتها ينبغي أن تلائم الأمير . لا بد أن تجعل هذه التهويدات من البذرة شتلة ، ومن الشتلة شجرة ، ومن الشجرة غابة . كما ينبغي أن تكون تلك التهويدات مثل شجرة الدلب تمتد من هذا المهد المقصب الصغير إلى العالم كله .

« أغني لك يا صغيري

يا صغيري الشجاع

هي نصيحتي لك :

كن كشجرة الدلب للعثمانيين . .

حتى يفتخروا باسمك . . » .

ارتبكت هُما خاتون عندما لاحظت ما قالته في نهاية تلك

التهويدة . لأنه بالرغم من كونها تهويدة لكنها لم تكن مجرد كلمات

تقال بتهور . فالجدران لها آذان هنا .

ذلك أن كل امرأة تطأ قدمها حَرَمَ القصر العثماني تطمع أن تصبح زوجة السلطان أولاً ثم والددة السلطان ، فكيف تجرأت هُما خاتون على ترديد مثل هذه التهويذة وبصوتٍ مرتفع دون أن تراعي مشاعر غريمتها :

« يا محمدي الشجاع النبيل

يا محمدي الممشوق القوام

يوماً ما ستصبح سلطاناً ،

بمشيئة مالك الملك ! »

حبست هُما خاتون أنفاسها قليلاً ثم تلفتت حولها . على ما يبدو لم يسمع أحدٌ تهويدها سوى صغيرها . وهو أيضاً من المستحيل أن يفهم ما تقوله . عندها شعرت بالارتياح ، ثم حضنت طفلها واستنشقت رائحته وكأنها تستنشق زهر الجنة . أمعنت النظر في وجه صغيرها ، سرحت بخيالها وحلمت بأن يكون طفلها الصغير هذا سلطاناً على الإمبراطورية العثمانية يوماً ما . ولكن في الظروف الحالية من المستحيل أن يصبح محمد سلطاناً . لأن هناك أخاه الصغير علاء الدين والكبير أحمد قبله . إذن لماذا أفصحت هُما خاتون عن فكرة السلطنة لطفلها الصغير بينما لم تذكرها أمام أبنائها

الأكبر سناً ؟ ما الذي جعل فكرة كونها والددة السلطان التي نمتها منذ سنوات عديدة تظهر الآن ؟ فقد تذكرت هُما خاتون الحادثة التي سمعتها من زوجها السلطان مراد . وهي الحادثة التي كشفت عن أحلامها بأن تكون والددة السلطان :

في ذلك اليوم ، كان لدى السلطان مراد خان والد أطفالها الثلاثة وعماد البلاد العثمانية - وليس عماد بيتها فحسب - ضيوف مهمين . وقف الولي حجي بيرم أحد المعمارين الروحانيين للأناضول أمام السلطان مكتفاً يده . ورغم معرفته بمدى تعلق السلطان به ، ولكن كل شخص له مكانه المحدد في الإمبراطورية العثمانية . وعلى عاتقه يقع واجب احترام الاسم الأول في الدولة . وإلى جانب الولي حجي بيرم كان هناك فتى شاب . ومع أن هذا الصوفي كان في منتصف العمر إلا أن لحيته لم تنمو بشكل أكثر كثافة . كان يرتدي ملابس بيضاء اللون من رأسه إلى أخمص قدميه . يحاول ضبط الحماس الذي انتابه لوجوده في حضرة السلطان . ووقف هذا الصوفي المائل أمام السلطان ويدها مكتفتين ، ينتظر وعينه تحدقان في الأرض .

أفلت السلطان مراد خان من يده المهد الذي كان يتأرجح ببطء من تلقاء نفسه . وأخيراً توقف بعدما تأرجح مرة أو مرتين . وقد كان الأمير مستلقياً داخل هذا المهد . وقد سماه والده محمداً تيمناً باسم الرسول صلى الله عليه وسلم . وكانت غايته أن يعرض الأمير الصغير

على الولي حجي بيرم وينال بركته . وفي تلك الأثناء ، كان هناك أمر آخر مهم أراد أن يتعلمه من هذا الرجل المبارك . وعندما يحين الوقت المناسب سيسأل عما يشغل تفكيره منذ شهور عديدة ، وسيتصرف بناء على الجواب الذي سيتلقاه .

استقبل مراد خان ضيوفه بأسلوب يليق بهم .

- أهلاً وسهلاً بكم أيها السادة ، لقد أتعبتم أنفسكم بقبول دعوتنا والمجيء إلى هنا .

- استغفر الله يا سلطاني ، إنه لشرف عظيم لنا زيارة حضرتكم .

- سامحني يا سيدي ولكنني لم أتعرف على الصوفي الواقف إلى جوارك .

- بل سامحني أنت أيها السلطان ، لقد نسيت أن أعرفك عن آق شمس الدين . إنه شخص احترامه وأقداره كثيراً .

أراد آق شمس الدين تقبيل يد السلطان بحركة سريعة . غير أن السلطان مراد خان لم يسمح بذلك ، وربت يده على كتف الصوفي .

- إن الشخص الذي يحترمه ويقدره معلمنا هو عزيز علينا .

تحدث آق شمس الدين للمرة الأولى قائلاً :

- حفظك الله وحفظ دولتنا أيها السلطان .

- أسعدك الله أيها الصوفي .

نظر السلطان إلى الأمير في المهد قليلاً ثم حمل طفله ببطء
ووضعه في حضنه ، وأعطاه إلى الولي حجي بيرم .

- إن طفلنا محمد بحاجة إلى دعائك أيضاً كما كنا جميعاً .

حمل حجي بيرم الأمير . دعى له بصوت خاشع من القلب .
ومسح رأس الطفل .

- تفضل يا سلطاني ، فليكن محمد صاحب هذا الاسم الجميل ،
خيراً على الوطن ، والأمة ودين الإسلام .

وضع السلطان الأمير في المهد . وأخذ يتأمله مدة من الزمن .
ثم بدأ يتجول ذهاباً وإياباً . ربما كان هناك شيء آخر سيقوله . ثم
التفت إلى حجي بيرم وقال :

- يا أستاذي ، لم أرى الراحة منذ سنوات وفي الأيام الأخيرة لم
تذق عيني طعم النوم أيضاً .

- خيراً إن شاء الله ، ما الأمر الذي يقلقك ؟

- تعلم أنه كان لأجدادي هدفاً محدداً .

كان الولي حجي بيرم يعرف جيداً هذا الهدف ولكن أراد أن
يسمعه من السلطان .

- ما الهدف الذي تتحدث عنه يا سلطاني ؟

- أقصد القسطنطينية يا سيدي القسطنطينية . . .

تكلم حجي بيرم وكأنه لم يفهم قصد السلطان وسأله :

- ماذا عنها ؟ إنها ذاهبة إلى التهلكة بالحالة التي هي فيها .

- فليشهد الله أننا لا نريد هلاك هذه المدينة ، إنما غايتنا أن نعزها بالإسلام بأيدينا .

أراد الولي حجي بيرم أن يخلص السلطان مراد خان من همومه تلك :

- إذن ما تريده هو أن ينال بشارة نبينا .

- كلامك صحيح يا سيدي ، إن أحاديث نبينا المباركة هذه تزين أحلامي مثلما زينت أحلام أجدادي .

ثم كرر السلطان العثماني الحديث النبوي بابتهاج قائلاً :

« لتفتحن القسطنطينية ، فلنعم الأمير أميرها ، ولنعم الجيش جيشها »

سأل السلطان مراد وهو محرج قليلاً :

- هل سيكون هذا الفتح من نصيبي يا ترى ؟

كان الولي حجي بيرم ينتظر هذا السؤال منذ زمن طويل . ربما

كان الولي الكبير قد حضر الإجابة التي سيعطيها للسلطان مسبقاً وهي :

- لن يكون هذا الفتح العظيم من نصيبك بل من نصيب ذاك الأمير الصغير الذي في المهد إن شاء الله . لهذا السبب جلبناه إلى القصر .
ونرغب في تركه هنا إن سُمح بذلك ، لكي يكون الأمير محمد قريباً دائماً ولا يقصر في تنشأة فاتح المستقبل .

كادت هُما خاتون أن تفقد وعيها من شدة الحماس حينما سمعت ذلك من السلطان مراد خان .

- إن شاء الله يا سلطاني ، إن شاء الله ، لم تستطع أن تتمالك نفسها عند قولها لذلك . وبدأت تهز المهد مرة أخرى وبين شفيتها تهويده جديدة تقول :

« تهويده صغيري محمد ،

كلماتها لم أقلها عبثاً .

أكبر واركض بسرعة ،

وتشع بنور الإسلام ،

تهويده صغيري محمد ،

كلماتها لم أقلها عبثاً .

خذ البلدة المبجلة ،

وأرسل سلامك للرسول .

غاص الأمير محمد في نومٍ عميق . شرد ذهنُهُما خاتون بينما
كانت تتأمل وجه طفلها البريء ، وارتسمت ابتسامة ناعمة على
وجهها . وتذكرت ما عانته أثناء ولادة صغيرها محمد قبل بضعة
أشهر فقط .

* * *

مع كل ولادة يبنى العالم من جديد

في ذلك اليوم ، كانت مشاعر الحماس واضحة على مراد خان السلطان السادس للإمبراطورية العثمانية . لم يستطع « العظيم مراد خان » حاكم الإمبراطورية بأكملها السيطرة على قلبه ، وكبح حماسه . ارتىء قراءة القرآن الكريم . لربما يستطيع من خلالها السيطرة على حماسه .

كانت أدرنة تمر كما هو الحال في كثير من الأحيان بشهر آذار البارد . وكأن المثل الشعبي القائل : « حينما يطل آذار حتى قبضة الفأس توقد » قد قيل عن أدرنة . غير أن سكان قصر أدرنة لم يهتموا بذلك البرد القارس . لم تكن مدافئ الحطب الكبيرة السبب الوحيد وراء ذلك بالطبع ، بل إن السبب الرئيسي كان الجلبة الموجودة في القصر .

شهد قصر أدرنة الشبيه بدار كبيرة نشاطاً محموماً منذ عدة أيام . إذ لم يفارق رئيس الأطباء ومساعديه القصر . كما أتت المرأة القابلة مراراً إلى رئيس الأطباء ونفذت التعليمات التي تلقتها منه حرفياً .

وقد كان لدى المرأة القابلة مساعدين أيضاً . في الواقع ، لم يكن هناك من داع لحضور هذا العدد الهائل من المساعدين ، أو مناوبة رئيس الأطباء وبقية الأطباء في القصر ؛ لكن الأمر يختلف تماماً عندما يتعلق بولادة هُما خاتون .

مع بزوغ فجر يوم الأحد الواقع في ٢٩ آذار ١٤٣٢ . شمרת المرأة القابلة مع رئيس الأطباء ومساعديه عن سواعدهم من أجل ضمان ولادة سليمة لهُما خاتون عند ازدياد آلام الطلق لديها . في حين استمر السلطان مراد خان في قراءة القرآن الكريم بهدوء . كما وقف الصدر الأعظم محمد نظام الدين باشا بن دانشمند العثماني مع بقية الوزراء ورؤساء الخدم يتحدثون فيما بينهم قائلين :

- لم نشهد قط مثل هذا الحماس من السلطان .

- أنت محق ، سيصبح لديه ولد آخر ؛ هل هذا أمراً عادياً ؟

- وإذا كان الطفل ذكراً أيضاً . . .

- إذن لا يمكنكم وصف مدى سعادة سلطانكم .

- ولكن لدى السلطان طفلين آخرين . . .

- وإن يكن ، سيكون للأطفال الذكور دور مهم في استمرار سلطته .

قال الصدر الأعظم :

- أيها السادة ، تذكروا جيداً أن مع كل ولادة يبني العالم من جديد ولكن انضمام أمير آخر إلى العائلة العثمانية يعني سهولة بناء هذا العالم على نحو أكبر .

أيد الوزراء برؤوسهم كلام الصدر الأعظم .

طلب نظام الدين باشا منهم الصمت مشيراً بيده واقترب باحترام من السلطان .

عندها رفع مراد خان رأسه قائلاً :

- أعتقد أن لديك ما تقوله أيها الباشا العظيم . . .

اعتاد السلطان على تسمية أقرب زملائه بالباشا العظيم . وفي الحقيقة ، كان ذلك الكلام يروق للصدر الأعظم .

- نعم يا سلطاني ، لدي ما أقوله إن سمح لي .

- تفضل أيها الباشا العظيم قل ما عندك .

- أرى أن سلطاننا متحمس وبشكل كبير أيضاً . . .

- إذن الأمر واضح . . .

- لا أقول أن حماس السلطان ليس في محله . لأن رئيس الأطباء والمرأة القابلة ومساعدتهم يبذلون كل ما في وسعهم . وهذه الولادة

ليست الأولى في العالم ولن تكون الأخيرة .

- إن كلامك صحيح أيها الباشا ولكن كما تعلم (هامساً هذا الكلام في أذن الصدر الأعظم) أنا إنسان أيضاً . وإن كنت سلطاناً وسيولد طفل ، هو طفلي . لا سيما إذا كان الطفل ذكراً . . .

- إن شاء الله أيها السلطان ، إن شاء الله . . .

فُتح باب الغرفة الداخلية ببطء . وتوجهت الأنظار جميعها إليه ، ينتظرون أن تدخل المرأة القابلة حاملةً الطفل ملفوفاً بالقماط . عم الصمت برهة ثم قالت المرأة القابلة التي سمح لها بالدخول ما يلي :

- الحمد لله ، لقد ولد لسلطاننا طفلٌ سالم معافى . ترددت أصداء هذه الكلمات داخل القاعة وفي قلوب أولئك الذين يملؤونها . ارتاح السلطان هو وجميع الحاضرين .

أخذ أحد الخدام الطفل بإشارة من الصدر العظيم وأعطاه للوزير ، ومن ثم إلى الصدر الأعظم . لوحظ بكاء السلطان مراد خان من الفرحه حينما ناوله الباشا العظيم طفله . شم السلطان المتأمل للطفل لبعض الوقت رائحة صغيره وكأنه يستنشق زهر الجنة . ثم أرسل الطفل إلى والدته قائلاً : « تفتحت زهرة محمد في روضة مراد » . بعد ذلك أصدر أمراً وكأنه قد تذكر شيئاً قد نسيه قائلاً :

- كافيء المرأة القابلة الماهرة وطاقمها... ولا تنسى أيضاً
رئيس الأطباء ومساعديه .

سأل الباشا العظيم السلطان قائلاً :

- هل تفكر بإقامة احتفال يا سلطاني ؟

- إن الاحتفالات ليست لنا ، بل الحمد والشكر أياها الباشا .

- وهذا ما يتوقع منك يا سلطاني . حفظك الله وحفظ دولتنا .

- آمين أياها الباشا ! ولكن فليوزع الطعام على الفقراء
والمساكين ، وتأمين كافة احتياجاتهم .

- سمعاً وطاعة يا سلطاني .

غادر الصدر العظيم وبقية الوزراء والخدم القاعة مقبلين ذيل رداء
السلطان .

في حين ذهب السلطان مراد خان لتجديد وضوءه لكي يصلي
صلاة الشكر .

* * *

الأمراء في عهدكم

سقطت كرتان من النار دفعة واحدة على قلب هُما خاتون .
انقضت فترة طويلة من الزمن على ذهاب ابنها أحمد البالغ من عمره ١٤ عاماً إلى آماسيا بوصفه حاكماً على سنجق الروم (الأناضول) .
منذ ذلك الحين ، بدا وكأن سهماً من النار طعنها في قلبها . أما الآن يغادر ابنها الأوسط علاء الدين وابنها الصغير محمد إلى آماسيا ليكونا إلى جانب شقيقهما . وفي الوقت الذي ما تزال فيه حسرة ابتعاد ابنها الأكبر عنها حية في قلبها فإن استمرار هذه الحسرة على ابنها الصغيرين كان كمن يرش الملح والفلفل على جروح هُما خاتون .
لا بد أنه كان أمراً مؤلماً على أم تتحسر على أطفالها وألا تراهم بالرغم من معرفتها بكونهم على قيد الحياة . وإن كانت هُما خاتون تشعر بهذا الألم العميق ، لكنها حاولت ألا تظهر ألمها إلى المحيطين بها . لأنها تدرك وجود هذه القاعدة لدى الأسرة الحاكمة . حيث يتم إرسال الأمراء إلى الولايات الهامة في الأناضول منذ سن مبكرة جداً . يخضعون هناك إلى تعليم صارم ، ويقضون فترة تدريب على حكم الدولة .

لم تستطع هُما خاتون تمالك نفسها كثيراً عند اقتراب عربة السلطنة التي تُجر من قبل زوجين من الخيل الأصبه إلى باب القصر . حيث بدأت دموعها تنهمر كالسيل . لم تكن مناديل الحرير التي نسجتها الجاريات كافية من أجل كفكفة دموعها . ولم تكن هي الوحيدة التي تبكي بل جميع النساء الموجودات في القصر وكأن المغادرين هم أطفالهن .

هدأت هُما خاتون قليلاً وأعطت ابنها الأوسط علاء الدين بصعوبة إلى مرضعته . لم يكن علاء الدين على ما يبدو سيتمالك نفسه دون أن يبكي ويشهق بينما استطاعت هُما خاتون ذلك . غير أن الانفصال عن محمد هو الأمر الذي صعب عليها فعلياً . إذ أن الصغير لم يبلغ الثانية من عمره بعد . فتح عينيه السوداوين باتساع شديد ونظر بحيرة إلى والدته . من الواضح أن بكاء والدته قد أفرغ الطفل الصغير . حملت هُما خاتون الأمير ، واحتضنته وضمته إلى صدرها كما كانت تفعل طوال الستين الماضيتين . لم تستطع التوقف عن تقبيل صغيرها ولا يبدو أنها ستتوقف عن ذلك حتى قالت إحدى الجاريات :

- يريدون أخذ الأمير محمد يا سيدتي . يقولون أننا يجب أن نطلق في أقرب وقت ممكن .

يعد هذا الطلب بمثابة أمر . كانت هُما خاتون تدرك جيداً أن حزن السلطان العثماني لم يكن أقل من حزنها . ولكن ليس باليد حيلة . كما أن التقاليد الصارمة للدولة تتطلب ذلك . حيث سيتجرع الأمراء مرارة الحسرة من جهة وسيتم تربيتهم بوصفهم مرشحي السلطنة من جهة أخرى .

مرشحي السلطنة ؟

كلا ، بل سلاطين . . .

أي ابن سيصبح سلطاناً يا ترى ؟

جميع العلامات تشير إلى الطفل الأصغر . وماذا يعني ذلك ؟ يعني ذلك أنه سيتم إقصاء الأبناء الكبار . كيف سيحصل ذلك ؟ لا ترغب هُما خاتون التفكير بذلك . ولكن المرأة الحزينة حاولت مواساة نفسها في الوقت الراهن بفكرة أن أحد أبنائها سيصبح سلطاناً . وقالت في نفسها أنه من الأفضل الانتظار ورؤية ما سيحصل والباقي على الله الكريم .

أتت مرضعة الأمير محمد إلى هُما خاتون بإذن من رئيس الخصيان ووقفت تنتظر حانية رأسها لتأخذ الطفل .

لم يكن باليد حيلة . في حين انزعج الأمير محمد عند انتقاله من حضن إلى آخر .

لم يكن سهلاً نزع يده الملتفة حول شعر والدته . مع ذلك تحركت يده الصغيرتين مثل زهرة قطفت من غصنها . وقد بقيت بعض خصلات شعر والدته عالقة بين أصابعه . سمعت هُما خاتون - وهي منهارة في مكانها لا حيلة لها - صوتاً قادم من الخارج يقول :

- هيا يا فتيتاني ، إن الأمراء في عهدتكم !

تقدمت وحدات الحراسة أمام عربة السلطان . ومن ورائها عربات تحمل الجواري والصبيان . كما كانت هناك عربة أخرى تحمل برهان الدين آغا أحد الرجال الذين يثق بهم السلطان وعائلته . كان هذا الرجل الشجاع قائداً كَرَّس كل ما يملكه لخدمة السلطان مراد خان . حتى أن زوجته جانفيدا لا تسأل عن ماهية أمر السلطان بل تنفذه الأمر الصادر فحسب . والآن خرجوا ومعهما ابنهما بيرم البالغ من العمر عامين . والذي سيصبح صديقاً للأمير . كان شرفاً كبيراً لهم اختيارهم لأداء تلك المهمة النبيلة .

عندما عادت هُما خاتون إلى رشدتها وأخذت لترتاح كانت عيني الصغير محمد السوداوتين ما تزال ماثلة أمام عينيها . وستبقى تلك العيون تلاحق هُما خاتون على ما يبدو .

* * *

ثلاثة أمراء في آماسيا

شهدت آماسيا مدينة الأمراء يوماً غير اعتيادي آنذاك . فقد أرسل الأمير علاء الدين ومحمد مع أخاهم الكبير أحمد . حيث بإمكان الأمراء الذين سيصبحون في يوم من الأيام سلاطين عثمانيين تلقي العلم والتربية اللازمين هنا . أنهت المدينة جميع التحضيرات اللازمة من أجل تأمين بيئة مناسبة لضيوف الدولة .

كانت الروؤس التي امتدت من منازل آماسيا الخشبية المصفوفة وراء بعضها البعض تشاهد بفخر وبغبطة توجه الضيوف نحو قصر الأمراء . بدت المدينة التي يقطعها النهر الأخضر من المنتصف وكأن ضفتيه قد فتحت ذراعيها لاستقبال ضيوفها . رحبت قلعة آماسيا بالقادمين بصحبة هيئة المعلمين التي ستدرس قواعد الشجاعة . من يدري لربما كان سكان المقابر الملكية القدامى يشعرون ببساطة هذه اللوحة الرائعة . كان ينبغي على فيرعات الذي اخترق الجبال من أجل الحب أن يخبر الأمراء سراً هو : « إن كنتم عاشقين فلا بد أن تخترق قلوبكم الجبال » . كان هذا العشق بالنسبة إلى الوافدين الجدد وإن لم يدركوا ذلك بعد ولأخيهم الكبير أحمد ومرافقيهم هو

للدولة ! ليس هناك من جبل لا يمكنهم اختراقه من أجل بقاء الدولة !
خاض ولدي مراد خان الكبيرين في حديث عميق في القصر
الموجود في آماسيا المدينة التي « إن حفر حصان الأرض في
مهجعه ، لأمس حافره الحضارة » . ويرافقهما أصدقائهما
وأساتذتهما أيضاً... وكل أستاذ خبير في مجاله الخاص...

كان أحمد يسأل بكثرة وعلاء الدين يجيب . في حين جلس
محمد بيراء عمره البالغ سنتين في حضن مرضعته .

- قل لي يا أخي علاء الدين ، ما الأخبار التي جئنا بها من أدرنة ؟
- كما تعلم إن أدرنة بالنسبة لنا هي القصر ، وما يجري بداخله ؟
- حسناً ، أخبرني عنهم .

- قليلاً ما كنا نقابل والدنا مراد خان .

- أعلم ذلك بالطبع . كم أردت أن أَلعب مع والدي حتى
الملل...

قاطع معلم السيف والترس أحمد بسعال خفيف . وفي صوته
سخط وغضب قائلاً :

- يبدو أن ألعابنا لم تكن كافية لدى الأمير !

- إن ذلك أمر مختلف يا معلم بلابيك . إذ كانت أشبه بالدروس
أكثر مما هي ألعاب .

لوى المعلم بلابيك عنقه وهو يعلم أن الأطفال محقين في ذلك .
ومن الأرض حتى السماء أيضاً .

توجه أحمد بسرعة عمره البالغ ١٤ عاماً إلى محمد وسأل :
- كيف حال أخي الصغير ؟

حاول محمد النزول من حضن مرضعته . حيث سينزل ويعبث
بكل ما تراه عينيه . ثم سيلقي ببعض ما أخذه على الأرض ،
ويدهس البعض الآخر ، في حين سيحاول تناول ما تبقى . لذلك
أمسكت المرضعة المسكينة الطفل بإحكام كونها على دراية بما
سيحصل إن أفلته . كان محمد بحالته هذه أشبه بشبل أسد عالق في
مصيدة . ولكنه يدرك تماماً ما سيفعل إن حرر نفسه .
أحمد ،

- حدث ما كان متوقِعاً عندما كرر سؤاله قائلاً : « كيف حال أخي
الصغير ؟ » وبحركة واحدة أمسك محمد بشعر أخيه الكبير . فبدأت
الدموع تتطاير من عيني أحمد بسبب السرعة التي حصل فيها الأمر .
قال أحمد برد فعل غاضب مخلصاً شعره من قبضة أخيه :
- يالك من مشاغب !

ابتعد عن أخيه الصغير قائلاً في نفسه : « يبدو كالجوزة الصلبة ،
لكنني أعرف كيف أكرس الجوز الصلب ! »

الدرس الأول

تتوالى الدروس وراء بعضها البعض في قصر آماسيا للأمراء .
كان أفضل الأساتذة المختارون في مجالاتهم يعملون جاهدين على
إتمام المهمة الموكلة إليهم بأحسن ما يمكن بتعليم الأمراء كل أنواع
الرياضة من ناحية ؛ والعلوم الدينية وعلوم مثل قواعد اللغة
والرياضيات وعلم الفلك وغيرها من ناحية أخرى ، وكل ما يعتقد أنه
سيكون ذا فائدة لهم .

حينما بلغ محمد الرابعة من عمره نظم له احتفال خاص . حيث
سيبدأ الأمير الذهاب إلى المدرسة أو بالأحرى ستأتي المدرسة
بأكملها إليه .

وهذا ما حصل في الواقع . جلس المعلم الذي سيدرس الأمير
الأحرف الأبجدية والمعارف الأولى متربعاً على وسادة مطرزة
بخيوط القصب في القاعة ، منتظراً قدوم تلميذه . كان أمامه حامل
مصحف خشبي ذو أطراف مزخرفة بالذهب . وعلى سطح حامل
المصحف حروف أبجدية زينت أطرافها بالبرونز الذهبي .

كان الحارس ضخيم الجسم ، قال مخاطباً للمعلم :

- يا سيدي إن حضرة الأمير يطلب الإذن للدخول إلى حضرتك .
عند سماع المعلم ذلك رتب هندامه .

- استغفر الله يا سيدي ، فليفضل .

دخل محمد إلى الصالة ممسكاً بيد مرضعته . نظر إلى المعلم
بنظرات حادة كالنسر واستمر على هذا النحو دون أي تقدم أو
تراجع . . . حتى انحنت المرضعة وهمست في أذن محمد قائلة :

- تعال يا صغيري ، إن المعلم بانتظارك ليعلمك القراءة
والكتابة .

سأل الطفل بفضول :

- ماذا سيحدث إن تعلمت القراءة والكتابة ؟

- ستتمكن عندها من قراءة وكتابة كل شيء . وتكون على دراية
بكل ما يحدث في العالم .

- أحقاً كل شيء ؟

- نعم يا صغيري ، كل شيء .

- هل سأكون على علم بأخبار والدتي ؟

انقبض قلب المرضعة وقالت :

- ستكون على دراية بأخبار والدتك والدك أيضاً .

- حسناً إذن أريد تعلم القراءة والكتابة بسرعة .
- سألت المرضعة محاولة تلطيف المزاج قليلاً بالقول :
- ما هو أول عمل ستقوم به عندما تتعلم القراءة والكتابة ؟
- سأكتب رسالة إلى أمي وأبي !
- ماذا ستكتب فيها ؟
- سوف أسألهم عن سبب إرسالهم لي إلى هنا .
- عندها ندمت المرضعة أشد الندم لأنها سألت ذلك السؤال وقالت :
- حسناً اكتب ما تريد ولكن يجب عليك أولاً البدء بالدراسة لفعل ذلك .
- أحضرت محمد بهدوء ، وأجلسته على وسادة الريش الموجودة أمام المعلم . في حين وقف المعلم بحركة خفيفة غير متوقعة من رجل في عمره ، وجلس إلى جانب محمد . قبل وجنتي الأمير ، ثم عاد إلى مكانه قائلاً :
- هيا يا صغيري ، كرر ما أقوله : بسم الله الرحمن الرحيم .
- كرر محمد ما قاله المعلم بمقدار ما استطاع قوله .
- بسم الله الرحمن الرحيم .

- هلا بدأنا درسنا باسم الله أيها الأمير ؟

كرر الأمير قائلاً :

- هيا بدأنا درسنا باسم الله أيها الأمير .

بدأ المعلم بالضحك قائلاً :

- ليس هذا أيها الأمير بل ستكرر درسنا .

لم يتأخر الأمير بالرد قائلاً :

- ليس هذا أيها الأمير بل ستكفي درسنا .

وقف المعلم هذه المرة ، وحمل الأمير . ثم أشار إلى الحرف الأول من الأحرف الأبجدية :

- انظر ، هذه يقال لها « ألف » .

تابع محمد كلامه بجدية كاملة وقال :

- انظر ، هذه يايال لها « ألف » .

حاول المعلم جاهداً تمالك نفسه كي لا يضحك . ونادى الحارس الذي ينتظر أمام باب القاعة المفتوح :

- استدعي المرضعة ، لقد انتهى درسنا اليوم .

سألت المرضعة التي تفاجأت من قصر مدة الدرس بحماس

قائلة :

- كيف كان محمد يا أستاذي ؟
- رائع يا سيدتي ، كان رائعاً .
- لقد أعجبك إذن .
- نعم أعجبت به بل أحببته كثيراً .
- بارك الله فيك يا سيدي .
- لدي طلب خاص من حضرتكم . . .
- تفضل يا سيدي ، إن طلباتكم أوامر بالنسبة لنا .
- اعتنوا جيداً بهذا الطفل ، سيكون رجلاً عظيماً في المستقبل .
- بل . . .
- لم يكمل المعلم كلامه . لأنه قد يكون ممنوعاً متابعة كلامه في وقت يجري فيه تحضير الأمير أحمد لاعتلاء عرش السلطنة .

* * *

كيف هي الجنة ؟

كان الأمير أحمد يُجهز بعناية كبيرة للسلطنة من قبل معلميه ومربيه . وهو أمر كان يعلمه الأمير دون شك . فقد كان يعتبر أن ذلك من حقه كونه الابن الأكبر لمراد خان . ولا يتوقع شيئاً أقل من ذلك .

وقد وجد لدى البعض آراء أخرى حول سلطنة الأمير أحمد . وهم رئيس الأطباء وطاقمه . إذ لم تكن زياراتهم السابقة إلى القصر مستغربة . كان جميع من في القصر يدركون ضرورة اعتناء رئيس الأطباء بصحة الأطفال . غير أن زياراته المتكررة بدأت تثير بعض الشبهات . في الحقيقة ، كان رئيس الأطباء يبدي الاهتمام نفسه بالأمراء الثلاثة ولكن كان واضحاً وجود أمر غير عادي .

لسوء الحظ كان هناك وضع غير طبيعي يتعلق بصحة الأمير أحمد . وقد بذل رئيس الأطباء وطاقمه كل ما في وسعهم لإيجاد علاج له عند معرفتهم بإصابة الطفل بمرض عضال . لكن ذلك لم يكن كافياً ، وبجميع الأحوال لم تكفي ؛ وقضى أجله الذي قدره الله واتخذ مكانه في العالم الأبدي .

انهمك قصر آماسيا للأمرء بالبكاء على وفاة الأمير أحمد أكبر
أبناء السلطان مراد .

ارتبك جميع من في القصر أمام بكاء الأميرين الآخرين معانقين
بعضهما البعض بعيداً عن أبيهم وأمهم لا يعلمون ما سيفعلانه .

تم تجهيز موفدين خاصين . كانوا سيوصلون هذا النبأ الحزين
إلى أدرنة .

خاطب الأمير محمد بصوت اختلط فيه الحزن بالغضب مرضعته
قائلاً :

- أريد أن أكتب رسالة أيضاً . ودعي الرسل يسلمون رسالتي هذه
لوالدي .

- كما تريد أيها الأمير ، كما تريد . . .

قال الأمير علاء الدين ،

- دعنا نكتب الرسالة معاً يا أخي .

- حسناً يا أخي ، اكتب ما سأقوله .

أعطيت الأوامر يمنية ويسرة . وأحضر الورق والحبر والدواة .

قال محمد الصغير كل ما يدور في ذهنه ، في حين قام شقيقه بكتابة
ذلك بشكل منظم على الورق كما يلي :

« أمي وأبي العزيزين ،

ما زلت طفلاً صغيراً ، لذلك سأكتب لكم أشياء طفولية .

كم وودت أن أعيش معكم مثل أي طفل عادي . كم أردت أن أكبر في حضنكما مستنشقاً رائحتكما . لكني لم أعد أذكر حتى رائحتكما إنني أتساءل حقاً كيف هي ، تقول مرضعتي « إن رائحة الأم تشبه رائحة الجنة » . هل هذا صحيح ، أتساءل عن ذلك حقاً . هناك أمر آخر يثير فضولي يا أمي ، هل تشاقين إلى رائحتي أيضاً ؟

والدي العزيز ،

وأنت يا والدي ، هل تفكر بي وأنت تعدو بخيلك في ساحات الحرب ؟ هل تفكر بي وبأخي الكبير علاء الدين ؟

هل تعلم يا أبي ، إن أخي أحمد قد تنازل عن تولي العرش من بعدك ؟ كان يقول إنه لم يعد يريد أن يصبح سلطاناً كما بدأ ! . يردد هذا الدعاء باستمرار في الأيام الأخيرة قائلاً : « سأدخل الجنة إن شاء الله »

أبلغنا مريتنا اليوم بخبر رحيل أخي أحمد إلى مكان لا رجعة منه .

أين هذا المكان الذي لا رجعة منه يا أبي ؟

هل الجنة هي هذا المكان ؟

ألم أقل لكما أنني ما زلت طفلاً

لذلك أقول مثل هذه الأشياء الطفولية .

أقبل أيديكما .

وأخي علاء الدين يسلم عليكما ويقبل أياديكما أيضاً » .

سقطت هذه الرسالة كالقنبلة على قصر أدرنة .

نظرت هُما خاتون إلى السلطان مراد بعيون متوسلة وقالت :

- لقد تألمت بما فيه الكفاية . قال السلطان : اذهبي إلى آماسيا

على الفور !

برأيكم ماذا فعل الأمير محمد عندما استيقظ صباحاً ليرى أمه

الحقيقية أمامه وليس مرضعته ؟ ما الذي سيفعله ؟

في البداية ظن أنه يحلم ، فأغلق عينيه مجدداً محاولاً عدم

الاستيقاظ .

ولم يصدق أن ذلك حقيقياً حتى دغدغ شعر أمه الحريري خده ،

وملأت رائحتها الجميلة الغرفة .

كلا ، لم يكن حلماً ما رآه . بل الحقيقة بعينها .

عانق والدته كما عانقها عند افتراقهما . استنشق رائحتها وفاضت

دموعه مثلما بكى عند انفصالهما ؛ ولكن الفرق الوحيد أنه بكى

آنذاك من شدة حزنه ، أما الآن يبكي من الفرحة . وأخيراً ابتعد عن

والدته عندما سمع أخاه علاء الدين يقول :

- دعني أرى والدتي قليلاً .

عانق كلاهما والدتهما هُما خاتون معاً قائلين :

- لا تتركينا مرة أخرى .

قالت هُما خاتون :

- لن أترككما وإن حاربتني الدنيا بأكلمها لن أترككما بعد الآن !

* * *

محمد فقط

- إن وجود فراغ في الدولة غير مقبول يا أميري . ينبغي ملء الفراغ الذي خلفه أخاك الأكبر أحمد في الإدارة على الفور .

جاء المربي إلى الأمير محمد وأخبره بذلك . لم يفهم محمد البالغ من العمر ست سنوات شيئاً مما قاله . ونظر إلى وجه مربيه محتاراً . جثا المربي الذي نجح في تجاوز الصعاب الكثيرة بالخبرة التي اكتسبها عبر السنين على ركبتيه ، أمسك وجنتي الطفل براحة يديه متابعاً كلامه :

- ما أقصده يا أميري أنك أصبحت حاكماً على سنجق بك (أمير اللواء) الروم بأمر من والدك .

- ما معنى سنجق بك ؟!

- يعني أنك ستدير شؤون هذه المنطقة .

- ما معنى إدارة شؤون أيها المربي ؟

- أي أنك ستجد الحلول لجميع مشاكل الرعية .

- أحقاً سأجد الحلول لجميع المشاكل ؟

- نعم أنت . . .

- كيف سأفعل ذلك ؟

- في البداية ستتعلم كيف تصبح حاكماً جيداً .

تذمر الأمير محمد لطفل في عمره وقال :

- لا أبالي بذلك . ليتعلم أخي علاء الدين أولاً فأنا ما زلت طفلاً .

- سيذهب أخاك إلى مانسيا . عين على سنجق ساروهان .

صدم الأمير محمد تماماً بهذه الجملة الأخيرة وقال :

- ماذا يعني ذلك ، هل سأبتعد عن شقيقي ؟

- أنا آسف جداً ولكن هكذا هي قوانين الدولة . لقد اتخذ والدك مثل هذا القرار لكي تنشأ كلاكما جيداً .

- القرار تلو القرار . . . لماذا لا يأخذ برأينا عند اتخاذ مثل تلك القرارات ؟

- ألم أقل لك يا أميري سابقاً أنها قوانين الدولة . . .

- ألا يمكن تغيير قوانين الدولة أيها المربي ؟

- إن تغيرت تضعف الدولة . . . بفضلها بدأت الدولة العثمانية تصبح دولة قوية .

أدرك محمد أنه مضطر لقبول ذلك . لوى عنقه مستسلماً لا حيلة له . ثم همس بعد قليل قائلاً :

- كيف يمكنني فعل ذلك أيها المربي ؟

- اطمئن يا أميري ، سنساعدك في ذلك .

- أنتم

- نعم نحن ؛ جميع من في القصر . . .

- هل أنتم من سيحل جميع المشاكل ؟

- يمكن القول أننا سنحلها معاً ؛ ستتخذ القرارات وأنت ستصدر

الأوامر .

- هل سأصدر أنا الأوامر ؟

- نعم . . .

- هل بإمكانني إصدار أي أمر أريده ؟

- بل ينبغي أن تكون أوامرك لمصلحة الدولة .

- حسناً فهمت ، سأصدر أولى أوامري .

- أمرك يا أميري . قال المربي ذلك وقد شبك يديه أمامه ووقف

باحترام منتظراً قرار الأمير .

كان ذلك الموقف مضحكاً لدى الأمير .

- أولى أوامري هو . . .

- نعم . .

- الأمر الأول هو أن يجمع جميع الأطفال بالقصر في الحديقة !

- سمعاً وطاعة يا أميري .

- وأن ينفذ الأمر على الفور . . .

- هل يُمكنني أن أسأل عما ستفعلونه ؟

- سنلعب معاً أيها المربي !

دامت ولاية محمد سنتين كاملتين . أمضى فيها معظم وقته في اللعب . وبخاصة مع صديقه بيرم . كان هذا الطفل الذي قدم مع محمد من أدرنة ضخماً الجثة وأقوى منه بالرغم من أنهما في نفس العمر . كان طفلاً شجاعاً مثل والده تماماً لا يهاب الصعاب .

لم يكن يعلم هو والمحيطين به بما فيهم الأمير محمد أن الألعاب التي يلعبها تقربه خطوة تلو الأخرى من السلطة . فقد كانوا ينفذون أوامر مراد خان فحسب . وفي غضون ذلك لفت انتباه الجميع أن الأمير محمد هو من يصدر جميع الأوامر دائماً حتى في الألعاب . وهو من يكسب في جميع السباقات . كان بيرم الشخص الوحيد الذي يقف بوجهه . وفي النهاية لم يستطع هو نفسه التغلب على

الأمير . في حين لم يحاول بقية الأطفال إرهاب الأمير بناء على التحذيرات التي وُجّهت إليهم .

ذات يوم كان الأمير محمد يصارع أطفالاً بنفس عمره . هزم ثلاثة أطفال على التوالي . وعلى الفور قال باعتزاز كبير :
- لن يهزميني أحد !

أغضبت هذه الكلمات أحد الأطفال الذين هُزموا عمداً في المصارعة . وقال معتقداً أن أحداً لن يسمعه :

- تابع التفكير على هذا النحو ، لو لم تهزمنا عمداً لأنك أمير
لكنت نلت ما تستحقه !

عندها التفت الأمير محمد غاضباً بينما كان بيرم الذي سمع كلامه يستعد لمهاجمة الطفل الضابط على أسنانه لهزيمته وأوقفه عند حده قائلاً :

- ما الذي تقول يا هذا ؟

- لم أقل شيئاً يا أميري ، قلت فقط كم أنك مصارع بارع حقاً !
- لا تكذب !

.....

- هل ما قلته صحيح ؟ هل تعتمدون الهزيمة ؟

....

- إذن صحيح . لو لم أكن أميراً هل كان باستطاعتك هزيمتي ؟

...-

- أنا أكلمك ، هل بإمكانك هزيمتي لو لم أكن أميراً ؟

...-

- سأخلع ثيابي . وأنت اخلع ثيابك أيضاً . ونبقى مرتدين
سروالنا فحسب .

نظر الأمير محمد إلى سرواله فرآه مزركشاً أكثر من الطفل الذي
يتحداه ، فطلب على الفور سروالاً مثله . فأحضره له . وبذلك أصبح
المتنافسان الصغيران متساويين . ولم يعد محدداً من الأمير ومن سواه
عند النظر إلى ملابسهما . بدأت المصارعة بأمر من أستاذ التحكيم .

وقف الطفلان وجهاً إلى وجه كالمصارعين وأخذوا يقيمان
بعضهما البعض بذراعيهما . انتظر محمد إقدام منافسه على الخطوة
الأولى . شده الطفل المنافس بقوة معتقداً أنه سيسقط الأمير محمد
أرضاً ، ولكن لم يحصل ذلك . ولم يتزحزح محمد من مكانه .

ثم رجعا إلى وسط الحلبة ووقفوا وجهاً لوجه . وفجأة شوهد
محمد سارحاً وحده .

ثم تشبث بساق خصمه اليمنى وبدأ بسحبه . كان يتحرك بسرعة
كبيرة لدرجة أدهشت المتابعين له . وفجأة أراد محمد المتباطئ منع

خصمه فرصة . التقط الطفل أنفاسه وانبطح على الأرض ووجهه للأسفل . عندها وضع محمد ساقى الطفل تحته ، وأمسكه بإحكام من خصره . وأخيراً أسقطه أرضاً واعتلى فوقه مطبقاً قواعد اللعبة بحذافيرها . تفاجأ الجمهور على غرار الطفل الذي ألحقت به الهزيمة . صاح الأمير محمد بأعلى صوته قائلاً :

- هل هنالك من يثق بنفسه ؟ كفاية لمواجهتي ؟ أنا الآن محمد فقط ولست أميراً !

لم يتجرأ أحد آخر على مواجهة الأمير .

بينما كان الوقت يمر بسلاسة ، صدر أمر جديد من السلطان مراد خان مفاده :

سيذهب الأمير محمد إلى مانسيا بصفته سنجق بك على لواء ساروهان . وبالمقابل حضر شقيقه علاء الدين إلى آماسيا ليكون حاكماً على سنجق الروم .

وباختصار ، لقد تبادل الشقيقين مكانيهما ، مما سيجعلهما ينالان خبرات جديدة ، ويتعلمان كيفية إدارة شؤون الدولة بشكل جيد في هذه المناطق الجديدة . لم يشكك الأمير محمد بهذا القرار الجديد . يبدو أنه بدأ يعتاد تدريجياً على إدارة الدولة .

* * *

مدي يدك يا مانيسا

في يوم صيفي من عام ١٤٤٣ عمّت مشاعر الحزن قصر آماسيا
للأمراء مع انطلاق عربية السلطنة التي تحمل الأمير محمد باتجاه
مانيسا . لا سيما أطفال القصر كانوا يبكون حزناً على رحيل الأمير
الذي يحبونه جداً . ذلك أن الطفل المغادر ليس أميراً فقط بل أحد
أصدقاء اللعب الراحل عنهم . كم سيكون جميلاً لو أمضينا سنوات
طوال أخرى معاً . ولكن لم تتحقق جميع أمانيتهم الأطفال . كما أن
الطفل المغادر كان أميراً أولاً وأخيراً وينبغي تهيئة الأمير محمد البالغ
من العمر ١٢ عاماً لإدارة شؤون الدولة . من يدري لعل الأمير
المحبوب قد يصبح سلطاناً في المستقبل . كان هذا الفخر كافياً لهم
وقد يزيد أيضاً . سيمكنهم ذلك من القول أن حضرة سلطاننا هو
صديق طفولتنا !

كانت مرضعة الأمير محمد موجودة داخل عربته . وقد صنعت
هذه العربية التي يجرها زوج من الخيول بشكل محكم من أجل تحمل
الرحلات الطويلة . كان سائق العربية يجلس في مكانه المخصص ؛
ويتحكم بحركة الخيول باللعجام الذي بيده .

كانت هناك عربة أخرى في المقدمة ، جلست فيها العائلة التي سبق أن جاءت مع الأمير محمد من أدرنة إلى آماسيا . كان برهان الدين آغا ، وزوجته جانفيدا وولدهم بيرم يبدون ممتنين للغاية من حالتهم هذه . كان بيرم فخوراً جداً لكونه صديقاً مقرباً من الأمير . مما يعني أنه سيشعر بالفخر نفسه الآن على أرض مانسيا .

كانت في المقدمة أيضاً عربة أخرى تحمل معلمي الأمير محمد .

وكان يحيط بهم من كافة الجوانب فرسان على استعداد تام لاستخدام أسلحتهم . كانت مهمة هؤلاء الجنود المختارون حماية الركاب من كافة الأخطار بمختلف أشكالها .

كانت القافلة تسير طوال اليوم ، وتتوقف في بعض الأحيان في الضواحي لأخذ استراحة . ومن ثم تتابع رحلتها بعد أن تستريح الخيول ومن عليها . وتتوقف في الليل . كانت الخانات الموجودة على الطريق تظهر امتناناً كبيراً لاستضافتهم .

كاد أن يحل المساء عند مرورهم من شوروام متجهين إلى أنقرة . حيث تصاعدت صيحات الأشخاص المطلقين من نوافذ بيوتهم ذو الطابق الواحد والسقوف الترابية في أنقرة ، في السماء تنادي « حفظ الله دولتنا » ويلوحون بأيادهم للمسافرين . في حين لم تكن محبة المواطنين المصطفين على جانبي الطرقات أقل من غيرهم على الإطلاق .

تم تحويل طريق القافلة باتجاه مركز أنقرة .

كان أتباع الصوفية الموجودين في تكية الولي حجي بيرم ينتظرون الضيوف كما تم إبلاغهم مسبقاً . وصاح أحد الصوفية معلناً وصولهم ازدادات التحركات في الحديقة بشكل كبير . أخذت الخيول من قبل السائسين ؛ وملئت بطونها ، وشربت المياه وتم تمشيها . أدخل رجال الصوفية الضيوف إلى الغرف واحداً تلو الآخر . وقد أعدت الموائد الفاخرة في كل غرفة . وملئت البطون .

كانت المرة الأولى التي يرى فيها الأمير محمد التكية . حيث البيئة هادئة جداً هنا . كان الناس يتحدثون همساً ويتسابقون بين بعضهم البعض في تقديم المساعدة . كانت الملابس التي يرتدونها هنا مختلفة أيضاً . فقد ارتدى أتباع الصوفية جبة طويلة وسراويل عريضة وعمامات ملفوفة حول طرايشهم تصل إلى خصرهم ، يبدو وكأنهم اعتزلوا هذا العالم .

وحينما تأخر الوقت كثيراً استسلمت الأجساد المتعبة للراحة في أحضان النوم .

وبمجرد أن حل الصباح وحن وقت العمل اجتمعت جميع الصوفية في قاعة كبيرة . دعا أحدهم الأمير محمد برفقة مربيه إلى القاعة . رحب رجل عجوز ذو لحية بيضاء ووجه منير ، على ما يبدو

أنه شيخ الصوفية ، بالضيوف ناهضاً من مكان جلوسه .

قال المربي بلباقة كبيرة :

- أرجوك يا حضرة الشيخ ، لا تقف ؛ أنت اجلس ونحن نقبل يدك .

أدرك الأمير محمد على الفور من كلام مربيه أن هذا الشيخ شخصاً هاماً .

- إن احترام أميرنا ، احترام لدولتنا . وهو ما سبق ورأيناه من شيخنا الولي حجي بيرم .

- عاشت دولتنا يا حضرة الشيخ .

- لقد تلقينا إشارة أخرى من الشيخ . . .

- مثل ماذا يا سيدي ؟

- أبلغنا شيخنا أن « الأمير محمد سيزور التكية في يوم من الأيام ، احذر أن تقصر في خدمته » .

- ذلك من لطفه يا سيدي ، حفظه الله .

بينما كان الأمير محمد يستمع إلى حديثهما ، لاحظ فجأة انخفاض نبرة صوتهما . وتهاوسا إلى حد ما ، ولكنه فهم كلامهما بانتباه قليل :

- أبلغنا شيخنا أن « الأمير محمد سيصبح سلطاناً إن شاء الله وسيحقق البشارة المذكورة في أحاديث نبينا الحبيب صلى الله عليه وسلم المباركة » .

- نعلم ذلك ولهذا نعتني بأمرنا كثيراً .

استنتج الأمير محمد من كلامهما أنه سيصبح سلطاناً ولكن كيف سيحدث ذلك وشقيقه علاء الدين أكبر منه ؟ أدرك ضرورة سؤال مربيه عن ذلك في الوقت المناسب .

حان وقت الوداع . قبل المربي أولاً ثم الأمير محمد يد الشيخ . وبدوره احتضن الشيخ محمد قائلاً له :

- كن في أمان الله وحفظه أيها الأمير .

ومع مغادرة القافلة للتكية ورحيلها اختلطت مشاعر السعادة والحزن على ما يبدو على وجه المتصوفة .

تابعت الرحلة طريقها باطمئنان كبير . وبعد اجتيازهم أسكي شهير وكوتاهية لمحت أضواء مانسيا من بعيد . كان قد حل المساء . رافق الخيالة المنتظرين عند مدخل المدينة الضيوف إلى قصر الأمير مباشرة .

كانت الرحلة متعبة جداً .

وأخيراً استطاعت الأجساد المتعبة أخذ قسطها من الراحة . وانتهى اليوم .

استيقظ الأمير محمد عند رفع أذان الفجر . وتوضأ مثل جميع من في القصر . وسيصلي مع الجماعة بعد قليل .

هل يهرب الأمير محمد من الدرس ؟

شعر الأمير محمد أثناء وجوده في آماسيا بنموه البطيء ونضجه كذلك رغم اهتمامه باللعب مع أصدقائه . فقد ضيق عليه نظام الدولة العثمانية إلى حد جعله يدرك أهمية التفكير في مصالح الدولة في كل خطوة يخطوها . لأنه عندما يتعلق الأمر « بالدولة » فقد بات لزاماً إنهاء « وقت اللعب » . غير أن الأمير محمد لم يستطع التخلي عن اللعب ولا عن مفهوم الدولة . . . لذلك وجد طريقة للجمع بينهما : بدأ ينظر إلى الدروس التي يتعلمها لكي يصبح رجل دولة عظيم على أنها جزء من لعبة كبيرة . وبهذه الطريقة استطاع إيجاد جانب ممتع بأكثر الدروس مللاً . كان يتمادى أحياناً إلى حد بدأ فيه بالهروب من الدروس لكي يغيب معلميه الذين يكرههم خاصة . كان هذا الموقف يؤدي إلى أزمة صغيرة في القصر ولكن سرعان ما يتم القبض عليه من قبل رجال معلميه وإحضاره ، أو يعود من تلقاء نفسه ، وكأن شيئاً لم يحدث . . . كان يعترض على هؤلاء الذين يريدون محاسبته ممازحاً إياهم بالقول « أراد أميركم استنشاق بعض الهواء النقي ، هل هناك من مشكلة ؟ »

إذن هل سيتمكن من الهرب من الدروس كما يحلو له هنا مثلما كان يفعل في آماسيا ؟ سيتبين ذلك مع الوقت .

استطاع الأمير خلال مدة قصيرة فهم ماهية معلميه . بدا وكأن أيًا منهم لن يستطيع فرض سيطرته الكاملة على الأمير محمد .

باستثناء معلم واحد فقط لم يستطع التخلص منه بأي شكل من الأشكال . كان لدى آق شمس الدين صفة مميزة عن بقية المعلمين . إذ كان يذهب إلى الأمير مباشرة عوضاً عن انتظاره في قاعة الدراسة . في هذه الحالة ، لم يكن هناك من مغزى لهروب الأمير من الدرس . في الواقع ، كان محمد يشعر براحة كبيرة معه . كان شعر آق شمس الدين الأبيض ولحيته الخفيفة تعطي وجهه مظهراً لطيفاً . كما كان كلامه اللطيف وصوته الناعم كالحرير يعجب الأمير . كانت لآق شمس الدين نظرة ثابتة يستطيع من خلالها معرفة ما يفكر فيه الإنسان . حتى أن الأمير الذي كان شاهداً على ذلك مراراً أندھش قائلاً :

- اعذرني يا معلمي ولكن كيف تعلم ما أفكر به ؟

أجاب آق شمس الدين بتواضع كبير :

- استغفر الله يا أميري ، إن الله وحده يعلم السر وأخفى ، وهو وحده يعلم الغيب . . .

- أعرف ذلك ولكن يدهشني سعة علمك .
- يمكن أن ندعوها - إن أردت - بالخبرة أو الحدس . . .
- أعلم ما هي الخبرة ولكن ما هو الحدس ؟
- دمج الأحداث معاً وتوقع ماهية الأمر يا أميري .
- لماذا إذن لا أستطيع توقع ما تفكر فيه ؟
- سيأتي الوقت المناسب لذلك يا أميري . وستتعلم كيفية توقع حقيقة الأشخاص بالنظر إلى خطوط وجهم وتعقب حركات أيديهم وأذرعهم وأرجلهم .
- إن شاء الله يا معلمي .
- تعلم ضرورة أن تبذل جهداً أكبر وتدرس من أجل تحقيق ذلك ، أليس كذلك ؟
- تقطب وجه الأمير محمد عند سماعه كلمة « الدراسة » . قال آق شمس الدين :
- إنك تفكر الآن « يا إلهي هل ستكلم مجدداً عن الدراسة ، لقد سئمت من تلك الكلمة » .
- وقع الأمير في الحيرة مرة أخرى . فقط كان يفكر تماماً كما قال معلمه . طأطأ رأسه محاولاً إخفاء خدوده المحمرة خجلاً .

- أنا أعرف ما تمر به يا محمد ، جميع الأطفال الأذكياء يتصرفون على هذا النحو . ويريدون إنجاز الكثير من الأشياء دون بذل كثير من الجهد . ولكن النتيجة هي . . .

- لا تجري الأمور كما نريد ، أليس كذلك ؟

- أحسنت يا أميري ، لقد علمت ما سأقوله . . .

قال محمد متفاجئاً قليلاً :

- لقد توقعت ما ستنهي به كلامك فقط .

- في المستقبل ستوقع الكثير من الأمور الأخرى وستكون توقعاتك صحيحة إن شاء الله . هل تعلم يا محمد ، كان هناك صوفي . . .

أحب الأمير قصص آق شمس الدين وبخاصة هذه الأنواع منها . حيث كان يجد فيها تفاصيل حياته . وقد تعلم الكثير من خلال هذا النوع من المحادثات دون أن يشعر بذلك .

تابع آق شمس الدين قائلاً :

- ماذا كنت أقول ، نعم ، كان هناك صوفي ، قال في أحد الأيام سيرزقني الله حتماً كما يرزق الجميع . إذن لماذا ينبغي علي العمل ؟ سأذهب إلى غرفتي وأغلق الباب وانتظر . وأرى ماذا سيرزقني الله ؟ وبالفعل فعل الصوفي ذلك حقاً ، ذهب إلى غرفته ، وأغلق

الباب ، وبدأ بالانتظار . انتظر حتى المساء ، لم يأتِ أحد . قال
غداً هو يوم جديد ، لربما سيأتي رزقي في الليل . مضى الليل وهو
ينتظر دون جدوى .

تضور جوعاً . حل الصباح ولم يأتِ أحد أيضاً . انتظر حتى
المساء ينفخ ويتأفف من الجوع . عندما كاد يفقد الأمل ، سمع طرقات
على بابه .

- هل أنت في المنزل أيها الجار ، لقد أحضرت لك الحلوة
الطحينية .

انتعشت آمال الصوفي عند سماع كلمة الحلوة الطحينية ؛ لكنه
أراد أن تصل الحلوة الطحينية إلى عنده . لم يحدث ذلك بالطبع .
ثم سمع مجدداً صوت الجار من الخارج يقول :

- على ما يبدو أن جاري ليس في المنزل . ماذا أفعل لم تكن من
نصيبه .

سعل الصوفي ، الذي فطن أن الجار الذي جلب الحلوة على
وشك الذهاب بقوة - أولاً بالسعال - ثم هرع نحو الباب . وبالفعل
انتظر الرجل الذي سمع صوت السعال حتى فُتح الباب ومد الطبق
المليء بالحلاوة إلى الصوفي . أخذ الصوفي الحلوة شاكرًا إياه .
وبعدما عاد إلى غرفته وتناول تلك الضيافة بهناء قال :

- لقد رزقتني يا الله الحلاوة لي ولكن جعلتني أسعل لكي أحصل عليها !

فهم الأمير المغزى .

- كالعادة أنت محق مرة أخرى يا معلمي ، إنك محق من الأرض حتى السماء .

* * *

لا تدعها تذهب أبعد من ذلك

تمر الأيام والأمير يحضر الدرس الذي يعجبه ، كما كان يفعل في آماسيا ، ولا سيما درس المعلم آق شمس الدين يسمعه وكله آذان صاغية ؛ يمتطي حصاناً أدهماً ويسرح في الحقول خلال الدروس الباقية كما يحلو له . ولكنه لم يكن وحيداً . كان بيرم ينتظر صديقه في مكان اللقاء . وبالطبع لم يكن بيرم وحيداً هو أيضاً . كان والده برهان الدين آغا واثنان من الحرس معهما يراقبان الشابين .

في يوم من الأيام سئم الأمير محمد من الدرس مجدداً . بدأ بالتثائب في مكان جلوسه . قال معلمه :

- لقد سئمت على الأغلب يا محمد ، إن أردت يمكنك الخروج قليلاً لاستنشاق بعض الهواء الطلق .

- إذا كان هذا ما تعتقده ، لن أكسر في خاطرك . قال ذلك وخرج لالتقاط بعض أنفاسه . امتطى حصانه الأدهم وبحركة خاطفة وصل إلى مكان اللقاء . كان بيرم ينتظر في مكانه المعتاد منذ وقت طويل .

تعانق الشابين وكأنهما لم يلتقيا منذ أربعين عاماً .

قال برهان الدين للحارس الذي يتابع هذا المشهد من الطرف الآخر :

- أطل الله في عمر هذا الطفل ؛ إنه ينشأ جيداً ، وجيداً جداً . ثم أضاف قائلاً :

- انظروا لقد بدأ بالتسابق مجدداً .

أجاب أحد الحراس قائلاً :

- صحيح أيها الآغا ، لقد أصبحت النزعات أجمل هذه المرة .

في حين دعا الآخر قائلاً :

- حماه الله من العين والحسد .

لا يعرف فيما إذا كان قائل هذا الدعاء هو نفسه قد حسدهم بالفعل ، على كل حال اقترب دبّ من هناك وأصدر صوتاً قوياً كالرعد أخاف الأحصنة . عندها بدأ حصان محمد أولاً ثم حصان بيرم بالركض بكامل قوتهما .

سحب برهان الدين آغا والحرس سيوفهم ورماحهم وهاجموا الدب . وبالرغم من ضخامته لم يكن الدب سريع الحركة بما فيه الكفاية . بدا وكأنه محاصر لا مجال عنده لكي يخطو خطوة أخرى . فضلاً عن إصابته بجروح إثر تلقيه ضربات رماح عديدة من الحرس . عندها أدرك أن المخرج الوحيد هو التراجع والعودة من الطريق الذي

جاء منه . بدا من الأصوات الحزينة الصادرة منه أثناء رحيله أنه لم يتقبل الهزيمة .

كانت الخيول تجري بسرعة عالية تكاد تطير فيها على إثر الصوت الذي سمعته . ولو اقتصر الأمر على الجري بسرعة فقط لكان الوضع أفضل ، ولكن كانت الخيول تقوم بحركات لا يمكن تصورها وكأنها تتعمد إسقاط ممطيها . وأخيراً ، حدث ما كان متوقع . مهما كان الفارس جيداً ، فقد وجد الأمير محمد نفسه على الأرض . ومن حسن حظه أنه انتبه قليلاً أثناء سقوطه ، حيث نجح بالسقوط على ساعده اليمين عوضاً عن إصابة رأسه . مما أدى إلى كسر الساعد الأيمن للأمير .

أما بيرم كان ما يزال يحاول جاهداً عدم السقوط عن خيله . وأخيراً ، هدا الحصان المضطرب . وركض بيرم بسرعة كبيرة نحو الأمير . في غضون ذلك كان والده برهان الدين والحرس قد حضروا إلى عند الأمير محمد منذ فترة طويلة .

وجد الحرس قطعتين من الخشب . قاموا بتثبيتها على جانبي ذراعه المكسورة وربطها بأحزمتهم التي سحبوها من حول خصرهم . امتطى برهان الدين آغا خيله حاملاً الأمير .

في حين جرَّ أحد الحراس حصان الأمير محمد الأدهم الذي كان

قد هداً منذ بعض الوقت . وتوجهوا نحو القصر . أخذ الحارسان يتحدثان فيما بينهما على الطريق قائلين :

- أرايت المصيبة التي حلت بنا ، لم نستطع حماية الأمير .

- وهل من السهل حماية الأمير يا صديقي ؛ إن الميمون ليس بطفل بل شعلة نار ، نار... .

- إنك محق ولكن هل بوسعك شرح هذا للسلطان مراد... .

سمع برهان الدين آغا تلك الجملة الأخيرة وقال :

- غداً هو يوم جديد يا آغاوات - الله أكبر - بالتأكيد .

سمع محمد كلامهم أيضاً . كرر كلام برهان الدين آغا متجاهلاً آلام ساعده .

- الله أكبر بالتأكيد ، غداً هو يوم جديد... .

أراحت تلك الكلمات الحرس قليلاً .

ثم دخلوا إلى القصر . أعطيت الأوامر إلى الجميع . واستدعي رئيس الأطباء للحضور على الفور . قال بعد معاينة قصيرة .

- لقد كُسرت ، فليرتح أميرى سنقوم بما هو ضروري .

- أنا مرتاح أيها الطبيب ، ولكن انظر إلى الحرس ؛ إنهم خائفون أكثر منى !

دعا رئيس الأطباء الحرس للقدوم إليه . وبالفعل كانت وجوههم مصفرة من الخوف .

سأل رئيس الأطباء :

- أخبروني ما الذي حدث ؟

لم يعرف الحراس ما سيقولانه . كانوا يتصببون عرقاً من ناحية وينظرون بأطراف أعينهم إلى برهان الدين آغا . لكن لم يقدروا على إنقاذهم بل أسعفهم الأمير قائلاً :

- كنا نتجول في منطقة الأحرار . سمعنا فجأة صوتاً يخترق السماء .

كان هناك دب يصرخ بقوة حتى بلغ صياحه إلى السماء من ناحية ، ويتجه صوبنا من ناحية أخرى . لم يكن سهلاً السيطرة على خيولنا الجافلة . بعد ذلك بقليل وجدت نفسي مطروحاً على الأرض . قام حصاني الأصيل بما فعله ، ونجح في إسقاطي على الأرض . الحمد والشكر لله أن ذراعي هي المكسورة فقط . كان من الممكن أن يكون الوضع أسوأ . ولحسن الحظ أن حصان بيرم قد هدأ دون أن يتسبب بأي أذى له .

لم يستطع رئيس الأطباء منع نفسه من السؤال عن ذلك قائلاً :

- أعذرني يا أميري ولكن ما الذي حدث للدب ؟

- أصيب الدب بجراح من جراء رماح برهان الدين آغا والحرس .
وابتعد الحيوان الضخم عائداً إلى المكان الذي قدم منه .

قاطع برهان الدين آغا الكلام وقال :

- كان الدب ضعيفاً رغم ضخامته . ربما كان يتضور جوعاً .
اعتقد أنه أتى إلى هنا على أمل أن يجد طعاماً .

قال رئيس الأطباء :

- لقد نجوت بأعجوبة يا أميري ، وبأقل الأضرار . . .

حضر الأمير محمد ذراعه ، أشير عليه بضرورة أن يرتاح قليلاً .

وجه الأمير محمد أثناء ذهابه إلى غرفته كلمات لطيفة إلى مربيه
الذي كان يراقب ما يجري بحزن كبير قائلاً :

- لا تقلق أيها المربي ، الله أكبر دون شك . ستتعافى ذراعي في
القريب العاجل إن شاء الله . لكنني أريد شيئاً منك . . .

- أمرك يا أميري ،

- كلا ، أنه ليس بأمر بل رجاء : لتملأ في وقت واحد ، بطون
جميع الحيوانات المتوحشة في الغابة . . . إذ لا طاقة لدينا في زمننا
هذا على تحمل أن تتضور الحيوانات جوعاً وليس البشر فحسب .

* * *

هذا الأستاذ مختلف

وصل خبر هروب الأمير محمد من الحصص الدراسية إلى مسامع السلطان مراد . وبينما كان يفكر بما عليه فعله حيال هذا الموضوع جاءته الفرصة المناسبة :

كان الملا يغان ، أحد العلماء ذو الحظوة والمكانة الكبيرة عند السلطان مراد قد ذهب إلى الحج . والتقى هناك بالملا كوراني القادم من منطقة كوران في بلاد الشام لأداء فرض الحج . أعجب بالتزامه الديني الشديد ومستواه المرتفع في العلم . وفكر بضرورة وجود رجل مثله في القصر العثماني . كان في اعتقاده أن الجميع بحاجة إلى علمه بما فيهم السلطان . شارك أفكاره هذه مع الملا كوراني وأقنعه بالذهاب معه إلى أدرنة إلى جوار السلطان . سأل السلطان مراد الملا يغان العائد إلى القصر من الحج قائلاً :

- أخبرني إذن يا مولى يغان ، ما الذي جلبته لنا من الحج ؟

- لقد جلبت عالماً عظيماً في العلوم الدينية يا سلطاني .

- أحقاً ؟ خيرٌ إن شاء الله . . . أين هو هذا العالم ؟

كان الملا كوراني داخل القصر فعلاً ينتظر أن يدعى للمثول أمام السلطان . أعطي الأمر ومثل كوراني أمام السلطان . تأثر السلطان بتصرفاته ووقفته قبل تأثره بعلمه . لأن الملا كوراني صلب قاس مثل الجبال . يشبه بذلك شخصاً مستعداً لتخطي الصعاب مهما كانت . أخبر السلطان الملا كوراني ما يجول في ذهنه بعدما أظهر له الاحترام الواجب قائلاً :

- هل سبق ودرّست تلميذاً من قبل يا حضرة الملا ؟

- بالطبع يا سلطاني . الحمد لله لقد أمضيت عمري في تنشأة التلاميذ .

- هل كان لديك تلميذ لا يأخذ الدروس على محمل الجد ويحاول تفاديك والهروب من الدرس ؟

تقطبت حاجبي الملا كوراني أكثر مما هي عليه . وقال :

- ما مناسبة هذا الحديث يا سيدي ، من تقصدون بذلك ؟

- خيراً إن شاء الله . . .

- عفواً . . .

- حسناً قلت ، بل رائع جداً . .

أصدر السلطان مراد أمره . وتوجه الملا كوراني على الفور إلى مانسيا برفقة اثنين من الحرس . فقد عينه السلطان معلماً خاصاً

للأمير محمد . كان بحوزته عصا من غصن الورد . سمح السلطان له باستخدام هذه العصا على الأمير عند الضرورة .

وأخيراً وصل الملا كوراني إلى مانسيا بعد رحلة طويلة على ظهر الخيل . وتوجه فوراً إلى قصر الأمير . أخبر الحراس بالأمر . عرض عليهم مرسوم السلطان . قابل الملا كوراني الذي أدخل في الحال إلى القصر مربي الأمير . وسيرتاح الليلة ، وفي الغد سيبدأ الدرس الأول .

انتشرت الأخبار في القصر بسرعة . أفادت بوصول مدرس من عاصمة الإمبراطورية العثمانية . رجل مثل الجبل . الأفضل لمن ينظر إلى وجهه ، أن لا يتلع لسانه الصغير من الخوف . إضافة إلى إحضار عصا معه أيضاً . أي لا شفقة أو رحمة لديه . لذلك ينبغي على الأمير محمد أن يفكر ملياً قبل الإقدام على أي شيء . لأن كل فرصة في الهروب قد عفا عليها الزمن .

أبلغ الأمير محمد بطريقة مناسبة عن إرسال السلطان مراد أستاذ جديد . وهو عالم قدير للغاية .

ينبغي على الجميع بما فيهم الأمير الاستفادة من علمه .

عند دخول محمد إلى الغرفة لكي يحضر الدرس الأول فتح عيناه متفاجأً . كان الملا كوراني مهيباً مثل رجل واقف على أقدامه بالرغم

من جلوسه على ركبتيه فوق البساط . قطب حاجبيه . وعيناه شبه مغلقتان تحدقان بالأمير كهيئة النسر . في حين أضافت لحيته المشذبة المطلية باللون الأسود المزيد من الهيبة والوقار عليه .

لم يعرف الأمير للحظة الأولى كيف سيتصرف . تبادر إلى ذهنه الكثير من الأفكار . ورأى أنه لن يستطيع التصرف على هواه مستقبلاً إن نفذ جميع أوامر الأستاذ في الدرس الأول . لذلك جلس باسترخاء على البساط المخصص له . أراد بفعلته هذه أن يقول للأستاذ أنني لن أجلس على ركبتي أمامك وافعل ما شئت .

كان الشخص الذي أمامه أستاذ قضى سنوات طويلة من عمره في هذا المجال . وبالرغم من مظهره القاسي والصلب لكنه يحمل قلباً يفهم سلوك البشر بسهولة كبيرة .

عرّف الأستاذ عن نفسه وكأن شيئاً لم يحدث وقال :

- يا حضرة الأمير ، أنا معلمك الجديد . لقد كلفني جلالة سلطانتنا بهذه المهمة . أمل أن أكون ذا فائدة لك إن شاء الله .

- أهلاً وسهلاً بك يا معلمي ، إنه لشرف لي أن أستفيد من علمك إن شاء الله .

كان الأمير محمد يضحك في نفسه عندما يقول هذه الجملة التي تعجب كل شخص أمامه . من الواضح أن المعلم لا يملك سوى هذا

المظهر القاسي . لن يكون من الصعب جعله لين التعامل . من الناحية الأخرى ، أدرك الملا كوراني أنه يتعامل مع طفل ذكي جداً . أي أن مهمته صعبة . وبدأ الدرس موقناً أنه سيستطيع تخطي هذه الصعاب مع مرور الوقت .

كان الدرس الأول هو درس اللغة العربية . كان الأمير محمد قد سبق وبدأ بتعلم اللغة العربية من قبل معلميه السابقين .

أرغم الملا كوراني الذي لاحظ المستوى الضعيف لدى الأمير محمد في اللغة العربية على كتابة جملة في دفتره وهي : « لقد ضربته بغية تعليمه وتأديبه » .

ما هذه الجملة ؟ ألا يوجد جملة أخرى ؟ من الذي ضرب ؟ هل هو الأمير ؟ من يجرؤ على فعل ذلك ؟ من الواضح أن الأستاذ يريد ترهيب تلميذه .

- سنقوم بدراسة هذه الجملة من حيث القواعد . وسنقوم بإعادة كتابة الجملة في كل مرة ترتكب فيها خطأ ، وتعيد دراستها من البداية .

- حسناً . قال ذلك الأمير وفكر في نفسه قائلاً لتبدأ المغامرة .

كان واثقاً أنه حلل الجملة بشكل صحيح من المحاولة الأولى ولكن لم يكن الأمر كذلك . فقد طلب المعلم منه كتابتها مرة

أخرى . وقال أن الدرس سينتهي بمجرد أن يقوم بتحليلها بالشكل الصحيح .

حاول محمد مرة أخرى ، ولم ينجح .

استمر بالمحاولة ، ولكن دون جدوى .

نظر إلى معلمه ، كان يلعب بالعصا التي بيديه . كانت عصا بكل ما للكلمة من معنى ! وقد صنعت من خشب غليظ لا يمكن كسره بسهولة .

أصر الأمير على تحليلها .

وأخذ يحاول مراراً وتكراراً ، لكنه لم يصل إلى النتيجة المرجوة على الإطلاق . في كل مرة كان المعلم يعثر على أبسط الأخطاء . واصل الأمير ارتكاب نفس الأخطاء بسبب إصراره الذي جعله لا ينصت إلى كلام المعلم .

فكر الأمير في نفسه وقال يكفي هذا . وفهم خطئه عندما استمع بدقة إلى كلام معلمه وعندها استطاع تحليل الجملة بسهولة . قال الملا كوراني :

- أحسنت يا أميري ، لقد قمت بذلك بسهولة عندما ركزت كل انتباهك . ينبغي عليك أن تفكر بالدروس فقط . وأود أن أراك هكذا دائماً .

عند انتهاء الدرس وقف الأمير .

وقبل يد أستاذه بكل احترام . حيث أعجب بكلمات المديح

الموجهة إليه . عندها بدأ يستشعر وجود مشاعر جيدة نحو أستاذه .

ثم نهض الملا كوراني ورافق الأمير إلى الباب .

* * *

ليبقى الأمر بيننا

أدرك الأمير محمد أن الملا كوراني إنسان طيب بالرغم من مظهره القاسي والصارم . فضلاً عن كونه من علماء عصره العظماء . لو لم يكن كذلك ، هل كان والده سيرسله إليه كمدرس ؟ صحيح أنه صارم بعض الشيء ، ولكنه لم يكن بالطفل المؤدب أيضاً !

مع مرور الوقت ، اعتاد المعلم وتلميذه على بعضهم البعض بشكل جيد . كان الأمير محمد يود الاستفادة من علم الملا كوراني . كان يعمل بجهد لتنفيذ جميع رغباته المتعلقة بذلك .

في منتصف إحدى الليالي ، رأى الملا كوراني الضوء مناراً في غرفة الأمير . مما أثار اهتمامه . قرع الباب وانتظر . أصاب القلق الأمير محمد أيضاً . لا بد أن هناك أمراً طارئاً حتى قرع الباب في منتصف الليل . نادى إلى الخارج :

- من الطارق ؟

- أنا يا أميري . .

كان هذا الصوت صوت الملا كوراني . فتح الأمير الباب على الفور . ورحب بالأستاذ ودعاه إلى الداخل .

- تفضل يا أستاذي ، هل أنت بحاجة لأمر ما ؟

- استغفر الله يا ولدي . نظرت ، فرأيت ضوء غرفتك مناراً . كنت أتساءل عما تفعله في هذا الوقت من الليل . سامحني إن أزعجتك .
- عن أي إزعاج تتحدث يا أستاذي ؟ على العكس تماماً ، يسرني أنك تفكر بي ليلاً نهاراً .

لكن اعذرني عن الفوضى الموجودة في الغرفة .

ألقى الملا كوراني نظرة حوله . كانت الغرفة بالفعل تملؤها الفوضى . وقد غطت الأوراق والمخططات والخرائط المرسوم عليها كل ركن من أركان الغرفة . طلب الملا كوراني الإذن لأخذ واحدة منها . وما الحاجة إلى الإذن ، كان باستطاعته أخذ ما يريد . ارتعش الملا كوراني عند رؤيته أول ورقة وقعت يده عليها . في نفس الوقت ، انتابته موجة من الحماس الذاتي . كان هناك على الورقة مخطط لمدينة القسطنطينية . وقد كتب الأمير الشاب في أسفل الورقة : « لا توجد مدينة لا تؤخذ بإذن الله ! »

كانت هذه الورقة وحالة الغرفة تفسر الأمر برمته . كان الأمير محمد يعد نفسه للفتح العظيم . كما أن الملا كوراني يعلم بالفعل قيمة الطفل الذي أمامه . لكنه لم يتوقع هذا الأمر . قال في نفسه ما شاء الله ، بل أربعين ما شاء الله . . .

لمس الأمير من معلمه أمراً هو :

- أرجو أن يبقى ما رأيته بيننا .

- بالطبع يا ولدي ، بالطبع ...

- هل يمكن أن أسألك سؤالاً بمناسبة الحديث عن هذا الموضوع ؟

- تفضل ، أنا أسمعك .

- لقد حوصرت القسطنطينية مرات عديدة منذ عصر الصحابة الكرام ولكن ...

- لكن لم يستطع أحد الاستيلاء على هذه المدينة . وأنت تتسائل عن سبب ذلك .

- الأمر ليس مجرد فضول يا معلمي ، ولكني أبقى مستيقظاً طوال الليل ولا أنام من التفكير بهذا الموضوع .

- أتمنى من كل قلبي أن تنال هذا النصر العظيم يا ولدي . وأنت تعلم بالطبع حديث الرسول صلى الله عليه وسلم عن هذا الموضوع .

- إن هذا الحديث يشغل تفكيري دائماً ...

- رائع ، رائع جداً ... إذن لم يبق سوى شيء واحد :

سأل الأمير بحماس قائلاً :

- ما هو يا سيدي ، ما الذي علي فعله ؟
- أن تكون علماً وعادلاً وقائداً حازماً . وأن تبحث في أسباب
فشل الحصارات السابقة وتتخذ التدابير اللازمة . ومن أجل
ذلك . . .

- نعم ، من أجل ذلك . . .
- أن تمتلك جميع المعارف المادية والروحية .
- تأكد أنني سأبذل قصارى جهدي من أجل تحقيق ذلك .
- أنا واثق من ذلك يا ولدي .

* * *

أخبار... أخبار

كان يوماً من أجمل الأيام التي قضاها الأمير محمد في مانيسيا .
كان يدرس مع معلمه آق شمس الدين في حديقة القصر ، بناء على
طلب من هذا الأخير . وبالطبع ، كان الأمير محمد مسروراً بأن
يكون الدرس في حديقة القصر المزهرة ، إضافة إلى اعتبارها نزهة
أيضاً . بدأ آق شمس الدين الكلام بأخفض نبرة صوت بينما كان
يمشي مع تلميذه بخطوات ثقيلة :

- هل أنت راض عن حياتك في مانيسيا يا أميري ؟
- في الواقع ، كنت أود أن أقول « نعم » حقاً .
- إذن لابد أن هناك شيء ما يحزنك هنا .
- أنا لست حزين يا معلمي ولكن أشعر بالملل في بعض
الأحيان .

- من ماذا ؟

- إنني أعمل بما يقارب ١٤-١٥ ساعة في اليوم . ومعلمي
جزاهم الله كل خير أقدرهم جميعاً ولكن....

- ولكن ماذا . . .
- ما أود قوله يا معلمي هو أن بعض الدروس وبعض المدرسين غير مناسبين لي .
- أوضح لي الأمر أكثر حتى أستطيع مساعدتك .
- كم كان جميلاً لو أن تكون جميع الدروس مثل درسك .
- لكنك ستحرم من بقية الدروس .
- أشعر بالملل حقاً من دروس تاريخ أوروبا والفلسفة اليونانية القديمة تلك .
- ما سبب ذلك الملل ، هل هو الدروس أم الأساتذة ؟
- خاصة أولئك الأساتذة الإيطاليين المتعجرفين .
- ولكنهم بشر أولاً وأخيراً قد يرتكبون أخطاءً .
- يريدون مني أن أعجب بتاريخ أوروبا والفلسفة اليونانية القديمة .
- وهل يعجبونك ؟
- لماذا علي أن أعجب بهم عندما يكون تاريخي ومعتقداتي وثقافتي تفوقهم أضعاف مضاعفة ؟
- وضع آق شمس الدين يده على كتف الأمير الشاب . وقد

تغرغرت عيناه بالدموع . تقدموا بضع خطوات على هذا النحو . ثم
جلسوا على الوسائد الموضوعة في إحدى أركان الحديقة . كان آق
شمس الدين يكاد يحلق من الفرحة والفخر . وبدأ بالكلام مجدداً :
- كيف كنت ستممكن من التوصل إلى هذه النتيجة إن لم يكن
لديك أساتذة إيطاليون ؟

...-

- إذن لقد كانوا ذا فائدة بالنسبة إليك أيضاً .
- إنك محق يا معلمي كالمعتاد . هناك شيء آخر نتفوق فيه
عليهم .
- ما هو ؟

- الطيبة يا معلمي ، الطيبة . . . لديك منها ما يكفي .
ما شاء الله ، إنك ناجح في كسب قلوب الناس بكل سهولة .
- بارك الله فيك يا أميري .

قال آق شمس الدين بعد أن توقف للحظة :

- لدي الآن بعض الأخبار لك .

- تفضل ، أنا أسمعك .

أخبره آق شمس الدين عن إحراز السلطان مراد النصر على
إبراهيم حاكم كارمان في الأناضول في صيف عام ١٤٤٣ .

وأكد له على أهمية هذا النصر بالنسبة إلى الدولة العثمانية .

لم يعر الأمير اهتماماً كبيراً لهذا الخبر . تلقى آق شمس الدين ردة الفعل هذه بشكل طبيعي . ربما كان الأمير يعتقد أن هذا الأمر لا يعنيه لكونه لن يصبح سلطاناً .

مرت بضع دقائق دون أن يتفوه بأي كلمة . لم يتحمل محمد أكثر من ذلك وقال :

- قلت إنك تحمل أخباراً يا معلمي ، أخبرني إياها لو سمحت .

غاص آق شمس الدين في عالمه الخاص مدة قصيرة . كأنه كان يتحدث مع نفسه . مما أثار فضول الأمير وسأل :

- أليس لديك أخبار أخرى يا معلمي ؟

أجاب آق شمس الدين إجابة مختلفة تماماً :

- إننا لله وإننا إليه راجعون .

تجمد محمد في مكانه . كان يدرك معنى تلك الآية ، بل يدرك أنها تقال من أجل التخفيف عن أقارب الشخص المتوفى .

- أرجوك اعذر فضولي يا معلمي ، ولكن من مات ؟

- كل كائن حي يعيش الحياة التي قدرها الله له يا ولدي .

- أعلم ذلك يا سيدي ، أخبرني فقط من الذي توفي .

- ولكن بعض الوفيات تحزن الإنسان أكثر .

اضطرب الأمير وسأل :

- هل توفي والدي ؟

- كلا يا ولدي ليس والدك ولكن

- هل توفيت والدتي إذن ؟

- ليست والدتك أيضاً .

- لا تدعني أجن يا معلمي ، أخبرني من توفي في الحال !

- إنه أخاك علاء الدين . . .

- ماذا ؟

- نعم ، أخاك علاء الدين . . .

ارتبك الأمير :

- كيف ولماذا ؟

- لا يسأل كيف ولماذا حينما يتعلق الأمر بالموت يا ولدي .

الحقيقة الوحيدة هي انتقال أخيك أحمد ومن بعده أخيك علاء الدين

إلى رحمة الله تعالى .

بدأ الأمير محمد بالبكاء . ثم تذكر أن يقول وهو يمسخ دموعه :

- رحمهم الله .

- لم تنتهي ، لم تنتهي أخباري بعد .
- ماذا يوجد أيضاً ؟ خرج صوت الأمير محمد المتحدث بذلك بصعوبة .
- إن السلطان مراد يدعو الوريث الوحيد للعرش إلى أدرنة .
- الوريث الوحيد للعرش ؟
- نعم ، أيها الأمير ؛ أصدر أباك أمراً ينص على « إرسال وريث العرش الوحيد إلى أدرنة على الفور ! » يعني بذلك أنت !
- أدرك الأمير محمد حينها أنه الوريث الوحيد للعرش العثماني . وافق على ذلك ضمناً ، لأن انتقال أخوته إلى رحمة الله مهّد الطريق أمامه لاستلام السلطة . لم يكن يدري حينها إذا كان عليه الشعور بالحزن أو الفرح . ثم استطاع أن يقول بصوت غير واضح :
- إن أوامر سلطاننا مطاعة .

* * *

سأتنازل إن لزم الأمر

في خريف عام ١٤٤٣ ، كانت أدرنة تعيش يوماً بارداً آخر كالمعتاد . اجتمعت الرعية غير عابئة بشدة البرد ، وأجرت تقييماً للوضع . كان المخلصون لعاصمة الدولة العثمانية فرحين بانتصار السلطان مراد على إبراهيم حاكم كرمان من ناحية ، ويشعرون بالأسف لاستيلاء الجيش الصليبي على الأراضي العثمانية الواقعة جنوب الطونة . وبجميع الأحوال نجح السلطان مراد ، في التصدي للجيش الصليبي بصعوبة . إضافة إلى بدء مفاوضات السلام مع المجريين والصرب . فقد كانت كلمة « السلام » كافية لطمأنة الرعية .

وافق الجيش المسيحي على محادثات السلام بعد الحرب التي وقعت في ٢٥ كانون الأول . وبناء عليه ، تم توقيع معاهدة صداقة لمدة مئة عام مع العثمانيين . حيث سيُظهر الجانبان من خلالها احتراماً لوحدة أراضي بعضهما البعض .

جمع السلطان مراد الديوان الهمايوني في قصر أدرنة . وقف الصدر الأعظم جاندارلي خليل باشا مع وزراء القبة (البالغ عددهم

سبعة وزراء) باحترام يستمعون إلى السلطان . كان وقوف شهاب الدين باشا ، وزاغنوس باشا وطورهان باشا بالقرب من بعضهم البعض وتحركاتهم المستمرة كلما واتت الفرصة ملفتة للانتباه .

- أيها الوزراء ، لقد قمنا بفضل الله عز وجل وفضل الإدارة الحكيمة لوزرائي الأفاضل والجهود المتفانية والمخلصة لقادة جيشي بإيقاف الجيش الصليبي رغم صعوبة الأمر وإرغامهم على الصلح . وبالرغم من أن شروط الإتفاقية قد تبدو مخالفة لمصالحنا ولكن هذا الصلح سيمنحنا الراحة قليلاً .

سئل الصدر الأعظم جاندارلي خليل باشا ببطء . كان يقصد بذلك السماح له بالكلام . بدى السلطان وكأنه انزعج منه . لأن جاندارلي سيخالف رأي السلطان مراد مثلما جرت عليه العادة في كل موضوع تقريباً .

على الرغم من ذلك ، أعطى السلطان الصدر الأعظم الإذن بالكلام وقال :

- ماذا يريد جاندارلي باشا القول ؟

- كما تفضل السلطان فإنه من الأفضل القيام بمعاهدة سلام مع المسيحيين عوضاً عن القتال معهم .

- لا تظن أيها الباشا أن اضطرارنا للقيام بمعاهدة السلام على أنها

النهاية ؛ فنحن كما تعلم ، لن نتردد بالقتال عند الضرورة .

- هذا ما أقوله أيضاً يا سلطاني ؛ ولكن الوقت ليس مناسباً لذلك . لو تابعنا القتال - معاذ الله - كان ذلك سيتسبب في خسائر كبيرة في صفوف جنودنا .

سئم السلطان مراد من طريقة كلام جاندارلي . لأنه لم يتحمل اعتراضه المستمر على حملات الجيش ، بحجة حماية الجنود العثمانيين . وقد أراد السلطان التخلص منه بأي شكل من الأشكال في أغلب الأحيان ، ولكنه فشل في ذلك . على ما يبدو ، كان جاندارلي محقاً . لأنه من الأفضل عقد صلح ، حتى وإن كانت شروطه صعبة ، بدلاً من فقدان المزيد من الجنود .

أمسك جاندارلي طرف قفطانه المزين بإحدى يديه . ثم تابع حديثه واضعاً يده الأخرى على صدره وقال :

- أنا واثق تماماً يا سلطاني أن هذه الإتفاقية ستعود بالخير الكثير على جيشنا ودولتنا أيضاً . وقد كان النجاح حليفكم في ذلك . وأنا خادمكم وممتن لكم .

- يسرنا أن يكون خدامنا راضين عن قراراتنا . وخاصةً في مثل هذه الأيام الحزينة .

أدرك جميع الوزراء في الديوان أن السلطان كان يقصد الحزن

العميق الذي انتابه عند سماع خبر وفاة ابنه علاء الدين . وحاول كل واحد منهم مواساة السلطان مراد قدر المستطاع :

- ألهم الله سلطاننا الصبر والسلوان .

- ما باليد حيلة فهذا قضاء الله .

- لقد صدق أجدادنا حين قالوا « لا حزن على ميت » .

- الحمد لله ، أن لدى السلطان ولد آخر .

- نعم ولا سيما مع وصول أخبار سارة عن الأمير محمد . . .

- يقولون إن الأمير محمد يستطيع إدارة الدولة بحكمة رغم صغر

سنه .

قاطع صوت جاندارلي الأجش الكلام مرة أخرى قائلاً :

- هل سيحكم الدولة طفل في ظل وجود حضرة سلطاننا السلطان

مراد في الحكم ؟

غضب السلطان مراد للمرة الأولى . أصلح عمامته ثم خاطب

جاندارلي مشيراً إليه بسبابته وقال :

- أيها الوقح ، هل أنت من يقرر من سيحكم الدولة ؟

تجمد الجميع وكأن رياح باردة عصفت في المكان .

على الرغم من ذلك ، كانت ابتسامة الاستهزاء التي علت وجوه

كل من شهاب الدين باشا ، زاغنوس باشا ، وطورهان باشا ، ملفتة
للانتباه . من الواضح أنهم كانوا فرحين بما جرى لجاندارلي . كما
كانت المرة الأولى التي يرى فيها جاندارلي السلطان غاضباً إلى هذا
الحد . لذلك كان من الأفضل أن يتراجع عن كلامه .

- حاشا لله يا سلطاني ، ما أردت قوله هو أنه طالما أنت بصحة
وسلامة . . .

- اصمت أيها الباشا ، أقول لك اصمت !

صمت جاندارلي .

بدأ السلطان بالتجوال ذهاباً وإياباً وغضبه لم يهدىء بعد .

- إن انقلاب الأمور رأساً على عقب سيكون ذا عواقب سيئة
علينا . ولن أسمح بحدوث ذلك . وليعلم الجميع جيداً أنني لن
أسمح بحدوث ذلك !

بصوت حزين ومحبط هذه المرة تلا السلطان هذه الآية قائلاً :
« إن الله مع الصابرين » . ارتاح قليلاً حينها . أدرك الوزراء أن
السلطان انغلق على نفسه بعد وفاة ابنه . ولكن خروجه هذه المرة
أدهش الجميع . كانوا يعتقدون أنه يتصرف على هذا النحو بسبب
الأوضاع الصعبة التي يمر بها . وقد كانوا على حق . لأنه كان يعيش
أياماً صعبة بالفعل . ويرغب بالانزواء في زاوية ما ويحصل على

قسط من الراحة . علاوة على ذلك ، كانت تراوده فكرة الزهد
بالأمور الدنيوية والانخراط في العبادة فقط . حتى أنه كتب أبياتاً
شعرية عن ذلك الموضوع يقول فيها :

« أن الألوان لكي أضع رغباتي جانباً

وأوي إلى ركن ما لوحدي »

اعتقد السلطان أنه من غير الضروري مواصلة الاجتماع أكثر .
شعر بالملل وضيق النفس وأنه بحاجة إلى تنفس بعض الهواء
الطلق . عندها أشار بيده منهيّاً الاجتماع . أظهر كل وزير على حدى
الاحترام للسلطان . ثم خرجوا من قاعة الاجتماعات . استوقف
السلطان الوزراء للحظة متحدثاً بصوت ضعيف :

- ابق يا شهاب الدين باشا ، وزاغنوس باشا وطورهان باشا معي
هنا . ونتجول قليلاً في الحديقة .

غضب جاندارلي من تصرف السلطان . ولكن لم يستطع فعل
شيء .

كان يعتقد أن على رجال الدولة ، في بعض الأحيان ، تجاوز
بعض الأمور . ثم لوى عنقه مغادراً قاعة الاجتماعات . لم يكن لدى
الوزراء الآخرين مشكلة كهذه . لأنهم يعتقدون أن من واجبهم طاعة
أوامر السلطان دون قيد أو شرط . وهذا ما فعلوه بالضبط .

نزهة في الحديقة

حديقة قصر مزهرة... وهواء نقي... كانت كافية للإشراح صدر الإنسان... ولكنها لم تكن كذلك في الواقع . كان السلطان يحاول جاهداً التخفيف عن نفسه . قد تفاجيء من نفسه كيف تحمل هذا الكم الهائل من المتاعب . نعم ، لقد عقد صلحاً طويلاً الأمد مع المجرين والصرب ولكن ذلك أجبر العثمانيين على فقدان جزء هام من أراضيهم . إضافة إلى أنه لم يستطع تجاوز جميع المخاطر المحدقة به . ولن يمتنع المسيحيون عن الضغط على العثمانيين مرة أخرى كلما سنحت لهم الفرصة بذلك . وكأن جميع تلك الأمور ليست كافية ، حتى قام بدفن اثنين من أبنائه في ريعان شبابهم . كان ذلك الأمر أكثر ما أحزن السلطان . وماذا عن الحشرات التي زرعتها في قلب الأمير محمد ؟ لم يكن لينسى الرسالة التي أرغم الأمير أخاه علاء الدين على كتابتها في آماسيا وهو ما يزال في الرابعة من عمره . ومن الجمل التي يذكرها السلطان العظيم على الدوام كانت :

« هل تفكر بي وأنت تعدو بخيلك في ساحات الحرب ؟ »

ألا ينبغي عليه التفكير بها ؟ وهل كونه سلطاناً ينفي كونه أباً

أيضاً ؟ ألا يريد تقبيل أبنائه واللعب معهم ؟ ولكن لم يحدث ذلك .
كان وضع الدولة لا يسمح بمثل تلك الأمور .

يبدو أن السلطان قد نسي وجود الوزراء الذين يتبعونه .

وانعكس ذلك على وجهه . ثم توقف . ووقف الوزراء معه
أيضاً . تأمل المكان حوله مدة من الزمن . ثم ركز نظره على الرسول
الذي يحمل إليه الأخبار المهمة . كان الرسول ينتظر في مكان
بعيد . أجاب على نظرات السلطان الملحة قائلاً : « ليس لدي خبر
هام أبلغه بعد » . نظر السلطان حينها إلى الوزراء وقال :

- أعلم أنكم أيها السادة مستعدون للتضحية بكل شيء من أجل
دولتنا ومن أجل سلطانكم .

- بالطبع يا سلطاني .

- مستعدون لتحمل جميع العواقب حتى لو على قطع أعناقنا من
أجل دولتنا .

- إن أردت أن نضحى بأنفسنا فسنفعل ذلك ، وإن أردت أن نبقى
على قيد الحياة فسنفعل ذلك !

تأثر السلطان بتلك الكلمات . وقال :

- كلا ، لا أريد موتكم بل أريدكم على قيد الحياة من أجل خدمة
هذا الوطن .

- إن شاء الله يا سلطاني .
- لقد كرسنا حياتنا من أجل الوطن .
- وأرواحنا أيضاً .
- رائع أيها الباشوات ، رائع جداً . الآن لدي ما أقوله لكم .
- استمع الوزراء الثلاثة إلى السلطان وكلهم آذان صاغية .
- تعلمون أن محمد هو الوريث الوحيد للعرش العثماني .
- أجل نعلم ذلك يا سلطاني ، أطال الله عمرك .
- لقد وصلتكم أخبار الأمير محمد التي تصف مدى ذكائه ، ونشاطه وعناده .
- نعم يا سلطاني .
- هل يقتصر الأمر على ذلك فقط ؟ كما أن ركوب الأمير للخيول وتقلده السيف ولغاته المتعددة يشبه القصص الخرافية .
- يستطيع قراءة وكتابة اللغة العربية والفارسية والإيطالية وكأنها لغته الأم .
- إن أميرنا ذكي وكريم في آن واحد .
- حماه الله من العين والحسد .
- آمين أيها السادة . ما أقوله هو أنني أطلب منكم تجهيز الأمير

لاعتلاء العرش في أقرب وقت ممكن .

توقف الباشوات للحظة . أليس الأمير بالفعل يتجهز وباستمرار
لاستلام العرش ؟ لما العجلة إذن ؟

- ليس من واجبنا التشكيك في إرادة سلطاننا ، ولكن . . .

كان السلطان هادئاً بالفعل . إذ لم يكن أمامه جاندارلي ، إنما
أكثر رجاله ثقة .

- لا تتردوا ، أخبروني عما يدور في خاطركم .

- لكن يا سلطاني ، لم نفهم ما قصدك « بأقرب وقت ممكن » .

- ما نقصده أيها السلطان أنك ما زلت على قيد الحياة . . .

لم يرغب السلطان التحدث بصراحة عن هذا الموضوع . كان من
المفيد في الوقت الحالي إخفاء نيته الأصلية . لا سيما عند وجود
رجل مثل جاندارلي يحاول تخريب جميع أعماله

- ما قصدته أيها الباشوات ، سيأتي اليوم الذي سيصبح فيه محمد
سلطاناً وحينها ينبغي ألا يعيبه شيء . عليه أن ينجح بتحقيق ما حلمنا
بتحقيقه وعجزنا عن ذلك .

اطمئن الباشوات لكلام السلطان . ولكن تصرفاته كانت تشير
استغرابهم . لأن حديثه المتكرر عن انفراده لم يكن يبشر بالخير .
وكذلك رغبته في وهب نفسه للدين تماماً . لا يمكن للسلطين ترك

أعمالهم الدنيوية كما يحلو لهم . حسناً ، ينبغي عليهم تنفيذ الأوامر الدينية ولكن ذلك لا يعني أن عليهم التخلي عن العالم . وقد سبق أن قيل : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » . كيف سيتمكن السلطان الذي تخلص عن الدنيا من إدارة شؤون الدولة ؟ كلا ، لن تجري الأمور على هذا النحو . ولحسن الحظ ، لم يسحب السلطان مراد يده تماماً من الشؤون الدنيوية في الوقت الحالي .

ألم يكن السلطان يوبخ جاندارلي قبل قليل على هذا الموضوع ؟
تابع السلطان الكلام قائلاً :

- ما رأيكم إن أحضرنا الأمير محمد من مانسيا إلى أدرنة وسلمناه إحدى الوظائف الإدارية إلى جانبنا ؟

اطمأنت قلوب الباشوات كثيراً وقالوا :

- أنت أعلم بهذا الموضوع يا سلطاني . . .

- إن ثقتنا بالسلطان لا نهاية لها ، ومهما فعل فهو الأفضل .

- بارك الله فيكم أيها الباشوات . هناك أمر آخر أفكر فيه .

أنصت الباشوات إليه بانتباه كبير .

- بشأن موضوع جاندارلي

سئم الباشوات . وانتظروا مجدداً لا حيلة لهم .

- لا يوجد تقصير في شؤون الدولة . أعلم أن جاندارلي لا يقصر في خدمة الدولة العثمانية .

- ومع ذلك فإنه من الصعب تقبل معارضته لك في جميع الأمور .

- لا بأس يمكن اعتبار ذلك الأمر مجرد وجهة نظر مختلفة إلى الأحداث . رغم أنه لا يرغب حتى بنزيف أنف جندي في الجيش العثماني .

- سامحني يا سلطاني ، ولكن عند الضرورة سينزف أنف الجندي ، وسيضحى بروحه من أجل هذا الوطن .

- أنا اتفق معكم ، لذلك أريدكم أن تبتعدوا عنه . لأنه لا يطاوعني قلبي على التخلي عن رجل ذو خبرة كبيرة في شؤون الدولة بشخطة قلم .

- أنت أعلم بهذا الموضوع يا سلطاني .

- سأوكل إلى جاندارلي مسؤولية الأمير محمد . يكفي أن يحسن تنشأته .

لم يكن الباشوات راضين كثيراً عن هذا القرار الأخير . ومع ذلك قالوا عبارات داعمة للسلطان مراد . في غضون ذلك شوهدت تحركات رئيس سعاة البريد . التفت إليه السلطان بحماس .

اقترب رئيس السعاة من السلطان مظهراً له الاحترام اللازم ثم قال :

- جاء ما تنتظرونه يا سلطاني .

لم يفهم الباشوات شيئاً مما يجري . إذن هناك أشخاص ينتظرهم السلطان . قال السلطان بحماس :

- ليأتوا إلى هنا في الحال .

بعد ذلك بقليل ، دخل آق شمس الدين أولاً يتبعه الأمير محمد لمقابلة الباشوات .

حبس جميع الموجودون أنفاسهم ، كان يشاهدون لقاء السلطان بالأمير ، أو بالأحرى لقاء أب بابنه . كم كبر الأمير وأصبح ممشوق القامة . أصبح من الصعب وصفه بالطفل . كانت قامته ، ومظهره ، ووقفته ونظراته تلك ، حتى مصافحته للسلطان وإن كان هو والده وتقبيله ليده ووضعها على رأسه بشوق كبير ، كانت جميعها عظيمة .

وماذا عن السلطان ؟ بدا السلطان العظيم وكأنه سيبيكي من الفرح . كان تقبيله لولده العزيز وضمه إلى صدره مشهداً مليئاً بالأحاسيس . لم يعد هناك أدنى شك أن هذا الطفل سيصبح ، أو هذا الشاب ، بل هذا الأمير ؛ قائم مقام ، ثم والياً وأخيراً سلطاناً

أطلق السلطان مراد الأوامر على التوالي قائلاً :

- إن رغبات الأمير هي رغباتي ؛ وأوامره هي أوامري . كلامه غير قابل للنقاش !

يا لها من صلاحية هائلة ! ستنفذ أوامر الأمير جميعها رغم وجود السلطان . وهناك من فكر بمدى الحاجة لوجود السلطان مراد . ولكن جاء الأمر من السلطة العليا . مما نبه الوزراء إلى عدم التقصير في إظهار الاحترام لوريث العرش الوحيد رغم حسدهم وغيظهم منه .

* * *

الأمير محمد يصبح سلطاناً

- انظر أيها الباشا ، رغم اختلافنا في وجهات النظر أحياناً ، إلا أنني أثق دوماً بقدرتك في إدارة شؤون الدولة .

تنفس جاندارلي خليل الصعداء عندما سمع تلك الكلمات من السلطان مراد الذي استدعاه على عجل . ظن أن السلطان قد استوعب خطئه أخيراً ، ناهياً بذلك الجدل الذي استمر طويلاً . انبعثت في وجهه موجة من الغطرسة لم يستطع إخفائها .

- أطال الله عمرك يا سلطاني ؛ يشرفني أيضاً أن أخدم دولتنا كما فعل أسلافي من عائلة جاندارلي .

- أنا متأكد من ذلك أيها الباشا . ولأني واثق من ذلك سأطلب منك شيئاً .

ازداد التكبر والغرور لدى جاندارلي . لم يكن السلطان العظيم يأمر وزيره بما أراد بل كان يترجاه .

أجابه بأسلوب متصنع قائلاً :

- إن طلبات سلطاننا هي أوامر بالنسبة إلينا نحن العبيد .

- تعلم أنني قمت بإحضار الأمير محمد إلى أدرنة .
- نعم يا سلطاني ، أعلم بذلك .
- إن أمنيّتي هي ألا ينقصه شيء عند استلامه للعرش .
- نحن العبيد نعتقد ذلك أيضاً .
- ما أردت قوله هو أنني أود أن يتعلم قدر المستطاع من رجل دولة عظيم مثلك .
- يشرفنا أن نعلمه شيئاً ما .
- سأعهد إليك مسؤولية الأمير . وليعثر له على مكان مناسب في الإدارة . وعلمه كل شيء تعرفه . . .
- قال السلطان مراد هذه الجملة الأخيرة متعمداً ذلك . فقد أراد من جاندارلي تعليم الأمير حياكة المؤامرات بمختلف أشكالها . ليتعلم ذلك حتى لا يصاب بالارتباك عند مصادفته مثل تلك المؤامرات .
- قال جاندارلي الذي إنتابته مشاعر مختلفة :
- سمعاً وطاعة .
- منذ عدة أيام كان يتعرض لغضب السلطان . أما الآن يكلف بمهمة عظيمة ، ومن قبل السلطان نفسه أيضاً . وهي مهمة تأهيل وريث العرش . . . استكبر . كان واثقاً تماماً من قدرته على تنشأته

كيفما يريد . ربما سيجعل الأمير يعتاد على التعامل بحذر أكبر مع شؤون الدولة . وكما قال السلف : « الشجرة تنحني وهي غضة فقط » ، لذلك لن يضيع هذه الفرصة العظيمة . كان واثقاً تماماً أنه سيتمكن من تكييف الأمير كيفما يشاء .

كان الأمير محمد ممتناً للغاية بهذه المهمة التي كلف بها . وأكثر أمر أحبه كان وجوده بالقرب من والديه . لكن لم تجري الأمور كما كان يعتقد . انتقل والده إلى الأناضول للتعامل مع المشاكل التي تسبب بها إبراهيم كرمان أوغلو .

وقد استطاع السلطان التصدي لإبراهيم بك بعقد صلح معه بالقرب من أنقرة . وذلك في شهر تموز من عام ١٤٤٤ . كما وقع اتفاق بين بني كرمان والسلطان مراد . وبناء عليه تم تسليم منطقة غولير إلى الكرمانيين بينما أعطى إبراهيم بك السلطان مراد وثيقة اليمين تتعلق بالحفاظ على السلام بينهما .

كان السلطان قد أبرم في السابق معاهدة سلام مع المجريين والصرب . والآن يفعل الشيء نفسه مع الكرمانيين . كان يعتقد أنه ذلك سيحمي الدولة من الأخطار المحدقة بها من الشرق والغرب .

* * *

لم يمض شهر واحد بعد على معاهدة السلام المبرمة مع الكرمانيين .

استدعى السلطان مراد مقدمي الدولة إلى مزرعة العائلة الموجودة
في كاراجابي لاستشارتهم بأمر ما . حضر جاندارلي ، والوزراء ،
والقادة العسكريين ، وعلماء الدين ورؤساء الخدم . كان الأمير
محمد يقف بجانب أبيه ، وإلى جانبه أيضاً آق شمس الدين ، والملا
خسرو ، والملا يغان . . .

مما لا شك فيه أن شيئاً مهماً على وشك الحدوث . لم يسبق أن
عقد اجتماع كهذا ، وفي مكان كهذا . ثم أولى أولئك الذين يقيمون
الوضع فيما بينهم انتباههم إلى كلام السلطان :

- يا وزراء دولتي الأعزاء ،

والقادة الأبطال ،

والعلماء الأجلاء ،

ومعلمي الأمير محمد القديرين ،

- لقد دعوتكم إلى هنا على غير العادة ، لأنني . . .

سيعلم الآن هؤلاء الذين يستمعون إلى السلطان الأمر الذي كان
يشير فضولهم منذ أيام .

- . . . لأنني اتخذت قراراً مهماً للغاية بالنسبة لدولتنا .

ما هو هذا القرار ؟ لماذا يطيل السلطان كلامه ؟

- ستعلمون قريباً بالقرار الذي اتخذته . لكن أولاً لدي بعض الأسئلة لأطرحها عليكم .

توجهت العيون الحائرة للمتواجدين في المزرعة نحو السلطان .
- ما معرفتكم بالسلطان محمد ؟

- جيدة .

- هل هناك من رأى وسمع عن تراخيه في الأمور الدينية ؟
- كلا .

- هل هناك من لم يسمع عن شجاعته وجرأته ؟
- كلا .

- هل بإمكانكم اعتباره « عالماً » ؟
- نعم .

- هل تشهدون على انفتاح بصيرته ؟
- بالطبع نشهد .

- هل ترغبون أن يكون سلطانكم على هذا النحو ؟

....

- أنا أسألكم ، هل ترغبون أن يكون سلطانكم ؟

لم يصدر أحد أي صوت . ما عدا جاندارلي . . . نعم ، فقط
جاندارلي تجرأ على الكلام قائلاً :

- أطل الله عمرك ، نحن مستعدون ليكون أميرنا سلطاناً علينا من
بعدكم .

قال سلطان مراد الجملة الختامية :

- ليس من بعدي يا جاندارلي ، بل الآن وأنا على قيد الحياة !
ارتفعت الجلبة داخل المزرعة . إذ لم يحدث أمر مشابه لهذا في
التاريخ العثماني . إنها المرة الأولى والأخيرة على الأرجح .
كان الجميع في حيرة ولكن حيرة الأمير كانت تفوقهم بكثير .
كان الجميع مندهشاً ولكن دهشة الأمير كانت تفوقهم بكثير .
كان آق شمس الدين هو الأكثر هدوءاً بينهم . بدا وكأنه يعلم أن
الأمر ستجري على هذا النحو .

شرح السلطان مبرر قراره هذا قائلاً :

- كان تصديتكم على أسألتني قبل قليل دليلاً على أهلية الأمير
محمد لإدارة الدولة . كما أنه لن يدير الأمور وحده . سيكون رجال
الدولة ذوي الخبرة العالية وعلى رأسهم وزيرني جاندارلي عوناً دائماً
للأمير . أما بالنسبة لي ، فإنني سأتخلى عن الأمور الدنيوية . وأبقى
في بورصة . أرغب بالاشتغال بالعبادة فحسب .

استبدل السلطان مراد مكانه مع الأمير محمد بينما كانت نظراتهم المليئة بالدهشة والحيرة تلاحقهم . كان أول عمل قام به الأمير محاولاً تخفيف الدهشة التي أصابته هو تقبيل يد والده .
مما أجبر الحاضرين في الاجتماع على المباركة له .
ومنهم فكر في نفسه داعياً أن تجري الأمور على ما يرام
بإذن الله .

بقى السلطان مراد في بورصة . وتحرك الجيش الذي خرج ضد إبراهيم بك كرمان أوغلو ولكن عاد بسبب عقد صلح معه بدلاً من الحرب نحو أدرنة .

وكان على رأس الجيش السلطان محمد .

* * *

تدريب السلطنة

كانت الأيام الأولى من حكم السلطان محمد صاخبة بعض الشيء . كان كل وزير يعبر عن رأيه . حيث تحدث جاندارلي عن ضرورة التعايش مع الدول المجاورة من أجل ضمان سلامة الدولة العثمانية . وكان لا يكف عن التحدث حول التكلفة التي ستقع على عاتقهم إن أشعلوا حرباً معهم . ويعدد الأخطار التي قد تنشأ لمجرد الاستعداد لخوض حرب مع الجانب المسيحي .

كانت هناك مجموعة مكونة من شهاب الدين باشا ، وزاغانوس باشا ، وطورهان باشا وآغاوات الإنكشارية مثل خضر بك ، يعتقدون عكس ما يعتقد جانددارلي . بالنسبة إليهم فإن السلطان العثماني مكلف بنشر الدين الإسلامي في العالم . لذلك لا يليق به الرقود في مدجنته مثل الدجاج . ليس السلطان من ينفذ قرارات الآخرين بل من يجعل الآخرين ينفذون قراراته . ولهذا السبب ، ينبغي أن يكون الجيش على أهبة الاستعداد لخوض الحرب .

كان معلمه آق شمس الدين منهمكاً في بناء شعبية السلطان الشاب . كان مؤيداً للحرب عندما تستدعي الضرورة ذلك ، ولكن

ينبغي على السلطان أولاً اكتساب القلوب . قلوب وزرائه ، وقادته
العسكريين ، ومعلميه وبالأخص قلوب جنوده . . .

كان السلطان محمد يستمع إلى جميع الاقتراحات دون أن يقدم
على أي خطوة جديّة في الوقت الراهن . كان قلبه يميل إلى
الحرب . ولم يكن بوسعهِ إطفاء النار المندلعة داخله إلا بتحقيقه
انتصاراً مهماً . كان يدرك تماماً ما هو هذا الانتصار العظيم ولكنه لم
يفصح صراحة . والأمر الذي لم يكن يعلمه هو متى وكيف سيتحقق
ذلك . ولهذا رأى أن الانتظار هو الأنسب حالياً .

بدأ تدريجياً باستيعاب مدى صعوبة مهام السلطنة . ومن الناحية
الأخرى ، كان لديه إيمان تام بأن أية صعوبة لن تشنيه عن تحقيق
هدفه . وإنه بحاجة إلى بعض الوقت فحسب . ولهذا ينبغي عليه خلال
هذه الفترة التعرف بشكل جيد على الناس ، ولا سيما وزرائه . سيكون
التعليم الذي تلقاه من أستاذه آق شمس الدين مفيداً جداً له . سيقس
مواقف الناس وحركاتهم وقيمها ، ثم سيضع خطة لنفسه تلائم ذلك .
في الأيام الأولى من سلطنة السلطان محمد . أرسلت هُما خاتون
رسالة طلبت فيها مقابلة السلطان . ماذا يعني ذلك ؟ هل ينبغي على
الأم أن ترسل رسالة تطلب فيها مقابلة ابنها وإن كان سلطاناً
ما الفرق ؟ وما الذي يعنيه المجيء إليه والمثول أمامه ؟ ماذا لو ذهب
ابنها إليها ، وقبل يدها ووضع رأسه على ركبته ، ثم تأمل وجه أمه

السماوي ؟ ماذا لو داعبت والدته شعر ابنها ، ثم استنشقت رائحة صغيرها الزكية ؟ ولكن لم يكن الأمر كذلك في الواقع . إذ لم يكن بوسعها قرع الباب والخروج إلى حضرة السلطان وإن كانت والدته . يوجد قواعد محددة في القصر ، كانت مجبرة على الالتزام بها .

دخلت هُما خاتون بكل احترام إلى الداخل ، ضمت يديها على بعد أمتار قليلة من ولدها ، ووقفت منتظرةً . في تلك اللحظة ، هبت العواصف في قلب السلطان الشاب . نهض من مكانه وركض نحو والدته . قبل يديها أولاً ، ثم عانقها بشوق . ما تزال الرسالة التي دفع ولدها أخاه الكبير إلى كتابتها وإرسالها في صغره ، شعلة من نار تحرق قلب هُما خاتون .

شعلة لم تنطفئ رغم السنين التي أمضتها مع ابنها . ولكن كل شيء مختلف الآن . فقد أصبح ولدها سلطاناً . تذكرت التهويدات التي غنتها لأجله والأدعية التي دعتها له . وها هو ولدها الذي هو قطعة من روحها يحتضنها مندفعاً بقوة داخلها . تبكي من جهة وتحمد الله وتشكره من ناحية أخرى . في حين لم يستطع السلطان محمد السيطرة على دموعه أكثر من ذلك وإنهار هو أيضاً . كان على دراية أن من سيسمع بهذا الأمر سيصفونه بـ « فتى أمه المدلل » . ليقولوا ما يشاؤوا . نعم كان فتى أمه ، وهل هناك أكثر من ذلك ؟

* * *

المسيحيون يحتفلون

لقي اعتلاء الأمير محمد العرش بقرار من والده في سن صغير صدى واسع في العالم المسيحي . لأنهم للمرة الأولى يشهدون حدثاً كهذا . وتركت إدارة الدولة العثمانية العظيمة إلى طفل . لم يكن هذا شيئاً قابلاً للحدوث ، ولكنه حدث بالفعل .

ينبغي التحرك على الفور والاستفادة من هذا الوضع . أولاً ، ألغى ملك المجر معاهدة السلام التي وقعها مع السلطان مراد الثاني . وفي نيته تنظيم حملة صليبية جديدة ضد الإمبراطورية العثمانية .

عندما بلغت نية المسيحيين هذه إلى الأراضي العثمانية ، بدأ بعض أهالي أدرنة بمغادرة المدينة . اندلعت أزمة في القصر . كان شهاب الدين باشا وزاغنوس باشا يؤيدان فكرة إيقاف المسيحيين عند حدهم على الفور . لم يبلغ السلطان محمد أحداً عن تأييده وجهة النظر هذه . كان جاندارلي خليل باشا ضد الفكرة هذه كما هو الحال دائماً . قال موجهاً كلامه للسلطان الشاب :

- إن كان ما سمعته صحيح ، فإنك تفكر بإعلان الحرب على الصليبيين .

حتى أنه لم يجرأ على قول « يا سلطانى » بأى شكل من الأشكال .

من أين جاء هذا الكلام ؟ كيف توصل جاندارلى إلى هذه النتيجة إذا كان السلطان محمد لم يخبر أحداً بأى شيء ؟

لم يستغرق الأمر طويلاً حتى أدرك السلطان الشاب أن رجل دولة داهية مثل جاندارلى سيكون لديه أتباع يراقبون كل شيء . ولم يعد هناك من داع لإخفاء الأمر وقال :

- نعم ، هجوم مباغت ؛ علينا أن نهاجمهم أولاً .

- إننى معجب بشجاعتك .

- شكراً لك يا معالى الوزير .

- إن أردت ، يمكننى الإطلاع على وضع الجيش . ثم أرسل إليك خبراً . . . بعد القيام بالاستعدادات اللازمة .

ماذا حدث لجاندارلى ؟ لماذا يتصرف بحيادية هكذا ؟ أم إنه سيدعم السلطان ؟ هناك طريقة واحدة لمعرفة ذلك . الموافقة على رغبته . . . ومن ثم الانتظار ورؤية ما سيحصل . . .

- جيد جداً ؛ لتجربى الاستعدادات اللازمة . ولكن . . .

- ولكن ماذا ؟

- ولكن ينبغي عدم إضاعة الوقت . علينا إنزال الضربة الأولى بالعدو .

- لا تقلق ، ثق بي فقط .

كان جاندارلي يضحك تحت شاربته مستهزئاً أثناء خروجه من عند السلطان . لقد كان السلطان « طفلاً » بالفعل ، وليس أي طفل بل « فتى أمه » .

* * *

لن يكسب هذا الطفل هذه الحرب

أول عمل قام به جاندارلي هو إرسال رسالة مفصلة إلى السلطان مراد في بورصة . عرض الرسل الفرسان الرسالة على السلطان . وقد جاء فيها :

« إلى السلطان مراد خان المالك الحقيقي للعرش العثماني ،

حاولت جاهداً حماية ورعاية الأمير محمد منذ صغره وتنشئته ليكون رجل دولة بارع بناء على رغبتكم . ولم نشكك في قراركم عند تنازلكم عن العرش لابنكم الصغير . كما أنكم طلبتم تأييدنا لذلك . والآن حان وقت مواصلة دعمنا للسلطان الشاب ، وكذلك مواصلة دعمنا لحضرتكم ولدولتنا . لقد بات الصليبيون على مشارف دولتنا ، وهم مستعدون لانتهاز الفرصة للهجوم علينا . إن سلطاننا منحاز إلى مهاجمتهم على الفور . غير أن الحال ليس كذلك على الإطلاق . إن جيشنا لا يرغب في دخول حرب جديدة ؛ وشعبنا يفر من الحرب وكأنها (بعبع) . حتى أن بعض العائلات بدأت بمغادرة أدرنة فعلياً . أخشى أن يكلفنا تسرع السلطان ثمناً باهظاً . لن تتحمل دولتنا خسارة أرض جديدة منها .

وأرواح شعبنا أثمن من أي شيء آخر .

الوقت ليس مناسباً الآن للجلوس في زاوية ما .

إن كنتم تستمعون إلى خادمك ، فإنني أرى أن هناك حاجة كبيرة لإعتلائكم العرش من جديد لأجل مصلحة الدولة . لا وقت لدينا لننضيه . فلتأتوا على الفور ، لأن هذا الطفل لن يكسب هذه الحرب .

أود أن أبلغكم تحياتي واحترامي الدائم .

خادمكم ووزيركم الأعظم جاندارلي خليل » .

وقع السلطان مراد في حيرة عند قراءته للرسالة . نعم إن جاندارلي على حق . مهما حسنت تربية الأمير محمد ، فإنه في النهاية مجرد طفل . بدا مستحيلاً انتصاره على الجيش الصليبي . وإن أدرك وجود مجموعة من الذئاب حوله ولكن ليس لديه الخبرة الكافية للسيطرة عليهم . ومن ناحية أخرى ، فقد أعجب بشجاعة ابنه . في الواقع ، هو نفسه لا يملك مثل هذه الشجاعة . ومع ذلك إن السلطان محمد بحاجة إلى النضج أكثر .

اتخذ السلطان مراد قراره ، وتوجه نحو أدرنة .

* * *

أثار تحرك السلطان مراد نحو أدرنة قلق السلطان الشاب . ألم

يتنازل والده عن العرش لابنه ؟ إذن لماذا هذا القدوم ؟ كيف سيكون وضعه إن انتزعت السلطنة من يده ؟ من قد يسمع كلامه ؟ استدعى جاندارلي إلى عنده وجميع هذه الأفكار تجول في خاطره .

- ألم ينتهي إطلاعك على وضع الجيش أيها الباشا ؟

- سينتهي قريباً .

كان جاندارلي يكذب . استدل السلطان على ذلك من حديثه وعينه شبه مغلفتين . ولكنه لم يواجهه بالأمر . من غير اللائق اتهام وزير عظيم في الدولة مثله بالكذب . أراد أن يصدق أنه يتصرف هكذا من أجل الدولة . ولكنه علم أن جاندارلي قد بعث برسالة إلى السلطان مراد . إذن أصبح لديه الآن أتباع يراقبون ما يجري من حوله . على الرغم من ذلك ، تحدث باتزان قائلاً :

- أنا أثق بخبرتك أيها الباشا . سنحل هذه المشكلة معاً عند انتهاء أبحاثكم . عسى الله أن يخلصنا من هؤلاء الوقحين الراغبين في إقحام والدي في هذا الأمر !

تصرف جاندارلي وكأنه لم يسمع هذه الجملة الأخيرة من السلطان محمد .

سرعان ما جاء خبر اقتراب السلطان مراد من أدرنة . ازداد اضطراب السلطان الشاب . ماذا يمكن أن تكون غاية والده ؟ إذا كان

سيصبح سلطاناً مرة أخرى فلماذا تنازل عن العرش لابنه ؟ ألم تلغى سلطة السلطان المخلوع عن عرشه ؟

أراد السلطان محمد إلحاق الهزيمة بالجيش الصليبي بنفسه الذي أصبح على مشارف فارنا . حينئذ لن يكون انتصاره على أعدائه فقط بل على من يعتبرونه « فتى أمه » . علاوة على ذلك ، سيلقن جاندارلي خليل باشا الذي يعتبر السلطان طفلاً درساً بليغاً .

وأخيراً جاء السلطان مراد إلى أدرنة . كانت زيارة ابنه أول عمل قام به . استقبل السلطان الشاب والده بالريبة . ومع ذلك ، أظهر له الاحترام اللازم .

بعد محادثة قصيرة جرت بينهما ، دخل السلطان مراد في صلب الموضوع قائلاً :

- أرى أن أياماً عصيبة تنتظر سلطاننا .
- سنتخطى هذه الأيام الصعبة ، بإذن الله .
- بإذن الله وب... .
- وبعونك ، بالطبع... .
- سنتخطاها هذه الأيام معاً .
- إن شاء الله... .
- استمر في اكتساب مزيد من الخبرة في منصب السلطنة... .

ارتاح السلطان محمد . إذن لم يكن لدى والده أي نية مثل استلام الحكم مجدداً . لكن لا بد أن هناك معنى خفي وراء قوله « مزيد من الخبرة » . أم فأن السلطان مراد سيأتي فيما بعد وسيعتلي العرش ؟ قال بينما تتتابه مشاعر مختلفة :

- أعتقد أنني اكتسبت الخبرة الكافية بفضلك .

قال السلطان مراد :

- لن أتدخل في شؤون سلطنتك . ولكن الهزيمة التي ستلقاها في هذه الحرب ستعود بالضرر على دولتنا أولاً ، ثم علينا نحن الاثنين معاً . ولهذا السبب ، إن أردت سأتولى قيادة الجيوش هذه المرة ، وأتصدى للصليبيين .

رغم ارتياح السلطان محمد قليلاً ، ولكن حزنه كان كبيراً . بدا السلطان مراد وكأنه يرغب بترك قرار قيادة والده للجيش لابنه دون أن يجرح مشاعره . في الواقع لقد اتخذ قراره بالفعل . مما يعني أنه ولده لا يثق به بما فيه الكفاية ، معتقداً أنه عين طفلاً مكانه . كما يعني أيضاً أن تأثير جاندارلي خليل باشا على السلطان مراد أقوى من تأثيره . قال في نفسه - وإن يكن - لا بد من وجود حكمة وراء ذلك . فقد تعلم التفكير على هذا النحو من معلمه آق شمس الدين . لو كان معلمه بجانبه الآن ، لأوصاه بالصبر ، وأخبره بضرورة بذل مزيد من الجهد .

قام السلطان الشاب بقلب الوضع لصالحه :
- كنت سأطلب منك القيام بذلك أيضاً . لكنني ترددت في أن أمر
والدي .

قدر السلطان مراد مناورة ولده تلك وقال :
- لا تردد يا بني ، لا تردد . تذكر أن السلاطين لديهم
الصلاحيّة الكاملة لإصدار الأوامر للجميع ؛ حتى لأبائهم . . .

* * *

في العاشر من شهر تشرين الثاني عام ١٤٤٤ ألحق السلطان مراد
الهزيمة بالجيش الصليبي في فارنا . لم يتمكن السلطان مراد الذي
تجول في ساحة المعركة مصطحباً وزرائه من الشعور بالحزن على
المشهد الذي رآه عقب النصر . فقد سقط آلاف الجنود الصليبيين
على التراب في ربيع عمرهم . كان السلطان يتحدث مع هذه الجثث
الهامدة ويقول :

« كم كان جميلاً اعتكافي في زاويتي الخاصة في بورصة ،
وتخلّيت عن نعيم الدنيا . ثم قمتم باستدعائي . كما أجبرتموني
على المجيء . ما الحاجة كانت لمثل هذه الحرب ؟ ماذا نلتم من
اعتباركم السلطان طفلاً والهجوم عليه ؟ الموت والدموع فقط . هل
كان الأمر يستحق كل هذا العناء ؟ أخبروني ، هل كان يستحق ؟ »

ثم سأل السلطان - الخارج من عالمه الخاص - الباشوات قائلاً :
- ما رأيكم بوجود عدد قليل من المسنين مقارنةً بعدد جثث
الشباب ؟

كان هذا السؤال فرصة لا تعوض لجاندارلي خليل باشا .
وأجاب على الفور :

- لو كان هناك شخص مسن بينهم يا سلطاني ، هل ستكون نهايته
على هذا النحو ؟ إن المسن إنسان قد عايش الكثير من الأمور في
حياته . ولهذا امتلك مقياس العقل . وهذا المقياس يجعل الإنسان
غير مستعد لنهاية تشبه أولئك القتلى الشباب .

كان السلطان مراد خبيراً بما فيه الكفاية ليدرك ما المقصود بكلام
جاندارلي مع موافقته عليه . ولكنه صمت لكي لا يتحداه في جدال
جديد .

كان النصر الذي أحرزه في فارنا أمراً عظيماً بالنسبة إلى الدولة
العثمانية . ولكن الأمور في قصر أدرنة لم تكن جميلة ووردية . لم
يكن إقحام السلطان في هذه الحرب رغم إرادته . لأن النجاح الذي
تحقق بأكلمه هو نجاح السلطان مراد . وبذلك أصبح حال السلطان
الشاب موضع نقاش .

لم يعد السلطان مراد إلى بورصة مباشرة عقب النصر الذي

حققه . كانت غايته قضاء المزيد من الوقت مع ابنه . سينقل إليه تجاربه . وفي إحدى محادثاته مع ابنه قال له :

« يا بني !

هناك ثلاثة أنواع من الناس في العالم :

الأول ، هم أولئك الأذكياء والعقلاء ، بإمكانهم التنبأ بالمستقبل قليلاً ، وليس لديهم أي موقف سلبي .

الثاني ، هم أولئك الذين لا يعلمون إن كان الطريق الذي يسلكون صحيحاً أم لا . يستمعون إلى النصائح المقدمة إليهم ويتقبلونها . في معظم الأحيان يتصرفون بناء على الاقتراحات التي يتلقونها ممن حولهم .

الثالث ، هم أولئك الذين لا يعلمون شيئاً عن أنفسهم ولا يهتمون بالنصائح المقدمة لهم . ويتصرفون تبعاً لرغباتهم الخاصة فقط . إن هؤلاء الأشخاص الذين يظنون أنهم يعرفون كل شيء هم أخطر نوع .

يا بني !

سأكون مسروراً للغاية إن كبرت وأصبحت مثل أولئك الأشخاص في المجموعة الأولى بإذن الله . أما إن كنت أقرب إلى المجموعة الثانية أكثر ، فأتمنى أن تنتبه إلى النصائح الموجهة إليك . لكن احذر

أن تكون مثل المجموعة الثالثة من الناس . لأن الله وعباده يبغضون هؤلاء الناس .

يا بني !

إن العدالة هي الفضيلة الأعظم .

إن حكمة العقل تتفوق دائماً على قوة السيف .

كما أن الأحكام أشبه برجل يحمل ميزاناً في يده . لذلك أريدك أن تحافظ على هذا الميزان جيداً . كان الله في عونك » .

* * *

رحل السلطان مراد ، هذه المرة ، إلى مانسيا ، لاعتقاده أنه مكث بجانب ابنه بما فيه الكفاية . حيث سيعمل هناك كأmir أمراء ، لأن قوانين الدولة لن تسمح بوجود فراغ في تلك المنطقة .

مضى عامان على تلك الأحداث . في غضون ذلك ، عزز السلطان الشاب موقعه أكثر على كرسي الحكم . بدأ بالتعرف على محيطه بشكل أفضل .

كان بعض الوزراء وعلى رأسهم جاندارلي خليل باشا قلقين مع ازدياد إصرار السلطان محمد . كان أفضل ما يمكن فعله من وجهة نظر جاندارلي هو إسقاط السلطان الشاب عن العرش ، وتسليم الحكم إلى مالكة الفعلي وهو السلطان مراد . وبجميع الأحوال كان

السلطان مراد ، في السنوات الأخيرة ، منحازاً إلى إقامة الصداقات مع الجميع حتى الأعداء في كثير من الأحيان . لم تَجَرَّ حالة التهاون واللين هذه الدولة إلى مغامرة جديدة .

كان مرجل السحر يغلي بسرعة . (أي كانت تحضر المكائد والمؤامرات بسرعة) وبالرغم من وجود السلطان في القصر ، كان هناك الكثير من البارعين في قلب الأمور بالسر . وأولهم جاندارلي . فقد وجد طريقة سهلة لتحريض الإنكشارية على السلطان . حيث طالب الإنكشارية الذين تم تحريضهم ، السلطانَ بإعطائهم بدل خدمة زيادة على رواتبهم . وهددوه بالتوقف عن أداء مهامهم .

اجتمع السلطان على الفور مع وزرائه وأساتذته . وسأل قائلاً :

- ماذا أصاب خدمنا من الإنكشارية ؟

قال جاندارلي :

- لا يقتصر الأمر عليهم فقط ، بل أصبحت مطالب بقية الجنود مثلها أيضاً في بعض الأحيان .

سأل السلطان بقلق :

- ماذا تفعلون حينها ؟

- نقوم عادةً بتنفيذ مطالبهم .

- هل هذا ممكن أيها الباشا ، أين حصل أمر كهذا أن يتم منح الجنود كل ما يريدونه ؟

- وإلا سيتمرّدون . . .

- ليتمرّدوا إذن ، وسيرون حينها كيف سألقنهم درساً لن ينسوه . . .

- إنك تفعل الشيء نفسه دائماً .

- ماذا تقصد بذلك ؟

- إنك تحاول حل جميع المشاكل باستخدام القوة . في حين . . .

- من الواضح ما ستقوله يا باشا . . .

نظر السلطان إلى بقية الوزراء متأملاً الدعم منهم . كانت رؤوسهم متجهة إلى الأمام . إذن سيؤيدون كلام جاندارلي . ثم تذكر نصيحة معلمه آق شمس الدين الذي قال : « ينبغي عليك اكتساب قلوب الجنود » .

- ما رأيك يا معلمي آق شمس الدين بهذا الموضوع ؟

- ينبغي اكتساب قلوب الجنود . . .

كان معلمه يكرر الكلام ذاته . وافق السلطان على وجهة النظر هذه على مضض .

- ليكن ما يريدون .

عَمَّ الصمت أرجاء المكان . ثم قال الوزير المسؤول عن
الخزينة :

- لسوء الحظ ، ليس لدينا ما يكفي من الذهب في الخزنة
يا سلطاني . كان صوته يرتجف أثناء حديثه .

- هل تقول إنه لا يوجد في خزينة الدولة العثمانية العظيمة
ما يكفي من الذهب لتوزيعه على الإنكشارية ؟

- نعم يا سلطاني . . .

قال شهاب الدين باشا :

- لدي اقتراح ، عندما قال ذلك التفت إليه السلطان وكله أمل .

- لِنُحَقِّضْ عيار الذهب الموجود في الخزينة قليلاً . وبذلك
ستصبح على سبيل المثال قيمة كل خمس قطع من الذهب تعادل قيمة
ست قطع ذهبية . ونوزع هذا الفائض على الإنشكارية .

لم يفهم السلطان شيئاً من هذه العملية الحسابية . وبينما كان
ينظر حوله بارتباك تدارك جاندارلي خليل باشا الأمر على الفور
وقال :

- اعتقد أنها فكرة جيدة أيضاً . وبذلك ستكسب قلوب
الإنكشارية .

التفت السلطان نحو بقية الوزراء وسأل :

ما رأيكم أيها الباشوات ؟

صمت جميع الوزراء . ثم التفت السلطان محمد ، هذه المرة ،
نحو معلميه وسألهم :

- ما رأيك في هذا الموضوع يا معلمي الملا كوراني ؟

- أوافق على ذلك يا سلطاني . وبذلك يكون الإنكشارية
ممتنين ، ولن ينقص الذهب الموجود في الخزينة .

- وماذا عندك يا معلمي آق شمس الدين ؟

- لا علم لي يا سلطاني ، لا أفهم بأمور المحاسبة هذه .
ولكن....

- ولكن...

- هل من اللائق إعطاء الإنكشارية الذهب منخفض العيار ؟

عارض جاندارلي والملا كوراني فكرته هذه . بالنسبة إليهم تصح
هذه الأمور ، أما بالنسبة إلى الصوفية لا يجوز ذلك . إذن إن هذه
الأعمال هي من شأن موظفي المحاسبة . لم يتكلم آق شمس الدين
رغم انفعاله . لكنه قال ما يريده وانتهى . أما بقية العمل كانت من
شأن السلطان .

بقي السلطان لا حيلة له فأصدر أوامره قائلاً :

- ليكن الأمر كذلك .

أخذ الإنكشارية الذهب ولكن الاضطراب لم ينتهي بعد .
وبدأوا ، هذه المرة ، يقولون : « لا نريد سلطاناً يوزع علينا ذهباً
منخفض العيار » . كان آق شمس الدين الذي لا علم لديه بأمور
الحساب محقاً . اصطدم السلطان بهذه الحقيقة المرة ؛ ولكن حدث
ما حدث .

كان جاندارلي سعيداً بنجاح الخطة التي وضعها . كانت هذه
الخطة من تدبيره . فقد استدعى بعض الوزراء قبل أن يفعل السلطان
ذلك ، وأقنعهم بتطبيق هذه الفكرة . كما أبلغ الإنكشارية عن
التلاعب بعيار الذهب سراً . وكانت النتيجة مثلما أراد تماماً .

تمرد الإنكشارية قائلين : « لا نريد سلطاناً كهذا ! » . حتى قمع
السلطان مراد الذي استدعي بالطرق المعروفة إلى أدرنة مرة أخرى ،
تمرد الإنشكارية بالخطوات التي اعتمدها . كانت أولى تلك
الخطوات ، هي إعادة رفع قيمة الذهب .

توجه جاندارلي الذي استغل هذا النجاح للسلطان مراد إلى عند
السلطان محمد وقال :

- كما ترى لقد اضطّر والدك ، الذي اعتقد أنه اعكف وبقي بعيداً
عن شؤون الحياة الدنيا ، إلى القدوم إلى أدرنة مرة أخرى . في

المرّة الماضية ، أخضع الجيش الصليبي ، أما هذه المرّة ضبط الإنكشارية .

- أعلم أيها الباشا ، أعلم ذلك .

- ما أقوله هو أن تطلب من والدك اعتلاء العرش مجدداً . . .

- هل يمكن حدوث ذلك ؟

- كلا ولكن إذا بقيت الأمور على هذا المنوال سيكون أسوء . . .

- لماذا ؟

- ألا ترى كيف أن والدك يقوم بالأعمال الهامة الواجب عليك

القيام بها عوضاً عنك . هل تعلم ما يقوله الغريب عن ذلك ؟

لم يجب السلطان محمد . وفكر فحسب . في الواقع ، كان جاندارلي محقاً فيما قاله .

- حسناً ، قال ؛ سأحدث مع والدي في أقرب وقت ممكن .

قبل السلطان مراد طلب ابنه واعتلى العرش من جديد . كان

السلطان الشاب يظن أن والده لن يقبل هذا العرض ، لكنه كان

مخطئاً . وجلس السلطان مراد على العرش مرة أخرى . أصبح

الأمير مثل طفل انتزعت منه لعبته المفضلة . أهدى الفرصة التي

جاءته إلى عند قدميه إلى والده على طبق من الذهب ، ولم يرد هذه

الهدية .

لم يكن هناك من شيء ليفعله . عاد إلى مانسيا بصفته حاكماً عليها . واصطحب معه أثناء عودته ، زاغنوس باشا ، وساروجا بك ومصلح الدين باشا . إذ سيكون زاغنوس باشا المربي الجديد للأمير . أما بالنسبة إلى الاثنين الآخرين ، فكانوا مهندسين بارعين للغاية في سبابة المدافع .

* * *

دامت الحقبة الثانية من حكم الأمير محمد ، الذي تنازل عن السلطنة لوالده ، على مانسيا مدة خمس سنوات .

طور خلال هذه السنوات معرفته وخبرته وقدرته على التعامل مع المؤامرات . أما الجانب الأكثر تطوراً من غيره كان إصراره . ولم يعد يعترف بأي عقبات أمام تحقيق ما يفكر به ويسعى إليه .

بدأ القراصنة الأتراك برضى من الأمير بمهاجمة البنادقة . حتى أنه صك عملة باسمه . وقد أظهر هذا العمل الأخير ، مدى رغبة الأمير محمد في استلام السلطنة .

كان يجتمع في كثير من الأحيان مع مربيه زاغنوس باشا ويتكلمان طويلاً . كما كان ينفرد من حين لآخر مع مهندسي سبابة المدافع في غرفة ويعملون لساعات . في حين كان يمضي ما تبقى من وقته في مكتبه الخاص . كان كثيراً ما يعمل حتى منتصف الليل ، أو

الصباح . ولكن كان أقرب الناس إليه فقط يعلمون ما يفعله الأمير .
ولكنهم كانوا غير مطلعين على المرحلة الأخيرة التي وصل إليها .
بدأ الأمير محمد ينتبه جداً إلى ضرورة الحفاظ على سرية خطواته
التي سيخطوها مستقبلاً . حتى أن خبر زواجه من غول بهار خاتون ،
المسلمة ذات الأصل الكوسوفي ، عرف بعد مضي فترة طويلة من
الزمن . لم يوافق السلطان مراد على هذا الزواج ، لكنه لم يعد
بإستطاعته فعل شيء . كما أصبح لديه حفيد اسمه بايزيد من هذا
الزواج .

في شهر تشرين الأول من عام ١٤٤٨ . . . كانت صدمة الهزيمة
التي تعرض لها الصليبيون في فارنا ما تزال موجودة في العالم
المسيحي . لهذا ظهرت تمردات ضد العثمانيين في الأفلاق ،
والبانيا ومورا . كما حشدت أوروبا المسيحية جيشاً صليبياً جديداً ،
وكانت تأمل من خلاله طرد العثمانيين من البلقان . ولا سيما القائد
المجري هنيادي كان ينفجر من الغيظ . ويحلف الأيمان أنه سيأخذ
بثأرهم من أجل فارنا . ثم انطلق لمهاجمة السلطان مراد مصطحباً
معه فلاديسلاف أمير الأفلاق وقد أعد جيشاً صليبياً مكوناً من ٧٠
ألف جندي .

دعا السلطان الأمير محمد إلى الحرب . فقد أراد منه المشاركة
في حرب جدية ، وبذلك ستزداد خبرته .

لم يكن لدى الأمير ما يقوله . وانطلق على رأس قواته مثل قائد عسكري حقيقي .

كان تحوله إلى شاب مكتمل أمراً ملفتاً للانتباه . واندفع بالمقام الذي بلغه بسرج فرسه . في حين خلقت الأوامر التي أصدرها ، والتحركات التي أقدم عليها ، بيئة آمنة تماماً للجيش . ولم يعد باستطاعته أن يدعوه بـ « فتى أمه » بعد الآن .

أحرز الجيش العثماني في هذه المعركة التي كانت مسرحاً لمعارك شرسة ، انتصاراً باستخدامهم « تكتيك الكماشة » . وهو تكتيك اعتمده الأتراك منذ أن كانوا في آسيا الوسطى . حيث يتشجع العدو على الهجوم عند انسحاب القوات على الجناح الأيمن والأيسر . ليفاجيء العدو ، الذي هاجم قلب القوات المتمركزة في المنتصف ، الفخ الذي وقع فيه . لأن القوات المنسحبة قبل قليل تطوقه من الجانبين وتدمره في وقت قصير . وهذا ما حدث بالفعل .

أحرز الجيش العثماني الانتصار في هذه المعركة الشرسة التي استمرت يومين ونصف .

هزم الصليبيون مرة أخرى . ولم يعد لديهم من حل آخر سوى تقبل الوجود العثماني في البلقان .

أصيب الأمير محمد بحزن شديد على وفاة والدته هُما خاتون في

صيف عام ١٤٤٩ . إذ لم يعد لوالدته التي كبر على سماع تهويداتها وأرضعته الحليب الصافي أي وجود . والشيء الوحيد الواجب فعله هو الدعاء لها . ولكن الأمير لم ينسى والدته قط ؛ فقد حمل محبتها في قلبه مثل زهرة على الدوام .

اصطحب السلطان مراد الأمير محمد معه عند حصاره أكشاحصار خلال الحملة الألبانية التي قام بها ضد إسكندر بك في عام ١٤٥٠ . كان هذا الحصار بالذات تجربة مؤلمة بالنسبة إلى الأمير لكونه انتهى بالفشل . كان الأمير محمد يعتقد أنه أصبح مستعداً لاستلام السلطنة وانتهاز جميع الفرص من أجل تحقيق ذلك .

كان هناك حرقه في قلبه اسمها القسطنطينية . وأراد أن يصل إلى السلطنة من أجل إخماد هذه الحرقه .

* * *

زفاف الأمير

في عام ١٤٥٠ . . . واصل الأمير محمد أداء مهمته بوصفه أمير الأمراء في مانسيا . لم يقصر في احترام والده رغم استيائه من توليه العرش من جديد . في غضون ذلك ، كانت هناك مسائل مرتبطة به ارتباطاً وثيقاً في قصر أدرنة .

كان السلطان مراد يجري محادثة جدية مع الصدر الأعظم جاندارلي خليل باشا :

- كما تعلم أيها الباشا ، لقد دخل الأمير عامه الثامن عشر . وما شاء الله ، ترد أخبار رائعة من مانسيا . . .

لم يستطع جاندارلي التخمين إلى أين سيصل في كلامه . هل سيتخلى السلطان عن العرش للأمير مرة أخرى ؟ أصابت هذه الفكرة الوزير المخضرم بالملل . كان يعلم جيداً أن الأمير ليس معجب به كثيراً . تابع الاستماع إلى السلطان باهتمام :

- ألا تعتقد أيها الباشا أن على الأمير الزواج من فتاة تليق بالدولة العثمانية ؟

شعر جاندارلي بارتياح كبير وكأنه طائر . إذن لن يحدث ما خشي حدوثه . إذا كان الأمر يتعلق بزواج الأمير فهل هناك أسهل من ذلك ؟ ألم يعد هناك من فتاة لابن السلطان ؟ كان بوسع السلطان مراد تزويج ابنه من أي فتاة يريد . ولكن الصدر الأعظم يعلم جيداً أن زواج الأمراء ليس حدثاً عادياً . إذ لم يكن باستطاعتهم الزواج كما يحلو لهم . لا بد من الأخذ بالاعتبار الكثير من الأمور وبخاصة حينما يتعلق الأمر بالمصلحة العظمى للدولة .

ولهذا السبب ، أثار زواج الأمير بمفرده من غول بهار خاتون في مانسيا وهو لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره بعد ، غضب السلطان . كان السلطان مراد يرغب في تزويج ابنه بفتاة يختارها هو بنفسه هذه المرة . أجاب جاندارلي السلطان قائلاً :

- لقد أصبت يا سلطاني . اعتقد أن على أميرنا الزواج بفتاة لائقة .

- ونحن من سيختارها . . .

- من دون شك يا سلطاني ، هذا ما ينبغي القيام به . لا تقلق بشأن زواجه الأول . . .

- صحيح ما تقوله أيها الباشا . . . لدينا بالفعل ابن حر الإرادة . . .

- لنقل إنه جاهل قليلاً .

- ألا أعلم ذلك ؟

- ولكن لن تجري الأمور هكذا بعد الآن .

- أعتقد أن هناك فتاة تفكر بها . .

- نعم أيها الباشا . . هناك فتاة أفكر فيها .

- هل تسمح لي بالسؤال عن صاحبة الحظ السعيد ؟

- إحدى فتيات سليمان بك وبني دولقادر . . .

- أصبت باختيارك يا سلطاني ، بذلك ستعزز صداقتنا مع بني دولقادر .

- لتقام الاستعدادات اللازمة لذلك في أقرب وقت ممكن أيها الباشا

- سمعاً وطاعة يا سلطاني !

بدأ جاندارلي العمل على الفور .

في البداية ، استدعى الأمير متذرعاً بحجة ما إلى أدرنة . جاء محمد إلى أدرنة حاملاً معه آمالاً كبيرة . من يدري ربما سيعتلي العرش من جديد ؟

أرسل جاندارلي خليل باشا زوجة خضر آغا إلى بني دولقادر

كوسيط . انتابت الفتاة فرحة لا مثيل لها . كان لدى سليمان بك خمس بنات ؛ عرضهن جميعهن على المرأة الواسطة .

أعجبت زوجة خضر آغا بإحداهن وهي الست مكرمة خاتون . عادت إلى أدرنة وأبلغت السلطان بالأمر . احترم السلطان مراد اختيار هذه المرأة الخبيرة . وفي هذه المرة اصطحبت زوجة خضر آغا في هذه المرة زوجات سادة الأناضول معها من أجل طلب يد الفتاة . أرسل سليمان بك ، الفتاة السعيدة الحظ إلى أدرنة برفقة السيدات ومعهن جهاز العروس . لم يعجب السلطان مراد بجهاز العروس ، وحضر جهاز آخر جديد . كما جهز زفافاً للشابين سيشيخ على الألسنة . وتمت دعوة جميع الأسياد والأمراء والحكام إلى حفل الزفاف . وزعت الصداقات على الفقراء . وإن اضطر الأمير محمد إلى تأجيل آماله في السلطنة ، ولكنه قام بعقد قران جديد . إضافة إلى أن هذا الزواج كان يصب في مصلحة الدولة مثلما أراد والده . ويؤمن أن ما فعله صحيحاً .

توجه الأمير مراد مع زوجته الجديدة نحو مانسيا .

* * *

توفي والدك البقية في حياتك يا سلطاني

كان الأمير محمد يمضي فترة مثمرة للغاية في مانسيا . كان جميع الأساتذة يقومون بتدليله . بينما كان الملا كوراني يرسخ معرفة الأمير ، كان آق شمس الدين يفتح آفاق واسعة في قلبه .

كان الأمير يبهر الناس بطوله المتوسط ، وعيناه وحاجبيه السوداوين ولياقته البدنية . كانت نظراته الحادة التي يطلقها من على أنفه المقوس تثير مشاعر احترام ممزوجة بالخوف لدى الإنسان . كان قوي الرسغ ، وقلبه كالأسد .

كان يمضي وقته خارج الدروس برفقة صديق طفولته بيرم . وعندما تحين الفرصة كانا يركبان فرسيهما ويتجها نحو ضواحي مانسيا . بالطبع ، كان يرافقهما برهان الدين آغا والحرس مثلما كان عليه الحال في السابق . غير أن الأمير قد تغير الآن ؛ أصبح إنساناً راشداً بالغاً . رغم ذلك كان بحاجة إلى حماية أكثر من السابق لكونه الوريث الوحيد للعرش .

في منتصف شهر شباط من عام ١٤٥١ . ركب الأمير محمد برفقة بيرم على ظهر حصانيهما وخرجا للتنزه فوق الثلوج الخفيفة .

كان حصان الأمير الأشهب وحصان بيرم البني يعرفان بعضهما جيداً . كانا يمشيان بأسلوبهما المعتاد مدة عشر دقائق بتوجيه من فارسيهما .

كانت الأصوات الصادرة من خطوات الخيل على الثلج الناعم تضفي إيقاعاً جميلاً على الأجواء . وانطلقا في المسير عن طريق تحريك قوائمهما اليمنى الأمامية والخلفية أولاً ، ومن ثم تحريك قوائمهما اليسرى الأمامية والخلفية في آن واحد . كانت الخيول تقوم بهذا المسير الذي يدعى « سير الهوينا » عند وجود سلاطين أو رجال دولة مهمين للغاية على ظهرها . لأن هذه الطريقة في المشي لا تتعب الفارس . ومشت الخيول هكذا مدة عشر دقائق ثم سحبت أَلجمتها فجأة . كانت هذه الحركة تعني أن عليهم التوقف . نظر كلا الحصانين إلى بعضهما البعض وكأنهما يريدان معرفة ما الذي يجري . لو كان باستطاعتهما فهم كلام البشر لكان تلاشى فضولهما في الحال . ولأن هذا أمر مستحيل بدأ الانتظار بخنوع .

اقترب أحد الحراس من الأمير . وأخبر الأمير شيئاً ما مشيراً بيده إلى الرسول الفارس المنتظر على الطرف الآخر . نظر محمد إلى المكان المشار إليه . كان الرسول الفارس ينتظر وقد شبك يديه أمامه ، ومن الواضح عليه أنه سافر على ظهر الحصان لأيام طويلة . ودعا الأمير الرسول إلى جانبه مشيراً له بيده . وبعد إظهار الاحترام

اللازم للأمير ، أخرج الرسول الأمانة التي في جيبه . كانت هذه الأمانة عبارة عن ورقة ملفوفة ومختوم عليها . أخذ أحد الحراس الورقة وأعطائها إلى الأمير وعاد بسرعة إلى الوراء .

نظر الأمير إلى الورقة حيناً وإلى المحيطين به حيناً آخر . اتجهت الأنظار جميعها إليه . بدا وكأنهم يسمعون ضربات قلبه المتسارعة . ليس من الممكن حدوث ذلك . لم يحدث أن رآه أحد يتحمس بهذه السهولة منذ سنوات طويلة . أخذ نفساً عميقاً وسحب الختم الذي على الورقة وهو يسمي بالله تعالى . ثم أخرج الرسالة . نعم ، لقد كانت عبارة عن رسالة . ألقى الأمير نظرة على محتواها . كان اسمه في مكان المخاطب ؛ وفي الأسفل مكتوب اسم الصدر الأعظم جاندارلي خليل باشا . كما كان يوجد توقيع وختمه أيضاً . ثم أخذ نفساً عميقاً آخر .

سمى بالله وبدأ القراءة :

« إلى حضرة الأمير محمد ، أمير أمراء مانسيا ،

من المعلوم لدينا أنك بالرغم من صغر سنك قد امتلكت تجربة فريدة لا يمتلكها العديد من الناس . وواجهت الكثير من الأحداث المؤلمة والسعيدة في الحياة أيضاً . حتى أنك جلست على عرش السلطنة في سن الطفولة . ومثلما أَحْبَطْتُ وفاة أشقائك من عزيمتك ، فقد جعلتك وفاة والدتك شخصاً بائساً تعيشاً . لكن كما ترى لقد أصبحت هذه الأمور من الماضي . وتعلمت كيف تواصل

حياتك وإن كانت مؤلمة . كما تعلم جيداً أنه لا مكان للمحداد على الميت مدى الحياة في ديننا . وليست المهمة المنوطة بك سوى حبر على ورق بوصفك السلطان المستقبلي ، وقد أظهرت أنك تستحق ذلك بكل جدارة .

إن الخبر الذي سأطلعك عليه الآن سيصيبك بالحزن الشديد . ولكن ما الحيلة إن أموراً مثل هذه هي نتيجة حتمية للحياة . يولد الإنسان ، ويكمل حياته التي منحها الله إياها ، ثم يموت . وأنت تعلم جيداً أن الموت ليس زوالاً نهائياً بحسب عقيدتنا بل بداية حياة جديدة وأبدية .

في تاريخ العاشر من شباط من عام ١٤٥١ دخل والدك العزيز والسلطان السادس لدولتنا السلطان مراد خان هذه الحياة الجديدة من أوسع أبوابها .

أعلم أنك حزين جداً وأن كلامي لن يخفف من حزنك . ولكن عليك أن تعلم أن الوقت غير مناسب لإضاعته على الحزن . وعلينا جميعاً أن ندفن ألمنا في قلوبنا ، ونفعل كل ما هو ضروري من أجل مصلحة الدولة .

أقول لك بصفتي الوزير ذو الصلاحيات الأعلى من بعد السلطان في الدولة العثمانية ، أن عليك التوجه نحو أدرنة بمجرد تسلمك هذه الرسالة وتسلم كرسي والدك .

وستقام مراسم الجنازة بعد وصولك إلى هنا .

البقية في حياتك .

أطال الله في عمرك وعمر دولتنا .

الصدر الأعظم ، وعبدكم جاندارلي خليل باشا » .

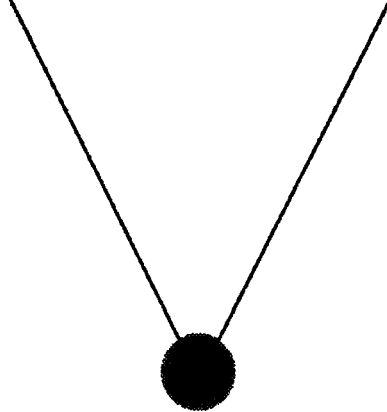
صعق الأمير محمد للحظة ، ولكنه استعاد وعيه بسرعة . ما قاله جاندارلي صحيحاً . ينبغي عليه دفن أَلَمه في قلبه . ربما لم يكن من الصواب سماع المتواجدين حوله خبر وفاة السلطان . عندها خاطب المتابعين له بفضول من حوله قائلاً :

- يكفي هذا اليوم ، سنعود إلى القصر .

كان من الواضح وجود أمر مهم . لكن في الوقت الحالي ، كان الأمير وحده من يعلم بما يجري . هناك أمر آخر معروف هو أن الأخبار المهمة لا ترسل مع رسول واحد فقط . بل يتم إرسال ثلاثة من الرسل الفرسان على الأقل ينطلقون منفصلين عن بعضهم البعض ، ويسلكون طرقاً مختلفة عن بعضهم . لذلك بدأ أولئك العارفين بهذه القاعدة ينتظرون بفارغ الصبر . وبعد قليل أتى الرسول الثاني ؛ ثم لحقه الثالث . أحضر كلاهما نفس الرسالة الأولى .

أصدر الأمير محمد تعليماته لمن حوله محاولاً إخفاء مشاعره قائلاً :

- استعدوا ، سنذهب إلى أدرنة . لقد دعانا والدي إلى هناك !



القسم الثاني

حبا بالفتح

ليتبعني من يحبني

في اليوم الذي تلقى فيه الأمير محمد خبر وفاة والده ، أبلغ المحيطين به بضرورة الاستعداد للذهاب إلى أدرنة بناء على دعوة من والده . ولكن من سيستعد للذهاب ؟ هل سيمضي وقتاً طويلاً هناك ، أم أنه سيعود إلى مانسيا خلال مدة قصيرة ؟ عندما شعر الأمير بوجود شكوك حول هذا الموضوع ، فأصدر أمراً آخر وقال : « ليتبعني من يحبني ! » . امتطى حصانه الأشهب الموجود تحت تصرفه فور قوله ذلك وانطلق في رحلته . لم يركض الحصان الذي عرف حالة الأمير بل أخذ يحلق من السرعة .

عقب ارتباك قصير أخذت خيول أولئك الذين رأوا تحول الأمير محمد إلى طائر على ظهر حصانه الأشهب وتحليقه ، تعدو باتجاه أدرنة . في حين أرسل معلم الأمير زاغنوس باشا ؛ غول بهار خاتون وطفله في حضنها وجواربها في عربة ، والست مكرمة وجواربها في عربة أخرى . لم ينسى بالطبع وضع عدد كاف من الحراس إلى جانبهم . ثم انطلق خلفهم ، يدعو الله أن يتمكن من اللحاق بالأمير . لأنه ليس حكيماً أن يقود السلطان المرشح الحصان وحيداً

على الطرقات المهجورة طيلة النهار والليل . . .

غادر كل من يحب الأمير من معلميه ، وقادة جيشه وجنوده وأصدقائه وغيرهم ، كل منهم بطريقة ما نحو أدرنة . حتى كاد أن يخلو قصر مانسيا للأمرأء تماماً . لذلك كانت هذه الرحلة مختلفة عن سابقتها .

إذ لم يسبق أن جلب الأمير محمد هذا الكم الهائل من الناس خلال زيارته السابقة . ولهذا كان واضحاً وجود وضع استثنائي . كان لدى الجميع توقعه الخاص . كان أكثرهم يؤكد أن السلطان مراد ربما سيقوم بتسليم العرش إلى الأمير دون تراجع عن الأمر هذه المرة . أما أولئك المقربون جداً من الأمير فقد استطاعوا توقع السبب الحقيقي . لأن الحزن الذي شعر به الأمير عند سماعه خبر وفاة والده انعكس جلياً على تصرفاته رغم محاولته إخفاء الأمر .

أخذ زاغنوس باشا اثنين من الخيول برفقته عدا عن ذاك الذي كان يمتطيه . كان يركب أحدهما حين يتعب الآخر ، وبذلك تخلص من إضاعة الوقت . ومع ذلك استطاع بجهد غير عادي اللحاق بالأمير بحلول المساء . نزل الأمير محمد في إحدى الخانات وأخذ قسطاً من الراحة .

قام ساسة الخيل بتمشيط حصانه وإطعامه .

قال الأمير محمد عندما رأى مربيه أمامه :

- اعتقدت أن لا أحد يستطيع اللحاق بحصاني الأشهب ، ولكن مربيانا انطلق بسرعة !

- لو لم أخرج بثلاثة أحصنة دفعة واحدة مقابل حصانك للحاق به لما استطعت ذلك على الإطلاق .

- بما أنك أتيت بثلاثة أحصنة فهذا يعني أنك ستعطيني أحدهم احتياطاً لي .

- ليس حصان واحد بل جميع الأحصنة فداء لك يا أميري .

- شكراً لك أيها المربي ، شكراً لك .

- إذن لنذهب معاً ؟

- نعم أيها المربي ، لنذهب معاً !

- إن أردت ننتظر قليلاً أيضاً .

- لماذا ؟

- ألم تقل : « ليتبعني من يحبني » ، كم هم كثيرون الذين يحبونك . لن أكذب إن قلت أنه لم يبق أحد في قصر الأمراء .

ارتسمت ابتسامة على وجه الأمير .

- لن ينسى فضلهم هذا .

أدرك زاغنوس باشا بخبرته الطويلة الممتدة لسنوات أن هذا الكلام لم يقل عبثاً ، ولكن لم يُعَرَّه اهتماماً .

- لنتنظر قليلاً من بعد إذنك حتى يستطيع من تبعنا اللحاق بنا .
ومن ثم ننطلق سويةً .
وهذا ما حدث .

توافد المعلمون الممتطين الخيول الساكنة مؤقتاً ، والعلماء الذين آلامتهم أردافهم من الجلوس على السروج ، والقادة العسكريون الذين يعتبرون ركوب الخيل بمثابة لعبة أطفال تدريجياً .
جعل زاغنوس باشا القافلة في نسق جديد .

كان في المقدمة الفرسان ويوجد الحراس عن يمينهم ويسارهم .
وورائهم مباشرة كان الأمير محمد ، ومربيه ، ووزرائه ومعلميه . . .
كانت زوجات السلطان محمد في وسط المجموعة تماماً .

انطلقوا مجدداً . كانت الخيول تعدو بسرعة دون التفكير بأخذ استراحة على الإطلاق .

بعد فترة من الزمن تباطأ حصان الأمير الأشهب . تبعه زاغنوس باشا .

كان الأمير محمد يبحث عن آق شمس الدين . ارتاح لرؤية معلمه في الخلف يرتدي ملابسه البيضاء . كان يفصل بينهما بضعة

أحصنة فحسب . أبطأ حركته وانتظر لحاق معلمه به . وسأل حينها :

- هل هناك من مشكلة إن ركبنا الخيل جنباً إلى جنب ؟

دفع هذا السؤال زاغنوس باشا على التحرك قبل آق شمس الدين . حيث انسحب إلى الوراء بالحصان ليترك المعلم وتلميذه على انفراد .

أجاب آق شمس الدين بتواضع على سؤال الأمير محمد :

- ما هذا الكلام يا سلطاني ، إنه لشرف لنا ركوب الخيل معك .

ارتبك الأمير . فقد دعاه معلمه بـ « السلطان » .

- لقد دعوتني بالسلطان يا معلمي ، ولكنك تعلم جيداً أنني لست سلطاناً .

- ما أعلمه هو أنك أصبحت « سلطاناً » الآن .

لم يخبر الأمير محمد أحداً نبأ وفاة والده . إذن كيف يعلم معلمي بذلك ، ثم تذكر حقيقة أن الشخص الذي أمامه هو آق شمس الدين . إذ كانت القدرة على توقع بعض الأمور من تصرفات البشر أشبه بلعبة أطفال بالنسبة إليه . وبجميع الأحوال ، فسر معلمه الأمر قائلاً :

- يبدو لي أن السلطان مراد خان قد وافته المنية .

فكر الأمير أنه من غير المجدي إخفاء هذه الحقيقة عن أستاذه .
وقال :

- هذا صحيح يا معلمي .

- رحمه الله . والبقية في حياتك وحياة دولتنا .

- جزاك الله خيراً يا معلمي .

- إذن هذه الرحلة هي من أجل جلوسك في مقام السلطنة
بالطبع .

- إن شاء الله يا معلمي .

- من الآن فصاعداً عليك أخذ مزيد من الحذر في كل خطوة
ستخطوها . كانت خطوة جيدة منك إخفاء خبر وفاة والدك . وإلا
أدى ذلك إلى حدوث بعض الفوضى والاضطرابات .

- على ما يبدو لم استطع إخفاء ذلك عنك .

شعر آق شمس الدين بالحرَج كالطفل . طأطأ رأسه إلى الأمام .
حيث لاحظ الأمير محمد بكاء معلمه .

كانت الدموع الرقيقة المناسبة تبلبل لحيته الخفيفة . تلوى الأمير
في داخله . فقد كان يعلم أن معلمه إنسان عاطفي جداً . ولم يكن
بكائه على وفاة السلطان مراد أمراً عادياً . قال الأمير محمد :
- يبدو أن وفاة والدي قد أحزنتك للغاية .

- هذا صحيح يا أميري ، إن وفاة والدك المحترم أحزنتني بالفعل .

- يكفي يا معلمي ، لا تبكي ...

- ألم يقل حبيبنا ونبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن العين لتدمع والقلب ليحزن . . . »

- أعلم ذلك ولكن بكائك هذا على موت والدي يؤلم قلبي .

- هل تعتقد أن بكائي هذا هو بسبب وفاة والدك فحسب ؟

- لم أفهم ما تقصده . . .

- إن بكائي هذا ليس من أجل والدك فحسب .

- إذن من أجل من يا حضرة المعلم ؟

- من أجلك أيضاً !

- لم أفهم شيئاً مرة أخرى . . .

- سأشرح لك الأمر إذن .

- أرجوك يا معلمي ، يسعدني إن تكلمت بوضوح أكبر .

- تعلم أنك تحمل اسم النبي محمد صلى الله عليه وسلم نفسه .

- أعلم يا معلمي .

- وتعلم أيضاً أنه عندما كرم الله الرسول بالنبوة كان يتيم الأم والأب .

- أعلم ذلك يا معلمي .

- وعندما كان حضرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم لا يزال على قيد الحياة ، لم يدعي أحد آخر النبوة . . .

- هذا صحيح يا معلمي .

- يبدو لي إن شاء الله أن أحداً لن يدعي لنفسه السلطنة خلال فترة حكمك .

- إن شاء الله يا معلمي .

- ستفتح القسطنطينية بإذن الله كما فتح نبينا مكة !

- تحمس الأمير محمد . كم كان جميلاً حديث معلمه . كان يثق في حدسه منذ مدة طويلة .

- لقد أجمعت في داخلي حب الفتح مجدداً يا معلمي .

- احذري يا أميري أن تترك هذا الحب يصبح رماداً !

- تعلم يا معلمي أن هذا الشعلة تعانق ذاتي . ولكنني لا أفكر الآن بشيء آخر سوى بموت والدي .

- أريدك أن تعلم أنني أدعو دائماً من أجل أن يتكلل هذا الحب في داخلي بالفتح .

- جزاك الله خيراً يا معلمي ، إنك جدير بذلك .
- وأنت أيضاً يليق بك العمل بجد يا أميري ، العمل بجد . لأن الفتوحات العظيمة لا يمكن اكتسابها بقليل من الجهد .
- أعدك يا معلمي أن أعمل بكل ما في نفسي حتى الرمح الأخير .
- إذن إن النصر حليفك إن شاء الله .
- إن شاء الله يا معلمي ، إن النصر حليفنا بإذن الله .

* * *

الأمير محمد يصبح سلطاناً

استقبل قصر أدرنة الأمير الشاب استقبال السلاطين . قدم مقدمي الدولة وعلى رأسهم جاندارلي خليل باشا التعازي إلى الأمير .

وفي ١٩ من شهر شباط من عام ١٤٥١ اعتلى الأمير محمد العرش للمرة الثانية . وأصبح بذلك السلطان السابع للإمبراطورية العثمانية . وسيذكر من الآن فصاعداً باسم محمد الثاني .

قوبل جلوس السلطان على العرش بارتياح من قبل بعض الوزراء في القصر وعلى رأسهم جاندارلي . كانوا يعتقدون أن محمد الثاني ما يزال شاباً صغيراً . كما كانوا يخشون أن نشاطه وتهوره لكونه في عمر الشباب سيكبد الدولة خسائر كبيرة . أما أولئك الذين يفكرون مثل شهاب الدين باشا وزاغنوس باشا كانوا متفائلين بالسلطان الشاب . كما أن « حادثة سن السلطان » التي أفرغت البقية أسعدت هؤلاء . لأنهم كانوا يعتقدون أن القرارات المهمة يمكن اتخاذها بسهولة أكبر من قبل الشبان .

وفي ظل أفكار الوزراء المختلفة ، توجه محمد الثاني إلى غرفة العرش برفقة آغاوات العرض . صلى ركعتي صلاة شكر . وعند

سجوده شوهدت دموعه تبلل لحيته . لم تنهمر هذه الدموع بسبب وفاة والده فقط بل عكست المسؤولية الملقاة على عاتقه أيضاً . بالطبع لأن المهمة التي كُلف بها ليست سهلة .

في الواقع ، لو لم تكن صعبة لكانت أخدمت شعلة الفتح التي بداخله .

ارتدى السلطان بعد أدائه صلاة الشكر ، زي الاحتفال . ثم خرج برفقة آغا دار السعادة وسلاحدار آغا . جلس على العرش المعد أمام باب السعادة . حيث حضر كبراء الدولة لتهنئة السلطان على التوالي . انتهت المراسم بتقبيل موظفي التشريفات ذيل ثوب السلطان . نال محمد الثاني قسطاً من الراحة في « الغرفة الخاصة » . ثم توجه إلى « مسار الجلوس » الموجود في الطرف الخلفي من منطقة أيوب سلطان مع حاشيته ممتطياً حصانه ومتقلداً سيفه . وخلال جولته على هذا المسار رحبت به العامة بحماس . وعند عودته إلى القصر أمر بدفع مبلغ كبير من البخشيش على الإنكشارية وتقديم كل أنواع المساعدة للفقراء .

بعد انتهاء مراسم الجلوس ، أراد الإنفراد مع الوزراء . كان هذا تقليداً . حيث يعلن السلطان في اجتماعه الأول هذا ، أسماء الوزراء الذين لا يرغب بالعمل معهم إن وجد . بدأ الاجتماع . وقد بدا على الوزراء حماس مجهول السبب . وبخاصة جاندارلي خليل باشا كان

يقف بعيداً عن السلطان . لأنه يعلم أن السلطان لا يكن له الكثير من المحبة . ولهذا السبب كان قلقاً . ولن يتفاجىء إن طرد من عمله . ولكن حدث أمر آخر أدهشه . قال السلطان الشاب :

- لماذا يقف وزير الدولة بعيداً ؟ داعياً جاندارلي إلى جانبه .

ارتاح جاندارلي الذي اقترب من السلطان وقلبه يخفق بسرعة كبيرة بالكلمات التي سمعها وقال :

- أنت إرث من والدي . ويسرنا إن خدمتنا مثلما فعلت مع والدي في السابق .

كان جاندارلي فرحاً بذلك حقاً . وبادر إلى تقبيل يد السلطان بحماس . عندها قال السلطان :

- استغفر الله يا حضرة الباشا . ومنعه من تقبيل يده . ولكن لم يعارض من تقبيل ذيل رداؤه لأنه من تقاليد الدولة .

عَيَّن محمد الثاني إسحق باشا أمير أمراء على الأناضول . وقد كلف الباشا أيضاً بجلب جثمان مراد خان إلى بورصة وتنظيم مراسم الدفن هناك .

انتهى هذا الاجتماع الأول مع الوزراء دون أية مشاكل . أظهر السلطان الشاب نضجاً غير متوقع في تعامله مع جاندارلي . ألم يخطأ جاندارلي لاعتباره السلطان « طفلاً » حتى هذه اللحظة ؟

اهتم محمد الثاني بصلاة جنازة والده شخصياً . لم يرغب بحصول أي خلل في هذا الموضوع . أصدر الأوامر وتابع نتيجة الأوامر التي أصدرها بعناية . أقيمت صلاة جنازة السلطان مراد الذي وافته المنية عن عمر ناهز السابعة والأربعين عاماً من قبل حشد ضخم لم يرى مثله من قبل . وعند سؤال شيخ الإسلام الذي أقام صلاة الجنازة الحضور « كيف كانت معرفتكم بالمرحوم ؟ » تردد صدى الجواب في السماء : « كانت جيدة ! » . وعندما سألهم أيضاً : « هل تسامحونه ؟ » لم يكن الجواب أكثر من : « نعم ، نسامحه ! » ، بل وحفرها المشاركون بالصلاة داخل قلوبهم . لم تكن تلك مسامحة عادية . لأنها كشفت عن شعور الامتنان والرضى الذي شعروا به تجاه السلطان الذي عزز من وحدة الدولة وتخطى صعباً غير مسبوق من أجل وطنه .

كان السلطان الجديد مدركاً لحجم المسؤولية الكبيرة الملقاة على عاتقه عند مسامحة والده . لقد غفر له ما سبق ولكن هل سامحه والده أيضاً ؟ لقد كان والده راضياً عنه عندما كان على قيد الحياة .

لم يكن لديه أدنى شك في ذلك . ولكن هل سيكون السلطان مراد خان راضياً عن ابنه بينما يتابع حياته الأبدية ؟ كان محمد يعلم أن هناك سبيل واحد لضمان ذلك وهو : فتح القسطنطينية التي

حوصرت ٢٨ مرة بما في ذلك من قبل والده السلطان مراد ! عندها
ربما سيرضى عنه والده .

أكمل محمد الثاني صلاة الجنازة مفعماً بتلك المشاعر .

أُرسل جثمان السلطان مراد إلى بورصة مدينته المفضلة بقيادة
إسحق باشا . حيث دفن في التربة التي أعدت من قبل في مجمع
مرادية . وقد ترك القسم المطل على القبر في التربة مفتوحاً . مما
سمح لمياه المطر والثلوج ملامسة القبر . لأنه من المعروف أن
السلطان مراد أوصى بذلك قائلاً : « لتَهطل رحمة الله على قبري
مباشرة » . فقد كان خلقه المتواضع الذي يكره التظاهر وارتباطه
الوثيق بالعالم الآخر أحد الأسباب المهمة التي جعلت السلطان مراد
محبوباً كثيراً من قبل شعبه . بناء على ذلك كانت التربة التي أقيمت
من أجله عادية وبعيدة عن المظاهر مثلما أراد تماماً .

* * *

الأيام الأولى والإجراءات الأولى

لقي تولي محمد الثاني العرش صدى كبيراً في الداخل والخارج . في الوقت الذي كان فيه المؤيدون للحرب سعداء بموقفه العدواني والجريء ، كان البقية قلقون منه . فكان هؤلاء يبحثون عن سبل للتأثير على السلطان . ولكنهم سيدركون قريباً أنه لن يعير أي اهتمام بمثل هذه الاقتراحات . وأصبح أولئك الذين اعتبروا السلطان « فتى أمه » أو « طفلاً » فيما مضى ، يشيدون الآن بفضائل السلطان . إذ كان بوسع هذا السلطان في ربيع شبابه أن يفتح آفاقاً جديدة لهم . وسيوسع حدود الدولة أو ربما قد يجعل القسطنطينية جزءاً من الإمبراطورية العثمانية .

كانت أولى الأعمال التي قام بها السلطان هي منح الوزارة إلى معلمه زاغنوس باشا . ثم سلم مسؤولية طوب خانة (مخزن المدافع) إلى ساروجة بك ومصلح الدين باشا . في حين جلب برهان الدين آغا إلى آغاوية التشريفات . وبذلك لم يبق ولاء هذا الرجل الذي كان بجانبه منذ طفولته ، والذي كان يحميه من شتى أنواع المخاطر ، للسلطان دون مقابل . ومن الآن فصاعداً سيكون

أقرب الناس إلى السلطان وأمين سره نوعاً ما . كما كانت مهمته أيضاً إدخال الأشخاص الراغبين في مقابلة السلطان ، ونقل أوامر السلطان إلى الأشخاص المعنيين بالأمر .

لم يكن جاندارلي راضياً عن ذلك . ما الذي يحصل ؟

لو أن كل أمير عين معلمه وزيراً لخرجت الأمور عن السيطرة . علاوة على ذلك ، كان زاغنوس باشا معروفاً بكونه من مؤيدي الحرب . وماذا عن رؤوساء سبابة المدافع ؟ كانت الترسانة تعمل بشكل طبيعي . ولكن من يعلم ما قد يحضره هؤلاء الرؤوس العجود من مؤامرات لرأس الدولة ؟ وماذا عن أمين سر السلطان ؟ كان برهان الدين آغا قد ذهب إلى آماسيا مع الأمير مصطفى عائلته معه بأمر من السلطان مراد . هل يمكن أن يتخلى هذا الرجل ، الذي ينفذ جميع ما يطلبه الأمير ، عن السلطان ويساعد جاندارلي ؟ شعر الصدر الأعظم وكأنه محاصر من جميع الأطراف . يبدو أنه أصبح من الصعب بل من المستحيل عليه التحكم بالسلطان كيفما يشاء .

كان جاندارلي يفكر بجميع تلك الأمور دون الإفصاح عنها . كان مستمتعاً بعدم إقالاته من عمله في الوقت الحالي . كان واثقاً أنه سيتمكن من إستمالة السلطان إلى جانبه في يوم من الأيام .

* * *

عَدَّ العالم المسيحي كون السلطان شاباً فرصةً لهم . في الواقع ، لقد أصبح هذا « الطفل » سلطاناً من قبل ولكنه لم يستطع إثبات وجوده بأي شكل من الأشكال . لم يكن هو الذي هزم الجيش الذي أعدوه بل والده . أما الآن فإنه لن يساعده أحد لا والده ولا الصدر الأعظم . كانوا واثقين بأن حليفهم جاندارلي خليل باشا سيدفع السلطان الشاب إلى تنفيذ كل ما يريده . كما كان هناك ورقة رابحة أخرى لدى المسيحيين هي : الأمير أورهان شلبي . كان الأمير أورهان شلبي حفيد الأمير سليمان شلبي ، الأخ الأكبر للسلطان العثماني الخامس محمد الأول . حيث طارده السلطنة التي لم يستطع جده الحصول عليها ، ولجأ إلى بيزنطة حينما فشلت التمردات التي قام بها .

استغلت الإمبراطورية البيزنطية جيداً هذه الفرصة ، فأرسلته إلى الأناضول وبدأت بجمع الخراج من العثمانيين مهددة إياهم بالعصيان ضدهم . وبجميع الأحوال قام وفد السفراء الذي أرسلوه بالتطاول والوقاحة نفسها مع الأمير الشاب . دفع محمد الثاني إلى البيزنطيين المال الذي طلبوه دون اعتراض .

عَدَّ قسم كبير من الوزراء والمعلمين تجاهل السلطان لتصرفات السفراء الوقحة دليلاً على قلة خبرته . لأنه بفعلته هذه أهان سمعة الدولة . مما يعني عدم قدرته على مجابهة البيزنطيين . لذلك كانت

شعلة الفتح ، التي ظنوا أنها ملتهبة في داخله ، مجرد دخان .

كما فاجيء السلطان المودع للسفراء ، الوزراء والمعلمين مرة أخرى . وقال :

- أرى أنكم عجزتم عن إخفاء مشاعركم . لا تعلمون متى وكيف التصرف . وحده المعلم آق شمس الدين استطاع إخفاء مشاعره . أما البقية ، فكانوا على وشك أن يضربوا السفراء . ما الذي خسرناه عندما دفعنا لهم المال الذي طلبوه ؟ لا شيء على الإطلاق ! ما الذي ربحناه ؟ ربحنا الكثير ! دعوا البيزنطيين يستهينوا بنا ، أما أنتم فلا !

قوبل الانتصار الباهر للسفراء بحماس كبير في بيزنطة . كانت هذه الفرصة فرصتهم . لذلك ينبغي عليهم إعداد جيش صليبي جديد على الفور ، ويتقدموا نحو الأراضي التي دخلها العثمانيون وإلى آسيا الوسطى أيضاً قبل أن يتمكن السلطان المبتدىء من الحكم .

لم يكن البيزنطيون وحدهم من استبشر بانعدام خبرة السلطان ، بل انتهبز بني كرمان في الأناضول ، فرصة كون السلطان شاباً . كان هدفهم هو إحياء إماراتهم من جديد . ولهذا السبب ، تمردوا واستولوا على سيدي شهير وآق شهير . ولكنهم لم يعلموا أي سلطان يواجهونه .

في صيف عام ١٤٥١ ، قمع محمد الثاني العابر إلى الأناضول التمرد بسرعة البرق . حيث دخل بني كرمان تحت مظلة الدولة العثمانية من جديد .

أقلق هذا الخبر الإمبراطورية البيزنطية بينما كانت تبني أحلامها الوردية . لقد فعل السلطان الشاب شيئاً غير متوقع على الإطلاق . إذ تمكن بكل شجاعة من البدء ببناء قلعة على جهة روملي ، وإن كان ذلك ضمن الأراضي العثمانية ! لأن بناء قلعة في هذا المكان يعني الدخول إلى قلب القسطنطينية . لا بد أن السلطان الشاب كان يحلم ! لأنها محاولة للقيام بشيء فشل والده في تحقيقه نعم ، كان هذا محض هراء . يمكننا القول أن السلطان كان شاباً ومتهوراً . ولكن ما الذي حصل لجاندارلي لماذا لم يمنع هذا الطفل من فعل ذلك ؟ أي أن السلطان ليس مجرد طفل بل كان أحمقاً نوعاً ما ، أحمق بحيث لن يدرك مدى الخطر الكبير الذي تتعرض له الإمبراطورية العثمانية

فكر الإمبراطور البيزنطي قسطنطين بضرورة التدخل في الأمر . أرسل وفد السفراء السابق مرة أخرى إلى السلطان . كان واثقاً أن السلطان محمد سيوقف بناء القلعة في الحال عندما يتحدث مع السفراء .

دخل السفراء إليه . وأظهروا احترامهم إلى السلطان كما هو معتاد . ثم قدموا له الهدايا التي جلبوها . غير أن محمد الثاني لم يكثر بالهدايا تحت نظرات السفراء المليئة بالدهشة . فقد اختفى السلطان الذي وجوده مهذباً للغاية في اللقاءات السابقة وحل مكانه سلطان فظ . كانت نظراته إليهم قد أصابتهم بالاضطراب . وكأن نظرات السلطان الشاب التي تشبه نظرات النسر تقول لهم : « أعلم نواياكم الحقيقية » . ثم قدم رئيس الوفد رسالة الإمبراطور إلى السلطان . أمسك محمد الثاني الرسالة بطرف يده ، وقرأها بطرف عينيه . تمددت الخطوط على وجهه بالفعل وتقطبت حواجبه السوداء . وقال :

- إذن إمبراطوركم يطلب منا التوقف عن بناء القلعة في روملي....

- نعم يا حضرة السلطان .

- يتحدث أسلافنا عن إقامتنا علاقة وثيقة معكم منذ مئة عام تقريباً .

- نعم يا حضرة السلطان .

- يقول جدي أنه حصل على إذن من الإمبراطور أنذاك قبل تشييد قلعة الأناضول .

- نعم يا حضرة السلطان .

- ولكن يعتقد أنني أريد منع الفرنجة من العبور إلى البحر الأسود
في وقت نحن على وفاق جيد .

- نعم يا حضرة السلطان .

- كما يقال أن عملي هذا يمثل تهديداً صريحاً للقسطنطينية .

- نعم يا حضرة السلطان .

- باختصار ، يريد مني التوقف عن بناء القلعة من أجل الحفاظ
على صداقتنا مثلما كانت سابقاً .

- نعم يا حضرة السلطان .

- كلا الأمر ليس هكذا يا حضرة السفراء !

فاجيء تصعيد السلطان السفراء وجميع الموجودين في قاعة
الاستقبال من وزرائه ومعلميه . بينما كان جاندارلي يفكر بينه وبين
نفسه قائلاً : « سيقحمنا هذا الطفل في كثير من المتاعب » ، تالأأت
عينا شهاب الدين باشا وزاغنوس باشا . ينبغي أن يكون كلام
السلطان هكذا دائماً .

حاول المتحدث باسم السفراء الكلام متلعثماً :

- ماذا تقصد يا حضرة السلطان ؟

- أنتم إناس أذكاء لا بد أنكم فهتمم ما أقصده .

- نود أن نسمع ذلك منك مرة أخرى .

- انصتوا إذن . وإلا لن أكرر كلامي مرة أخرى ، استمعوا

لذلك :

تحالف إمبراطوركم مع المجريين ومنع والدي من العبور إلى روملي . واضطر والدي إلى طلب المساعدة من الجنوبيين عندما استولت سفنكم على البوسفور . ولهذا أقسم على بناء قلعة على ضفة الروملي . للأسف ، لم يسعه عمره لكي يفعل ذلك . ولهذا السبب أنفذ قسمه هذا . وأشيد هذه القلعة من أجل سلامة بلادي في الدرجة الأولى . ثم إن هذه الأراضي هي ملكي ، فما شأنكم أنتم ؟ قال السلطان الشاب جملته الأخيرة هذه بنبرة جعلت قلوب السفراء ترتفع إلى حناجرهم من شدة الخوف : هل يمكن لهذا الطفل المجنون أن يأسرهم ، أو يعرضهم للتعذيب أو... لم يرغبوا بالتفكير بالأمر أكثر من ذلك .

لفت حال السفراء هذا انتباه السلطان . فقال لهم :

- لا تخافوا ، لدى السفراء حصانة عندنا .

تنفس السفراء الصعداء . قال السلطان حينها :

- ولكن إن أزعجتمونا بهذه المسألة مرة أخرى ، أود أن تعلموا

حينها أن القواعد يمكن أن تتغير في أية لحظة .

كان السلطان محقاً . قال المتحدث باسم الوفد في محاولة
أخيرة :

- أود أن أذكركم أيضاً أن هناك فوائد لا تعد ولا تحصى إذا قبلتم
عرض الإمبراطور الودي .

قال محمد الثاني بغضب :

- اذهبوا إذن إلى سيدكم وقولوا له ، إن هذا السلطان الشاب
سيكون بإذن الله بطلاً لا مثيل في الشجاعة والعزيمة . ولن يحلم
إمبراطوركم بالوصول إلى مثل قوتي ! آن الأوان لكي تتقبلوا هذه
الحقيقة . ستصبح القسطنطينية لنا ! إذا كنتم لا ترغبون بسفك الدماء
فسلموا المدينة في أسرع وقت ممكن أو استعدوا للحرب !

جعلت الجملتان الأخيرتان السفراء والوزراء العثمانيين كذلك
يتسمرون في مكانهم .

نهض السلطان من مكانه عند انتهائه من الكلام . مما يعني أنه
بوسع السفراء الإنصراف الآن . خرج السفراء من هناك مطأطي
الرؤوس ، وأكتافهم منحنية . عم الصمت أرجاء قاعة الاستقبال مع
خروج السفراء .

قال جاندارلي بصوت منخفض :

- كان عليك التعامل مع السفراء بلباقة أكثر .

- نعلم كيف ومع من نتصرف أيها الباشا .

ندم الباشا أشد الندم على كلامه عند تلقيه هذا الجواب . وفكر في نفسه قائلاً إن هذا الطفل ليس مجنوناً فحسب بل فقد عقله تماماً .

مع ذلك لقد أنفق جاندارلي مبلغاً هاماً من خزينته الخاصة على بناء قلعة روملي وفقاً لتقاليد تلك الحقبة . وفي المقابل سمي البرج الكبير الواقع في وسط القلعة وعلى شاطئ البحر بـ « برج جاندارلي خليل باشا » . في حين سمي البرج الواقع على جهة القسطنطينية بـ « برج زاغنوس باشا » والبرج الواقع من جهة البحر الأسود بـ « برج ساروجة باشا » لمساهمتهم في البناء أيضاً .

وخلال مدة قصيرة امتدت قرابة ١٣٩ يوماً تم بناء قلعة روملي . عمل على بنائها ٣٠٠ مهندس ، و ٨٠٠ عامل و ١٠٠ سائق عربية ومجدف . كان يعملون ليل نهار . بلغ محيط القلعة ٢٥٠ متر ، وعرضها ١٢٠ متر ، وارتفاعها ٢٨ متراً . تتألف القلعة من ٨٧ طوابق . في داخلها حجرات خاصة للحراس . وعند النظر إلى القلعة من الجهة المقابلة ومن بعيد ، تذكر الكتابة العربية بكلمة « محمد » اسم النبي صلى الله عليه وسلم واسم السلطان الشاب أيضاً .

عند انتهاء عملية البناء ، صلى السلطان ركعتي صلاة شكر على التلة الواقع بجانب القلعة تماماً . ودعيت هذه التلة باسم « تلة الدعاء » إكراماً لهذا الحدث . أما التلة الواقعة على الجانب الآخر من القلعة فقد دعيت بـ « تلة الشهداء » ؛ بسبب دفن الجنود الذين استشهدوا في الهجمات التي شنها البيزنطيون أثناء عملية البناء .

سلم السلطان قيادة القلعة إلى فيروز آغا . وأعطاه بناء على طلبه ٤٠٠ جندي وعدد كاف من المدافع . كما أعطى تفويضاً إلى قائد القلعة . وبذلك أصبح لدى فيروز آغا الصلاحية الكاملة لإيقاف جميع السفن الأجنبية الراغبة في عبور مضيق البوسفور . كان بوسع السفن الأجنبية عبور المضيق عند قيامهم بتحية العلم ودفع مقدار محدد من المال . ويكونوا على أتم الاستعداد للخضوع إلى التفتيش من قبل الدولة العثمانية . وسيتم إغراق السفن التي لن تلتزم بالقوانين على الفور .

لم تكن الأوامر التي أعطاها السلطان لفيروز آغا شكلية . حيث غاصت سفينتان من البندقية في عمق البحر لم تلتزما بهذه القوانين ، بفعل القذائف المرمية من المدفعية المتمركزة فوق القلعة . ومن بعدها لم تجرأ أية سفينة أجنبية على مخالفة القوانين .

ازدادت شهرة السلطان محمد مع مرور الوقت . وجرى الحديث

عن مدى جرأته ورؤيته الواسعة رغم صغر سنه ، حتى داخل
الأوساط البيزنطية . بدأ ذلك الأمر يزرع الخوف في قلوب كبار
رجال البيزنطة . كان واضحاً كالشمس ما الهدف من وراء بناء
السلطان هذه القلعة . وهو الاستيلاء على القسطنطينية . وهو أمر لم
يكن يخفيه . ومن الواضح أن السلطان الشاب سيبدل قصارى جهده
من أجل تحقيق ذلك .

* * *

أوربان مهندس المدفعية

بلغت شهرة السلطان إلى أوربان مهندس المدفعية العامل تحت إمرة الإمبراطورية البيزنطية . فكر بالخدمات التي قدمها ، أو بالأحرى الخدمات الذي يحاول تقديمها لبيزنطة . كان بوسعه سبابة مدافع أكبر لو أتيحت له الفرصة ولكن لم يسمح له البيزنطيون بذلك . كان هؤلاء مشغولون في الإيقاع ببعضهم البعض ، مثل مرجل سحر يغلي . كما تقدمت الصراعات الطائفية على مصالح الإمبراطورية . فضلاً عن فشلهم في جمع الرواتب المستحقة . اتخذ المهندس أوربان قراره بعد قيامه بهذه المحاسبة القصيرة بينه وبين نفسه . وسيتخلى عن البيزنطيين والعمل وسيدخل تحت إمرة السلطان محمد . كان واثقاً أن هذا السلطان الشاب يتمتع بأفق أوسع من الإمبراطور البيزنطي .

لم يكن من الصعب على أوربان الاقتراب من قلعة روملي . لكنه اضطر إلى بذل جهد هائل حتى تمكن من شرح مشكلته إلى الحراس ومقابلة السلطان أخيراً . إذ من الممكن أن تعود براعة هذا المهندس في المدفعية بالفائدة على السلطان . ولهذا السبب أدخل الحراس

أوربان إلى عند السلطان بعد التحقيق معه جيداً .

حذق السلطان محمد النظر في المهندس . كان في منتصف العمر . يبدو عليه أنه شخص خبير . انتابه الخوف للحظة عندما تلاقى عيناه بعيني السلطان الشبيهة بعيني النسر . قال محمد الثاني :

- اقترِب ؛ اقترِب وُمَدِّ يدك .

تفاجيء المهندس . ماذا سيفعل بيده ؟ لم يكن يتوقع أن يصافحه السلطان بنفسه . فقد شرح له بالتفصيل كيفية التصرف في الحاضرة . لم يكن من بينها مصافحة السلطان . لقد ذكر فقط الانحناء وتقبيل ذيل رداء السلطان . بينما كان حاله هكذا طلب السلطان منه الاقتراب وُمَدِّ يده .

فعل كما أمر . أمسك السلطان يد أوربان براحة يده وتفحصها بلطف .

- تدل هاتان اليدان أنك مهندس مدافع .

- أنا مهندس مدافع يا سلطاني بل ومن أفضلهم أيضاً . . .

- سنعرف ذلك لاحقاً . أخبرنا الآن ما الذي تريده منا ؟

- أريد العمل تحت أمرتكم .

- كيف نتأكد أنك لن تتخلى عنا يوماً ما كما تخليت عن بيزنطة ؟

- الحقيقة أن بيزنطة هي من تخلت عني .
- لماذا ستتخلي هذه الإمبراطورية العظيمة عنك ؟
- كان ذلك فيما مضى يا سلطاني . أما حال بيزنطة الآن ، فقد تحول أساسها إلى جدار بالٍ ؛ بينما تبدو قواعدهم متينة .
- سأقبل جملتك تلك مزيلاً كلمة « تبدو » .
- لا أجاملكم يا سلطاني ، إنما أقول الحقيقة .
- على أي حال . . . أكمل كلامك .
- كما لم أتقاضى أجري أيضاً . . .
- هل كنت تعمل دون أجر ؟
- وأحياناً كنت أبقى جائعاً .
- هذا يعني أن بيزنطة على حافة الانهيار . . .
- نعم يا سيدي ، يوجد أماننا دولة في حالة يرثى لها .
- ولكن أسوارها متينة جداً . . .
- إن الإمبراطور يعتمد كثيراً على الأسوار في مواجهتكم ولكنني متأكد أنكم ستجدون حلاً لذلك .
- أصدر السلطان أوامره إلى من حوله قائلاً :
- من الآن فصاعداً سيعمل المهندس أوربان عندنا . وأسلمه

ليكون تحت إمرة مهندس المدفعية ساروجة بك . كما سيدفع له
الأجر الذي يريده دون أي نقص . . .

لم يكن هناك ما يقال عن سعادة المعلم أوربان . خرج من عند
السلطان مقبلاً ردائه . وانضم إلى مهندسي المدفعية العثمانيين .

* * *

أعطني قلب بيزنطة أيها الباشا !

كرس السلطان محمد نفسه جسداً وروحاً لفكرة الفتح . لم يكن قلبه راضياً أن تفلس هذه المدينة ، التي هي جوهرة العالم ، في أيدي البيزنطيين . كان لا بد من إعادة إعمار المدينة التي دمرها اللاتين فيما مضى . وأن يرتفع صوت الآذان من آيا صوفيا بدلاً عن أصوات الأجراس . وأن تعود أفئدتها المتحجرة إلى حدائق الحب في الإسلام ؛ وأن يدخل الشعب الذي تعرض للظلم تحت مظلة العدالة الإسلامية . جيد ولكن كيف سيتحقق هذا ؟ لماذا فشلت جميع الحصارات السابقة في فتح المدينة ؟ كانت جميع هذه المسائل جدية . لأنه من الواضح أن هذا الأمر لن يحدث عبر إلقاء الخطابات البطولية فحسب . كما لن يكون عزف فرقة المهتار أجمل أناشيدها ، وتقدم الجنود وهم يصيحون « الله ، الله ! » كافياً . نعم ، كان هذا ضرورياً ولكن لا بد من القيام بأمر آخرى أولاً . ولهذا السبب تم بناء روملي حصار . وهذا ما جعل البيزنطيين يصابون بحالة من الذعر . وهو خوف دفع جاندارلي خليل باشا إلى محاولة كبح جماح السلطان .

توقف السلطان للحظة عندما تذكر موقف جاندارلي خليل باشا .
خطرت له فكرة رائعة . أو بالأحرى اعتقد أن الوقت المناسب قد
حان لانتهاز الفرصة التي يترقبها منذ زمن طويل . وبصرف النظر عن
التدابير المادية للفتح ، كان لا بد من اتخاذ تدابير معنوية واكتساب
مزيد من القلوب . ماذا سيحدث ، لو قدم رجل دولة ذو خبرة عالية
مثل جاندارلي دعمه له ؟

نعم ، صحيح أن السلطان كان يصدر القرارات في النهاية ولكن
كان جاندارلي يملك نفوذاً لا يستهان به . كما لا يمكن التقليل من
شأن تأثيره على الجنود أيضاً . لذلك لا بد من إقناع جاندارلي بفكرة
الحرب مهما كان الثمن .

واصل السلطان محمد العمل على الخريطة التي فرشها على
مكتبه حتى منتصف الليل . كانت تلك خريطة القسطنطينية . وقد
وضع السلطان إشارة على كل زاوية من زوايا الخريطة . فكر في كل
شيء ، ابتداءً من المكان الذي سينصب فيه خيمته حتى أي قائد
عسكري وأي جهة سيهاجم منها ، ثم أشار إليها جميعها على
الخريطة . كان يعلم أن جميع هذه الأمور لن تكفي . بل ينبغي عليه
إقناع جاندارلي أولاً قبل فتح القسطنطينية . ولم يكن بوسعه الانتظار
أكثر . مضى وقت طويل على حلول منتصف الليل . فليكن ذلك .
صاح بنبرة صوت منخفضة :

- يا برهان الدين آغا !

حضر آغا التشريفات إلى عنده على الفور .

- أريد مقابلة جاندارلي باشا .

سأل برهان الدين آغا في لحظة اندهاش :

- في هذا الوقت ؟ تغيرت نبرة السلطان عندما سمع قوله هذا .

- لا أهمية للوقت عندنا ، وينبغي أن تطبق هذه القاعدة على

جميع خدمنا !

- سامحني يا سلطاني . قال برهان الدين آغا ذلك وأرسل على

الفور اثنين من حراسه إلى منزل جاندارلي . لم يغفل عن إخبار

الحراس مدى جدية هذه المهمة .

وصل الحراس على الفور إلى منزل الباشا غير البعيد بجميع

الأحوال . أخبروا الحراس الموجودين في الخارج عن الحاجة

لمقابلة الباشا . دخل أحد الحراس على عجلة إلى الداخل ، ونادى

آغا الحريم . سأل آغا الحريم بعيون يملأها النعاس :

- لماذا ستقابلون الباشا ؟

- ألا تعلم أيها الآغا ، إننا حراس السلطان . ننقل الأوامر التي

نتلقاها إلى صاحبها فقط .

- لا بد أن تكبركم قد أنساكم القواعد . ما الذي تفعلانه هنا

داخل المنزل في هذا الوقت من الليل ؟ أخبراني بما ستقولانه وأنا سأنقله إلى الباشا .

كان آغا الحريم محقاً . أُخِذَ الحراس على حين غفلة من أمرهم . قال الأكبر سنّاً بينهم :

- يريد سيدنا السلطان حضور الباشا !

- في هذا الوقت ؟

- ليس لدي أدنى فكرة عن ذلك . لقد أمرنا فقط بالمجيء إليكم ودعوة الباشا للحضور .

أدرك آغا الحريم خطورة الموضوع فقال لهم :

- حسناً إذن ، انتظروا هنا ، سأذهب وأخبر الباشا بذلك .

ارتجف جاندارلي خليل الذي أيقظه آغا الحريم من نومه على عجلة ، من هذه الدعوة التي تلقاها . لم تكن دعوة السلاطين لوزرائهم في مثل هذا الوقت فال خير . لا بد أن هناك أمراً ما مريباً وراء ذلك . من الممكن أن تكون نهاية هذه الدعوة الموت . شحب لون وجه الباشا كلما فكر بموقفه المعارض للسلطان . لم يستطع التحكم بدقات قلبه المتسارعة . ولكن ليس باليد حيلة . لأن الأمر صدر عن السلطان . وعدم الإنصياع له يعني الموت . ولكن ماذا إن انصاع له ؟ هذا ما لم يستطع التكهّن به .

فتح جاندارلي خزينة مجوهراته على عجالة . وملاً أحد الأطباق الذهبية الموجودة في الداخل بأعلى مجوهراته ثمناً . وبذلك يكون قد أعد « الشرفية » وهي ما يحضره الوزراء عندما يدعوهم السلطان في منتصف الليل . ثم ودع زوجته وأولاده . كانت عينا زوجته تفيض بالدموع مثل ينبوع ماء .

أراد جاندارلي قمع مشاعر حزنه بغضب :

- اصمتي يا امرأة ، ألا تعلمين أن حياة الوزراء بين شفتي السلطان . توقفي عن البكاء وأدع لي أن أعود سالماً .

جاء جاندارلي إلى عند برهان الدين آغا حاملاً في يده الشرفية للمثول أمام السلطان . كان عليه تخطي هذه العقبة أولاً . حيث جعل آغا التشريفات جاندارلي ينتظر قليلاً . ثم قال مدخلاً إياه إلى عند السلطان :

- لقد حضر جاندارلي خليل باشا .

- لن نرغم الباشا على الانتظار طويلاً في هذا الوقت .

لاحظ برهان الدين آغا على الفور تركيز السلطان على كلمة « الوقت » كثيراً في كلامه . على ما يبدو ، لم ينسى السلطان الخطأ الذي ارتكبه قبل قليل .

- تفضل يا حضرة الباشا إن السلطان بانتظاركم . قال ذلك وفتح

الباب .

بدأ جاندارلي الداخل إلى عند السلطان الانتظار بعيداً . كانت شفتيه تتحركان باستمرار . من الواضح أنه كان يدعو الله .

- لقد أمرت خادمك بالقدوم يا سلطاني ، قال ذلك بصوت مرتجف .

رفع السلطان رأسه عن الخريطة عندما سمع ارتجاف صوت الباشا . نظر فرأى الوزير العظيم يرتجف فقال له :
- أعتذر عن إزعاجك في هذا الوقت ولكن . .

لم يصدق الباشا ما سمعته أذنيه . ذلك يعني أنه لا داع للخوف . عندها تنفس الصعداء .

- ولكن هناك موضوع ضروري أود التحدث به معك فاقترب إلى هنا .

- أمرك يا سلطاني . ولكن اسمح لي أولاً بتقديم الشرفية لك .
- لماذا هذه الشرفية أيها الباشا ؟

- يقدمها عادة الخدم الذين يتم استدعائهم في مثل هذا الوقت إلى سلاطينهم . وبجميع الأحوال هي ليست لي . بل جُمعت من خلال الإمكانيات التي منحنتني إياها الدولة .

سأضع رأسي فوقها أيضاً . إن أردت خذها ، أو أتركها . سأكون جباناً وخسيساً إذا تحركت شعرة من شعري .

- اسمعني أيها الباشا... لا حاجة لي بذهبك ولا رأسك . كما سأعطيك ما هو أكثر منها . ولكن أريد شيئاً واحداً منك : اعطني القسطنطينية ! لا شيء آخر بوسعه إخماد النار التي بداخلي ! ألا ترى كيف لا أستطيع النوم !

ارتاح جاندارلي خليل باشا كثيراً . لا يفكر السلطان بأمر سيئة تجاهه . كان يعرض عليه التعاون فقط .

بدأ كلامه بـ « يا سلطاني » ثم تابع رويداً رويداً :

.. على كل حال إنك تمتلك جزءاً كبيراً من الإمبراطورية البيزنطية ، بإذن الله تعالى . وأنا واثق أن القسطنطينية لن تفلت من قبضتك . وسوف أتنافس أنا وجميع خدمك مع بعضنا البعض من أجل تحقيق هذا الفتح . وسنفديه بأموالنا ودمائنا وأرواحنا وسنعمل في سبيل ذلك . لذلك اطمئن حيال هذا الأمر .

حقق السلطان هدفه . إذ لم يكن إقناع جاندارلي أمراً صعباً للغاية .

في حين اطمئن الصدر الأعظم الذي تبددت مخاوفه حينما لم يتحقق شيء منها . وعاد إلى منزله حاملاً معه الثقة التي منحه إياها إظهار السلطان وقوفه بجانبه . كما عاد سالماً .

* * *

ارفع رأسك يا إنكشاري

كان السلطان محمد يفكر بالفتح العظيم بكل ذرة من ذرات جسمه . ولهذا اتخذ جميع الاحتياطات اللازم اتخاذها . بدأ أولاً بتفقد الجيش . لأنه لا يوجد مجال للتساهل مع أي خلل في هذه المسألة . ومن الآن فصاعداً لن تكون حملات الجيش غير منظمة مثلما كانت عليه في السابق . وكل خطوة يخطوها سيتم اتخاذها ضمن خطة موضوعة مسبقاً ؛ بحيث لن يعلم أي قائد أو أي وزير إلى أين ستتجه الحملات . كان يقول لهم : « حتى لو علمت شعرة من شعر لحيتي بوجهة الحملة ، سأنتزعها وأرميها بعيداً » .

كان السلطان يولي اهتماماً خاصاً لوجود الإنكشارية داخل الجيش . لأن الإنكشارية في الواقع ، لن يشاركوا بشكل مباشر في الحرب . ولكنهم يتقدمون عندما يقع الجيش في مأزق صعب للغاية ، أو عندما يريدون إنزال ضربة قاضية بالعدو . كما كانت مهمتهم أيضاً قمع التمردات في الداخل وتفقد أحوال التجار . كان السلطان ، الذي يعتبر نفسه الإنكشاري الأول ، يثق جداً بهؤلاء الجنود المختارين . فقد كان يلتقي في كثير من الأحيان مع آغا الإنكشارية

الذي يلي الوزراء من حيث المكانة ، ويردد عليهم عبارات التقدير والتشجيع . كما كان سخياً فيما يتعلق بأجور الإنكشارية التي تدعى « بالعلوفة » .

في يوم من الأيام قال السلطان لبرهان الدين آغا :

- أود مقابلة آغا الإنكشارية .

حضر آغا الإنكشارية بعد مدة قصيرة .

تطرق السلطان إلى الموضوع مباشرة بالقول :

- أرغب برؤية التدريب الذي يتلقاه الإنكشارية على أرض الواقع ، لتتخذ الاستعدادات اللازمة .

أجاب آغا الإنكشارية :

- إن الإنكشارية على استعداد لمقابلتك في كل ثانية وكل لحظة يا سلطاني .

أمر السلطان الممتن من الإجابة التي تلقاها منه قائلاً :

- لنذهب إذن .

بعد ذلك بقليل ، وصلوا إلى الساحة المفتوحة التي يجري فيها تدريب الإنكشارية على السيف والترس .

شرع الإنكشارية المقسمين إلى مجموعتين في مبارزة بعضهم

البعض . كانت السيوف تصدر صوتاً مروعاً بشكل إيقاعي عند ملامسة بعضها البعض . وكان مشهد الدروع التي تصد هجمات المتبارين رائعاً .

لم يستطع السلطان سوى الشعور بالفخر وهو يشاهد الإنكشارية . وفي لحظة من اللحظات وضع نفسه في مكان الإنكشاري الشجاع الذي أعجب بالهجمات التي قام بها . وغاصت عيناه في أعماق الزمان وتخيل :

« كان هناك طفل لم يبلغ بعد الثامنة إلى التاسعة من العمر . ينتمي هذا الطفل إلى عائلة مسيحية تعيش ضمن الأراضي العثمانية . كانت عائلته متحمسة للغاية عندما علمت أن رجال السلطان سيأتون لجمع أطفال « الدفشمرة » . كانوا يرغبون أن يكون ابنهم من بين هؤلاء . وبذلك سينقذون حياتهم وحياة طفلهم . في نهاية المطاف تحققت آمالهم ، وفتح الله لهم باب رزق جميل .

أُخِذَ هو وبقية الأطفال من منازلهم ثم أحضروا إلى أحد المراكز . بعد ذلك سُلمَ الطفل إلى عائلة مسلمة لكي يعيش عندها . لم يكن صعباً عليه تقبل الدين الإسلامي الذي تلقنه بروح طفولية . ومكث عند هذه العائلة حتى بلوغه ١٤ إلى ١٥ من العمر .

والتحق بصفوف الإنكشارية متحلياً بصفات : الصدق ،

والإخلاص ، وحسن الضيافة ؛ والبسالة والجرأة التي نالها من عائلته . كان القائد الأوسط يتعامل معه كأب له . ويسعى للحصول على المعدات اللازمة لأتباعه من الإنكشارية .

وخلال مدة قصيرة تميز بين زملائه . فقد كان شجاعاً ، وجسوراً وجريئاً . والأهم من كل ذلك أن ولائه للدولة العثمانية لا يقاس مع أي شيء آخر . كان مستعداً للتضحية بحياته فداءاً للسلطان الذي لم يرى وجهه ، حتى كان يستحق رؤية الفرحة التي انتابته عند قبوله بين صفوف الإنكشارية .

لقد أصبح الآن جندياً بكل ما للكلمة من معنى .

لم يعلم هذا الجندي الشجاع بالطبع أن نظرات السلطان الشبيهة بنظرات النسر والذي لم يرى ملامح وجهه حتى تراقبه الآن . فقد كان ينفذ عمله بكل دقة ، ويسقط خصمه أرضاً في كل مرة . ولأن ما يقومون به مجرد تدريب فقط لم ينزل به الضربة القاضية . وإن كان تدريباً فقد أنقذ الإنكشاري الذي يبارزه مرات عديدة من الموت .

استفاق السلطان من العالم الذي استغرق فيه . وأمر بإحضار الإنكشاري الذي كان يراقبه بإعجاب قبل قليل .

أوقف آغا الإنكشارية التدريب بإشارة منه . نفذ القائد الأوسط

الأمر الذي تلقاه من الآغا على الفور .

بعد ذلك بقليل ، حضر الإنكشاري الشجاع إلى عند السلطان .
انحنى على ركبته ونظر إلى الأرض . وكان يتصبب عرقاً . لأن
وجوده أمام السلطان كان مجرد حلم بالنسبة إليه . ولكنه أصبح الآن
حقيقةً . تسارعت أنفاسه من شدة الحماس .

قال السلطان :

- انهض يا بطلي الشجاع .

لقد دعاه السلطان العثماني بـ « بطلي الشجاع » .

كاد أن يغمى عليه . وقف على قدميه بصعوبة ، وانتظر وقد
شبك يديه أمامه . قال السلطان :

- تعال يا أسدي ، اقترب !

اقترب الإنكشاري ، وقبل رداء السلطان كما تم تعليمه سابقاً ثم
تراجع خطوة إلى الوراء ، وبقي ينتظر على نفس الوضعية . كان
رأسه ما يزال منخفضاً .

- ارفع رأسك يا إنكشاري ؛ ارفع ؛ يجب أن تكون شامخ الرأس
دائماً... .

رفع الإنكشاري رأسه .

- انظر إلى عيني أيها الإنكشاري... .

التقت عينا الإنكشاري مع عيني السلطان السوداوتين . وفي نفس اللحظة أوقدت الشرارة بين الاثنين .

- كنت أراقبك منذ قليل . حتى أنني تخيلت نفسي مكانك للحظة . ليس هناك ما يقال عن خفة حركتك ، وشجاعتك واستخدامك للسيف ، ما شاء الله .

وتساءلت . ما اسمك يا ترى ؟

تحدث الإنكشاري بصعوبة قائلاً :

- خادمك حسن يا سلطاني .

- لقد أعجبني اسمك يا حسن . من أين أنت ؟

- إنني من أولوبات أيها السلطان .

- عاشت شجاعتك ألف مرة يا حسن الأولوباتي .

قال حسن الأولوباتي جملةً جعلت السلطان وجميع المحيطين به يشعرون بالفخر :

- أود أن أعيش ألف مرة حتى أموت ألف مرة فداء لدولتنا ووطننا ! وإلا ما الحاجة إلى العيش ؟

- أحسنت يا حسن ، أحسنت .

أمر السلطان آغا الإنكشارية قائلاً :

- اعتنوا بالأولوباتي . ولتحصل عائلته على مساعدات إضافية .
- سمعاً وطاعة يا سلطاني .
- هناك أمر آخر . . .
- أمرك يا سلطاني . . .
- ضعوا صديقنا بيرم إلى جانب حسن الأولوباتي . إن بيرم ليس
إنكشارياً ولكنه ليس أعلى شأناً منهم .
- تلقى بيرم الأمر على الفور .
- وهذه كانت بداية الصداقة الحميمة بين الشابين العزيزين على
السلطان .

* * *

شجار الرعاة

ألقى مديح السلطان مسؤولية كبيرة على عاتق الأولوباتي . فقد اضطر الآن إلى الانتباه أكثر إلى جميع تصرفاته ومواقفه . كان يبذل جهداً أكبر من جميع الموجودين في التدريبات ، وينفذ المهام الموكلة إليه في الحال ويحذاقها .

بعد انتهاء التدريب ، استدعى آغا الإنكشارية حسن الأولوباتي إليه .

- وفقاً للمعلومات التي وصلتنا ، لقد اندلع شجار بين بعض من جنودنا والرعاة البيزنطيين . وهناك قتلى من ضمنهم . ولذلك أكلفك بمهمة التحقيق في هذه الحادثة . يمكنك اصطحاب من شئت من أصدقائك . كما أريدك أن تكشف السبب الحقيقي وراء هذه الحادثة . وافعل ما هو ضروري بشأن المسؤولين عن ذلك .

- سمعاً وطاعة . قال الأولوباتي ذلك وانطلق فوراً .

اصطحب معه ثلاثة من الإنكشارية . وتوجهوا معاً إلى القرية الرومية التي وقعت فيها الحادثة . بدأ المختار عند رؤيتهم الكلام بأسلوب جرح :

- ما الذي فعلناه لكم الآن ؟ بالأمس قتلتم اثنين من رعاتنا . ألن
ننعم بالراحة في قريتنا هذه ؟

تذكر حسن الأولوباتي ما قاله المختار . مهما كان السبب ، فقد
قتل اثنين من الرعاة .

علاوة على ذلك فقد أحاط القرويين الذين سمعوا بوصول
الإنكشارية أطراف القرية برفقة أقارب الرعاة المتوفين . وكان
البعض منهم يحمل في يده معول ، ومجرفة ، وفأس وغيرها من
الأدوات . من الواضح أن قدومهم ليس ودياً .

أمسك الأولوباتي بقبضة سيفه . وفعل أصدقائه الثلاثة الأمر
نفسه . أغضب هذا التصرف أهالي القرية . كانوا يعلمون جيداً أن
الإنكشارية مقاتلين بارعين .

تقدم الأولوباتي خطوة إلى الأمام وقال :

- لقد جئنا للتحقيق في الحادثة . وغايتنا ليست القتال معكم .
أخبرونا إذن كيف جرت الحادثة ؟

تقدم أحد القرويين يبدو من ملابسه أنه راعي وقال :

- لقد كنت هناك عند حدوث ذلك . كنا أربعة أو خمسة من
الرعاة نستريح قليلاً في الظل بينما يرعى قطيعنا لوحده . أفضنا في
الكلام . ولم ندرك كيف مرَّ الوقت . ثم نظرنا فجأة فرأينا قرويين

أترك برفقة جنود يقفون أمامنا . تبين أن مواشينا قد دخلت أراضي الأتراك . ولكن هذا حيوان كيف له أن يعلم أين دخل ؟ حاول الجنود أولاً التحقيق في الحادثة . ولكن لم يكن من السهل كبح غضب القرويين . أدركنا حينها أن حياتنا في خطر ، فأخرجنا خناجرنا ، وحاولنا حماية أنفسنا .

قال الأولوباتي :

- من الواضح أنك استطعت حماية نفسك جيداً... ها أنت تقف هنا سالماً معافى .

- ليس هذا السبب وراء ذلك ولكنني رأيت أن خنجري لن يفني بالغرض فرفعت يداي واستسلمت . ولهذا السبب لم يقتربوا مني .

- وماذا فعل البقية ؟

- واصل هؤلاء الشجار مع القادمين . حيث قُتِلَ أحد الجنود الذي علق بيننا وبين القرويين . ولهذا السبب ، قتل الجنود الآخرين اثنين من الرعاة على الفور . وأخيراً ، طلب القائد العسكري أن يفترق الجميع . أتيت إلى القرية راکضاً وأخبرت بالحادثة . ذهبنا وأحضرنا قتلانا . كما أحضر الأتراك الجندي المقتول إلى قريتهم . هذا ما حدث....

التفت الأولوباتي إلى المختار وقال :

- هل ما يقوله هذا الراعي صحيح ؟

صرخ القرويين - وليس المختار فحسب - صرخة رجل واحد
قائلين :

- كلامه صحيح .

فسر الأولوباتي للقرويين السبب وراء هذه الحادثة ، وهو عدم
سيطرة الرعاة على مواشيهم . مع ذلك لم تكن ردة الفعل صحيحة .
ولهذا السبب ، ستقوم الدولة العثمانية بتلبية كافة احتياجات عائلتي
القتيلين من الرعاة .

ارتاح المختار والقرويون . كان الإنكشاري يتحدث نيابةً عن
الدولة . لذلك لن يكون العرض الذي قدمه أمراً يستهان به . ولو
شاؤوا كان باستطاعتهم معاملتهم بشكل سيء جداً . سأل المختار
من أجل ضمان الحصول على المساعدة التي ستقدم :

- سامحني أيها الباشا ولكن ما هو اسمك ؟

- يدعونني حسن الأولوباتي .

غادر الإنكشارية القرية بينما كان القرويين يرددون هذا الاسم .

أخبر حسن آغا الإنكشارية بالأمر .

قُدِّمت المساعدات الموعود بها إلى عائلات الرعاة المقتولين .

لم يتوقع حسن الأولوباتي أو آغا الإنكشارية أن حادثة بسيطة كهذه ستعد سبباً لاندلاع الحرب بين العثمانيين والبيزنطيين... لأنهم كانوا يعلمون أنه في حال اندلعت الحرب بين هاتين الدولتين ، فإن سبب ذلك قد يكون بناء روملي حصار وليس مجرد شجار بسيط بين الرعاة .

* * *

سبك المدافع

لقد أخبرتكم عن تفكير السلطان ليلاً ونهاراً بالفتح العظيم أليس كذلك ؟ لقد قلناها ألف مرة .

كانت ليلة من تلك الليالي بالنسبة إلى السلطان .

أدرك محمد الثاني تماماً أن الجزء الأقوى من القسطنطينية هو أسوارها . فقد شملت هذه الأسوار جناحي المدينة على امتداد ٢٢ كيلو متر . وكانت هذه الأجنحة المؤلفة من : خنادق ، وأسوار خارجية ، وأسوار داخلية آية رعب بالنسبة إلى المحاصرين للمدينة . وارتفع فوق الأسوار ٩٦ برج يفصل بين كل منها مسافة قدرها ٥٠ متراً . كان ارتفاع كل برج ٢٥ متر وتم توفير أبواب وسلالم للربط بين الأسوار الداخلية والأسوار الخارجية . بالإضافة إلى وجود دهاليز وحفر صغيرة داخل الأسوار . . .

لذلك من المستحيل دخول المدينة دون تجاوز الأسوار . وقد كلفت محاولة القيام بذلك إلى الآن ، أرواح الآلاف من المحاربين من أمم كثيرة .

توترت أعصاب السلطان الشاب كثيراً .

كان يريد تجاوز الأسوار . ولكن كيف سيكون ذلك ؟ إن هاجمها بالطرق التقليدية فإن النتيجة ستكون هي نفسها : الموت ! ولكن السلطان لا يريد الموت قبل الاستيلاء على المدينة . كان يمضي كل لحظة وثانية في التفكير بذلك ، وي بذل جهده ويدعو الله من أجل ذلك .

كان عليه التخلي عن الطرق التقليدية . لأنه بالتقنيات الحديثة وحدها فقط كان بوسعه تخطي الأسوار . أيّ تقنيات حديثة ؟ هذا ما كان من المفترض أن يفكر به .

حل الصباح . صلى صلاة الفجر ، وكرر أدعيته المعتادة . ثم استلقى على سريره لينال قسطاً من الراحة قبل أن تدخل سلسلة القرارات التي اتخذها حيز التنفيذ بعد عدة ساعات .

* * *

- لتبنى السلالمة المتحركة من أجل تسلق الأسوار !
وأن تكون ملابس الجنود مقاومة للنار الإغريقية التي ستسكب عليهم من الحصون !

وأن يأتي مهندس المدفعية أوربان إلى هنا !
بمجرد أن حل الصباح نفذت تلك الأوامر التي أصدرها السلطان على الفور .

تم الشروع في إنشاء السلاالم المتحركة .
وعملوا على جعل ملابس الجنود مقاومة للنار والزيت الساخن .
بعد ذلك بقليل ، بدأ السلطان الحديث مع أوربان مهندس
المدفعية .

- أهلاً بك يا معلم أوربان ، كيف حالك ؟
- أدعو لسلامتكم وسلامة دولتنا يا سلطاني .
- هل قلت « دولتنا » ؟
- أجل يا سلطاني . لقد أصبحت جزءاً من هذه الدولة الآن .
- بارك الله فيك أيها المعلم . لدي أسئلة لأسألك عنها .
- تفضل يا سلطان الدولة .
- ما رأيك بترسانتنا ؟
- جميلة ومنظمة جداً . . .
- وماذا عن المهندسين الذين تعمل معهم ؟
- جميعهم من أهل الخبرة . . .
- ما الهدف من سباكة المدافع حتى هذا اليوم ؟
- لم أفهم يا سلطاني . .
- تاريخياً ما الهدف الذي كانت تستخدم من أجله المدافع ؟

- من أجل إخافة الناس والعنود في الغالب يا سلطاني .
- برأيك ألا يمكن استخدام المدافع لهدف آخر ؟
- هدف آخر ، هدف آخر... كلا ، لم أستطع إيجاد شيء آخر .

- ولكنني أستطيع ذلك أيها المعلم ، أستطيع .
- هلا شاركتنا بما فكرت به يا سلطاني ؟
- في خرق الأسوار على سبيل المثال !
- فكرت في هذا الأمر أيضاً ولكن لم أستطع إخبارك بذلك لمعرفتي أنه من المستحيل حدوث ذلك .
- بل من الممكن ذلك أيها المعلم ، ليس مستحيلاً . من الممكن جداً خرق الأسوار بمدفع أكبر حجماً لم يسكب مثله حتى الآن .
- سبك مدفع أكبر من المدافع السابقة... لما لا ؟ من الممكن جداً . أطال الله عمر السلطان ، أطال الله عمرك !
- أطال الله عمرنا معاً يا معلم أوربان وننجح في عملنا هذا .
- أتطلع للبدء في العمل .

أعطى السلطان أوربان ورقة ملفوفة من على مكتب العمل ،
وقال :

- لقد بدأت بالعمل فعلاً أيها المعلم أوربان . تفحص هذه الأوراق بدقة . هكذا ستكون الخصائص التقنية للمدافع التي ستسكب !

بدأ أوربان بتفحص الأوراق بدقة . في البدء فتح عيناه واسعاً ، ثم ارتسمت على وجهه تعابير الإعجاب . وأخيراً ، قبل رداء السلطان باحترام كبير .

- بفضل هذا الذكاء والعلم والإصرار الذي لديك ستفتح ليس بيزنطة فقط بل العالم كله ، انصرف من عنده قائلاً ذلك .
ناداه السلطان قائلاً :

- لا تنسى أن تعمل مع بقية المهندسين !

- سمعاً وطاعة يا سلطاني . . .

خلال صيف عام ١٤٥٢ بدأت سباكة المدافع في أدرنة . حيث عمل ثلاثة مهندسين ومئات العمال ليلاً نهاراً وسبكوا مدافع بحجم لم يرى مثيل لها حتى ذلك الحين . كانت جميع تلك المدافع مصنوعة من البرونز المستخرج من مزيج النحاس والقصدير . كان النحاس والقصدير باهظا الثمن جداً . رغم ذلك ، لم يتهرب من دفع أية مصاريف . تم تأمين النحاس من نواحي قسطنطيني التي يحكمها بني جاندار ، أما القصدير فتم تأمينه من تجار البندقية . لأن المدافع

المصنوعة من البرونز مقاومتها أكبر من مدافع الأوروبيين المصنوعة من النحاس .

صنع ١٥٠ مدفع سكبها المهندسون بأحجام صغيرة وكبيرة . ولكن السلطان لم يكتفي بهذا العدد . بل ينبغي سبابة مدافع أكبر وأكبر . وأخيراً ، وبعد جهود كبيرة ومصاريف هائلة سبكت مدافع كهذه . حتى أصبح هذا المدفع ملك المدافع بمحيط قدره مترين ونصف ، وقدره على رمي قذيفة وزنها ٦٠٠ كيلو على مسافة ١٢٠٠ متر . ولهذا السبب دعي باسم « الشاه » . حتى أن المهندسين عجزوا عن صنع القذيفة التي سيطلقها المدفع ، ولجأوا إلى مخططات السلطان لتدبر الأمر . وبذلك صنعت قذائف مدفع الشاه من الحجر الأسود والرخام القادم من سواحل البحر الأسود .

كان السلطان محمد ممتناً للغاية لقيامهم بسبك المدافع مثلما أراد . كان واثقاً الآن أنه سيتخطى الأسوار . ولكن ينبغي اختبار هذا المدفع الهائل الحجم وهم ما يزالون في أدرنة . ولهذا السبب ، تم وضعه أمام الطريق المؤدي إلى قصر أدرنة . وتم تحذير الرعية بمرسوم من السلطان . لأن السماع المفاجيء للضجيج الذي سينجم عن

إطلاق القذيفة قد يلحق ضرراً بصحة الإنسان ؛ ومن الممكن أن تجهض النساء الحوامل أطفالها .

في صباح اليوم التالي ، أطلقت القذيفة تحت الأنظار الفضولية
لرجال الدولة ، والعلماء والعامة الذين ينتظرون بحماس كبير .
وكانت النتيجة ممتازة . فقد أخذت السماء والأرض تنن عند انطلاق
القذيفة من المدفع . وكان الصوت قوياً جداً بحيث سمع على بعد
٢٠ كيلومتر . ومن ناحية أخرى ، غطت سحابة من الغبار المكان .
وفتح القذيفة التي سقطت على بعد ميل واحد حفرة في حجم
ذراع .

كان أمل السلطان محمد في الاستيلاء على القسطنطينية يزداد
أكثر فأكثر .

* * *

لن يكون بغير ذلك أبداً !

اقترب السلطان خطوة أخرى نحو هدفه بسبك مدفع الشاه . فقد كان ذلك خطوة مهمة للغاية . ولكن ينبغي عليه الآن اتخاذ خطوة مهمة أخرى بمقدار تلك . لذلك لا بد أن يدعو كبراء الدولة للمشاورة ، وينقل إليهم عشقه للفتح . وبهذه النية عقد اجتماع بمشاركة واسعة في شهر كانون الثاني من عام ١٤٥٣ . اتخذ الوزراء ، والباشوات ، ورجال الدين وقادة الجيش أماكنهم في القاعة كل بحسب موقعه . بينما كان القلق بادياً على وجه البعض كان الحماس يلمع في أعين معظمهم . لقد حانت اللحظة المرتقبة وبدأ السلطان بالكلام :

- يا وزراء الدولة ، والباشوات ، والمعلمين ، وقادة الجيش :
أحييكم جميعنا بتحية الله أولاً :

هناك حديث يقول : « ما شقي قط عبد بمشورة ، وما سعد باستغناء رأي » . وهو حديث أؤمن به حقيقة . وإلا لما قال نبينا الحبيب : « استشيروا في أمركم » . في داخلي نار مشتعلة منذ زمن طويل . وأريد أن أشارككم هذه النار .

إن الجهود التي بذلتموها لكي تتشعب دولتنا في العالم مثل شجرة الدلب محل تقدير كبير .

أما الآن لدي رجاء منكم يتطلب الكثير من الجهد فوق جهودكم تلك » .

أخذ السلطان نفساً قليلاً هنا . ثم تابع حديثه بعدما تأكد من لفت انتباه المستمعين إليه قائلاً :

« نعم ، أريد منكم القسطنطينية » .

كانت هذه الجملة ، تعبر عن حقيقة يعلمها البعض منذ زمن بعيد . في حين كانت مفاجأة للبعض الآخر . لم يستطع هؤلاء إخفاء مشاعر الحماس لديهم ، وصاح البعض منهم في نفسه بحماس عبارات مليئة بالأحاسيس مثل :

- الله أكبر !

- عاش سلطاننا !

تابع السلطان محمد كلامه قائلاً :

« تعلمون بالطبع أنني لا أريد القسطنطينية لي وحدي فقط . وإنما هدفنا هو الغزو والجهاد ؛ ونيل رضا الله عن طريق ذلك مثل أسلافنا .

كما تعلمون أيضاً أن هذه المدينة تقع وسط أراضينا تماماً ؛ مما

يحمي أعدائنا ، ويحول دون عبور جيشنا إلى الروملي . ولذلك
أؤمن أن الاستيلاء على هذه المدينة هو الحل الوحيد من أجل ضمان
سلامة دولتنا ومستقبلها . إن كان لديكم وجهات نظر مختلفة حول
هذا الموضوع فأود سماعها » .

عم الصمت أرجاء الديوان . ولا سيما أولئك المعارضين لفكرة
الفتح فقد ازداد قلقهم . وكانوا ينتظرون خروج جاندارلي والتكلم
بالنيابة عنهم . وما لبث أن تحدث جاندارلي قائلاً :

- أود أن أعبر عن وجهة نظري مغتتماً سماحة سلطاني الواسعة .

- تفضل ...

- كما تعلمون أن القسطنطينية ليست مدينة بيزنطية فحسب بل هي
قلب العالم المسيحي بأكمله . وإن الهجوم الذي سنقوم به هنا
سيؤدي للدعوة إلى حرب صليبية جديدة . واعتقد أنه لا حاجة لأن
أحدث عن الآثار السلبية للحروب على شعبنا وبخاصة الحروب
الصليبية . في حين أن الحكايات الحزينة لقراة ثلاثين حاكماً
حاصروا هذه المدينة ما تزال حية في صفحات التاريخ . ولهذا
السبب أقول إن علينا الاتفاق مع جيراننا وألا نحطم جيشنا دون
جدوى » .

كان هذا الكلام الذي يتوقعه السلطان محمد بالفعل . ولكن

الأهم هو عدد الأشخاص الذين يعتقدون الأمر نفسه مثل جاندارلي .
ولمعرفة ذلك سأل السلطان ما يلي :

- لدي تساؤل . هل هناك من يعتقد الأمر نفسه مثل جاندارلي ؟

بعد تردد قليل ، بدأت الأصوات في الارتفاع :

- نعم ، يوجد يا صاحب الدولة . . .

- نعم يا سلطاني . . .

- نعم ، يا سلطاني . . .

- نعم . . .

قال السلطان محاولاً الحفاظ على هدوئه :

- أرجو أن تستمعوا لي مرة أخرى ؛ ومن بعدها أعدكم بأن ألتزم
بالقرار الذي ستخذه الأغلبية .

ارتاح المعارضون لفكرة الفتح على وجه الخصوص . ولكن
إنتابهم الفضول لمعرفة ما سيقول السلطان . وبدأوا الاستماع إلى
السلطان حيث قال :

- كان أسلافي يعلمون أن حكم العالم غير أبدي ، وبالمقابل فإن
جميع المخلوقات لها نهاية في هذا العالم .

فقد كانوا على دراية تامة أن الغاية من الخلق هي معرفة الله .

وكما روى أبو سعيد الخدري عن رجل سأل رسول الله فقال له :
« من أجود الناس يا رسول الله ؟ » فأجابه سيد الخلق : « أجود
الناس من جاد بنفسه وماله في سبيل الله » . وكما قال الله سبحانه
وتعالى : « أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ افْتَدَى » ولذلك سأبذل
قصارى جهدي لتعظيم كلام الله وسنة رسوله . وآمل بذلك أن أذكر
بالخير في الدنيا ، وأنال ثواباً كبيراً في الآخرة . لماذا يجب على
القسطنطينية ، التي هي قطعة من جنة إرم ذات العماد ، أن توجد
وسط بلادي وتستمر في كونها مركزاً للكفر ؟ ولهذا أنا عاقد العزم
على فتحها . لن أبدأ أي عمل آخر قبل تحقيق ذلك . ومن المأمول
أن يكون إجرائي يتلائم مع ما قدره الله .

كان حماس السلطان ونبرة صوته ترتفعان تدريجياً :

« حتى وإن عمل الكون بأكمله عكس ذلك ، فإن بإرادة الله
وحدها تتحقق الأعمال الحسنة الموصوفة بالمستحيلة . وإن اجتمع
العالم كله على صنع ولو شيء بسيط ، لن يحصل ما لم يشأ الله
ذلك . وفي هذا الشأن ، فإن اعتمادي ليس على كثرة المال ،
ولا بطولة جيشي ولا على حداثة أسلحتنا الحربية . بل على عكس
ذلك ، اعتمد فقط على فضل الله ومعونته . وإن لم يقدر لي
الاستيلاء على هذه المدينة ، فإن قلاعهم وأبراجهم ، وإن كانت
مصنوعة من الحديد الصافي عوضاً عن الحجارة والتراب ، سأذيقها

مثل الشمعة وأجعلها لينة بغضبي والنار التي بداخلي . وإن فشلت في الحصول على نتيجة ، فسأنال ثواب نيتي على الأقل . ولكنني أعلم أن عبداً مسكيناً ومخلصاً مثلي إذا تمنى الخير من فضل الله الواسع ، لن يحرم الله هذا العبد من رغبته هذه .

أثرت جملة السلطان الأخيرة في قلوب المستمعين :
- « سأسألكم الآن مجدداً . هل هناك من يفكر مثلما أفكر بعد ؟ »

أصر جاندارلي على رأيه السابق . ولكن تناقص عدد الأشخاص الذين يفكرون مثله . ختم زاغنوس باشا الكلام قائلاً :
- نحن مستعدون للإنجاز في شهر ما سيتم إنجازه في سنة ، والإنجاز في يوم ما سيتم إنجازه في شهر يا سلطاني .
كان السلطان سعيداً بذلك .

سأل الحاضرين في الديوان بنبرة صوت رقيقة ولكن حازمة هذه المرة قائلاً :

- هل فكرة زاغنوس باشا مناسبة ؟

بدأت الإجابات تأتي على التوالي :

- نعم يا سلطاني . . .

- نعم يا سلطاني . . .

- نعم يا سلطاني . . .

- نعم يا صاحب الدولة . . .

- نعم يا مولاي . . .

- نعم . . .

قال السلطان بامتنان كبير :

- اعتقد أنها مناسبة أيضاً .

انتهى الاجتماع .

* * *

نقل المدافع

لم يكن التراجع سهلاً بعدما اتخذ قرار الفتح .

لقد حان الوقت لنقل المدافع . كان من السهل نقل المدافع الصغيرة . ولكن ماذا عن المدافع الكبيرة ؟ كان نقل مدفع الشاه خاصة حدثاً في حد ذاته ، لذلك أعدت الطرق التي سيمر عليها المدفع أولاً من قبل ٥٠ نجار و ٢٠٠ عامل . ثم تحرك المدفع في فبراير عام ١٤٥٣ بشكل بطيء نحو قاعدته . حيث وضع المدفع فوق ٣٠ عربة وصلت ببعضها البعض . وقد جرت هذه العربات من قبل ١٤٠ ثوراً ضخماً . وسار ٢٠٠ جندي على اليمين واليسار لمنع المدفع من السقوط . أثارت هذه اللوحة الرائعة دهشة الناظرين . وبعد رحلة استغرقت شهرين ، وضع المدفع في منطقة تسمى طوب كابة ، على مشارف القسطنطينية . فقد سبق وحدد المكان الذي يرى قبالة أضعف نقطة في أسوار المدينة من قبل السلطان . أما بقية المدافع الأخرى ، فقد وضعت على شكل ١٤ سرية في أماكن حددها السلطان بنفسه . في تلك الأثناء ، تم حساب المسافة الممتدة من المدافع إلى الأسوار بدقة . وبذلك سيتم ضبط المسافة بطريقة سليمة .

لم يكتفي السلطان بذلك . بل أمر ببناء « ترسانة » متنقلة أمام الأسوار . كما سبك مدفع آخر كبير بإشراف المهندس أوريان . حيث سيتم سبك مدافع جديدة حسب الحاجة أو إصلاح المدافع المتعطلة منها .

كان ذلك مشهداً مرعباً للبيزنطيين . لم يروا أو يسمعوا بمثل هذا من قبل . هل بوسع أسوارهم الوثائقين بها كثيراً الصمود أمام هذه المدافع ؟ سيتضح ذلك مع مرور الوقت . غير أن الوقت غير كاف لهم للتجربة . لهذا بدأوا العمل على تدعيم الأسوار . وقد تماردوا في ذلك الأمر حتى استخدموا أحجار الكنائس التي هدموها بأيديهم لإنجاز العمل .

من ناحية أخرى لم تكن الأسوار وحدها من تشغل عقل السلطان . يبدو أن القرن الذهبي سيسبب مشكلةً بالنسبة له . فقد تبين أن أحد أسباب فشل حصارات القسطنطينية في السابق هو عدم محاصرة المدينة من جهة البحر وعدم القدرة على العبور إلى القرن الذهبي . لذلك أولى أهمية كبيرة للأسطول البحري . وفي الوقت نفسه أخذ في الحسبان تجاوز السلاسل التي ستسحب في القرن الذهبي .

لم يكتفي السلطان بذلك .

وضع وحدات عسكرية على طول الحدود لصد الهجمات
المحتملة .

وقطع الطريق أمام النجيدات التي قد تصل إلى القسطنطينية من
خلال غزوه بني تورخان ومورا .

وصل عدد الجنود في الجيش العثماني من الفرسان الإقطاع ،
والمشاة ، والإنكشارية ، وبقية حراس قابي كولي (عبيد الباب)
إلى جانب المتطوعين إلى مئة ألف جندي .

تمت دعوة علماء الدين البارزين إلى الحملة لرفع معنويات
الجيش .

جعل أمير أمراء روملي داي قراجا بك طريق الذهاب إلى
القسطنطينية ملائماً لعبور الجيش . وبالتالي تم إزالة جميع العقبات
الموجودة أمام الأسوار .

وتم تحضير كل ما هو ضروري من أجل الحصار .

وبات من الممكن البدء بالفتح العظيم في أية لحظة .

* * *

الخوف أكبر من الجبال

أدرك البيزنطيون الخطر المحدق بهم بينما ما تزال قلعة الروملي قيد الإنشاء . لهذا أرسلوا السفراء من أجل دفع السلطان إلى التخلي عن ذلك . كان الوضع جيداً لو اقتصر على جواب الرفض الذي تلقوه فحسب . فقد سخر السلطان الشاب منهم صراحة . ألم يقل لهم أيضاً « سلموا المدينة دون الحاجة إلى سفك الدماء ! » ؟ يا له من مغرور ومتكبر ! هل بيزنطة العظيمة عاجزة عن الدفاع عن نفسها ؟ ألم تنجو بشرف من عشرات الحصارات السابقة حتى الوقت الحاضر ؟

كان الإمبراطور البيزنطي قسطنطين يعلم هذه الأمور جميعها ومع ذلك كان هناك أمر يشغل باله ويشعره بالحيرة وهو : أن هذا السلطان الشاب « لا يشبه سابقه » على الإطلاق . لأنه طائشاً أكثر منهم ، وربما أكثر ذكاءاً أيضاً ، ومن يدري من المحتمل أنه قد نال تربية ممتازة . وبحسب ما قاله المحيطين به بحديثهم عن جرأته إلى جانب علمه ومقدرته الشعرية ، لا بد أنه ذو شخصية مختلفة .

لا تخيفني جميع تلك الأمور ، هذا ما اعتقده الإمبراطور

قسطنطين . ولو كان ناراً فإنه لن يحرق سوى مكانه كالجرم . ولكنه كان يعلم بضرورة إخماد النار قبل انتشارها في جميع الأطراف . وكان الأمر الذي يتوجب عليه القيام به هو خياطة الخرم الموجودة في بيزنطة . ولكن هناك الكثير من الخرم التي ستخاط في بيزنطة . . . لذلك ينبغي عليه البدء بأكبرها . وهي الصراعات الطائفية الخطر الأكبر الذي أنهك العالم المسيحي . إذا تمكن من توحيد الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية ، فإنه سيتجاوز هذه الصراعات ويقيم تحالف قوي ضد هذا السلطان المتهور .

كان على دراية تامة أن توحيد الكنيستين أمراً صعباً للغاية ؛ ولكن لم يكن لديه خيار آخر . ولهذا السبب ، أرسل السفراء إلى بابا روما . وقد سأل هذا الأخير السفراء الذين استقبلهم قائلاً :

- ما الذي يريده الإمبراطور منا ؟

- يقدم إمبراطورنا لكم فائق الاحترام ، يا حضرة البابا .

ظهرت ابتسامة مبهمة على وجه البابا . . .

- وماذا بعد ؟

- تعلم يا سيدي أن مدينتنا على وشك أن يستولي عليها سلطان

تركي متهور . . .

تحدث البابا وكأنه لا علم له بالأمر وسأل :

- من هو هذا السلطان التركي المتهور ؟

- يقال أن اسمه محمد ، ولكن ...

- ولكن ماذا ؟

- ولكنه يستعد من الآن فصاعداً لأن يطلق عليه لقب « الفاتح » ...

- الأمر جائز يا عزيزي ، وكما يقول الأتراك : « في قلب كل رجل شجاع أسد نائم » .

- ولكن ليس هناك « أسد » في قلب هذا السلطان بل هناك قلب العالم المسيحي النائم يا حضرة الباب ، القسطنطينية نائمة ، القسطنطينية !

بدأت شفاه السفير ترتعش . وكأنه على وشك البكاء إن لمستموه .

عندها أدرك البابا أن الأمر غير موافق للمزاج .

- لم تخبرني بعد بما يريده الإمبراطور مني ...

- يريد منكم إنقاذنا من هذه المصيبة .

- كيف ؟

- بإحياء فكرة « وحدة الكنائس » التي جرى الحديث عنها كثيراً من قبل ولكن لم تطبق بأي شكل من الأشكال ...

بدأ البابا يتصبب عرقاً عندما أدرك جدية هذا الطلب . على ما يبدو ، أن هذا هو الشيء الوحيد المفترض القيام به . ولكن الكاثوليك والأرثوذكس يكرهون بعضهم البعض . ولهذا لن يتحقق الأمر بمجرد القول « لقد وحدث الكنائس » . ولا يمكن الحديث عن وحدة طويلة الأمد طالما أن الطرفين يعتبران بعضهما البعض أعداء . ولكن بما أنه رجل الدين الأول بالنسبة إلى المسيحيين فإنه مضطر إلى اتخاذ هذه الخطوة . وإلا فإن التاريخ لن يغفر له .

- حسناً ، قال للسفراء ؛ سأرسل إليكم سفيراً عما قريب . واعلموا حينها أنه المشكلة قد حلت .

غادر السفراء روما سعداء بتلك النتيجة التي حصلوا عليها . وسرعان ما وصل سفير البابا اسيدوروس إلى القسطنطينية . وبعد لقاء قصير أجراه مع الإمبراطور ، أمر بتنظيم القداس واجتماع العامة في آيا صوفيا .

ملأ الأهالي ، الذين إنتابهم الفضول عن الطريقة التي ستساعدهم فيها السلطة البابوية ، كنيسة آيا صوفيا لمتابعة القداس الديني . خَلَقَتْ الابتهالات الدينية التي صدحت بصوت واحد ، جواً من الحماس . كان جميع هؤلاء الناس يتساءلون كيف سينقذ البابا مدينتهم ، ويتنظرون البشارة من السفير .

بدأ السفير كلامه قائلاً :

- إخوتي الأعزاء ، إن فرحكم هو فرحنا ، وألمكم هو ألمنا . . .
مما يعني أن الخطر المحدق بكم هو محقق بنا حتماً .

تفائل العامة بهذا الكلام . ربما لن يخذلهم البابا هذه المرة .
وقد يتحقق على الأغلب الشيء الذي يؤمنون به منذ زمن طويل وهو
« الإيمان بأن الله سيحيي هذه المدينة من خلال ملائكته » . سيغدو
العالم المسيحي بأكمله عالماً واحداً وسيرحل الأتراك البرابرة
الواقفين على الأسوار من حيث أتوا .

واصل اسيدوروس كلامه قائلاً :

- إن قدرة الدولة على البقاء والصمود مرتبط بمتانة الوحدة
والتضامن داخلها . ومن ثم تعتمد على الأهداف المشتركة للشعب
الذي بنى هذه الدولة . . . ومن المستحيل أن تعيش دولة لا تتعلم من
ماضيها ، وليس لديها مبادئ موجهة نحو المستقبل ، والمجزأة إلى
مئات الأجزاء في داخلها ، ويعمل كل جزء منها على الإيقاع ببعضهم
البعض كلما سنحت لهم الفرصة ، أن تعيش مدة طويلة .

لم يكن العامة الذين يستمعون إلى كلام اسيدوروس ممتنين على
الإطلاق . لقد كان كلامه صحيحاً ، حتى أنه كان يحلل الوضع الذي
يعيشه بيزنطة الآن . ولكن كان على اسيدوروس أن يعطيهم الوصفة

السحرية لإنقاذ المدينة من الأتراك عوضاً عن تكراره هذا الكلام .
ربما سيخبرهم بما يريدون سماعه بعد قليل . لذلك كان من الأفضل
مواصلة الاستماع إليه .

- ندرك خطورة الوضع الذي أنتم فيه . وأنكم تنتظرون منا اتخاذ
إجراءات فورية من أجل رفع الحصار

تحققت توقعات العامة على الأغلب . وسيخبرهم اسيدوروس
بالبشارة بعد قليل . ولذلك لم يكن لديهم خيار آخر سوى الانتظار
قليلاً .

- سأخبركم الآن بالحل وهو : الوحدة !

ما الذي يحدث ؟ من ، مع من سيتحد ؟ إذا كان الاتحاد مع قوى
الدول المسيحية الأخرى المذكورة آنفاً ، فلا خلاف على ذلك .
ولكن الأمر ليس هكذا . . .

- لدى الأتراك ، عدونا المشترك ، مثل يقول : « يد واحدة
لا تصفق ! » للأسف ، ما يقوله الأتراك صحيح . لأننا ننتمي إلى
الدين نفسه ، ولكن مذاهبنا مختلفة . حيث يجعلنا هذا الاختلاف
نفتر من بعضنا البعض ، ويزرع بذور العداوة بيننا .

لم يعد من الواضح أين سيصل اسيدوروس بخطابه هذا . فبدأ
الأهالي بالتدثر فيما بينهم .

- ما أقوله هو أو بالأحرى هذه رغبة حضرة البابا هو أنه قد آن الأوان لإنهاء الانقسام بيننا . وأنا مضطرون إلى ضمان الأخوة بين الطوائف . وعندها ستسارع كافة الدول المسيحية إلى مساعدتنا . كما سيختفي البلاء الموجود خارج الأسوار ويرحل من تلقاء نفسه .

بدأ تدمير العامة الذين غصت بهم الكنيسة يتزداد تدريجياً . متى اتحدت الطوائف لكي تتوحد الآن ؟ كان البابا يحلم صراحة . لم يكن البيزنطيون يرغبون بالاستسلام للأتراك المسلمين . كان اسيدوروس يريد من البيزنطيين التخلي عن مذهبهم صراحة مقابل المساعدة . كان قبول الهيمنة التركية أهون بكثير عليهم من قبول طلب كهذا .

صاح الدوق الأكبر لوكاس ناتوراس ، أحد المعارضين للوحدة قائلاً :

- إنه خير لنا أن نرى العمامة في مدينتنا القسطنطينية من أن نرى فيها تاج البابوية !

كان هناك من رأى مغادرة ناتوراس للكنيسة . منع قسطنطين الذي فطن إلى دقة الوضع ، أولئك المندفعين الراغبين بالمغادرة . كانت رائحة العجز تفوح من خطابه الذي ألقاه . رأى توسل الإمبراطور الذي أراد الدفاع عن وطنه ، شعبه باكياً :

- ألا تفهمون ، ليس لدينا خيار آخر !

انفطرت القلوب على حال الإمبراطور . يبدو حقاً وكأنه لا يوجد خيار آخر . إذن اشترط المسيحيون الخونة الوحدة مقابل المساعدة . فقبلوا بذلك مضطرين .

أعلن اسيدوروس عن اتحاد الطوائف تحت سلطة البابا .

أنشدت الجوقة عدد من الابتهالات الموسيقية المشهورة لدى كلا الطائفتين . استمع العامة إليهم مطأطين رؤوسهم . حاولوا تصديق أن هذا هو الشيء الوحيد المفترض القيام به رغم كل شيء .

شعر الإمبراطور بالراحة بعود المساعدة التي تلقاها . لكن هناك أمور ينبغي عليهم القيام بها أولاً :

كان الإمبراطور يعتمد كثيراً على الأسوار . فقد استطاعت هذه المدينة تجاوز عشرات الحصارات السابقة بفضلها . كانت الأسوار الواقعة على البر والمطلة على بحر مرمرة سليمة . ولكن من الصعب قول الأمر نفسه عن الأسوار المطلة على القرن الذهبي . ولذلك أمر ببدء الأعمال من أجل تقوية هذه الأسوار الضعيفة . مع ذلك قد يكون من الصعب صد الهجمات التي ستأتي من القرن الذهبي . ولهذا كان لا بد من بناء خط دفاع جديد عند مضيق القرن الذهبي . ومن أجل ذلك سحبوا سلسلة سميكة على القرن الذهبي تمتد من

سركجي حتى غلاطة . وبالتالي سيحولون دون دخول السفن التركية إلى القرن الذهبي .

كما نظفت الخنادق المحيطة بالأسوار من ناحية البر ، والبالغ عمقها وعرضها حوالي ٢٠ متراً . وملأوها بالماء .

تفقدوا الأساطيل البحرية .

وقاموا بصيانة المدافع .

وتم تخزين ما يكفي من الطعام لمدة ستة أشهر .

نقل سكان القرى المجاورة طعامهم وحيواناتهم إلى المدينة .

طلبوا من مستبدي مورا القمح وقوات رديفة .

أرسلوا السفن إلى الجزر التي يعيش عليها الروم والبلدان المسيحية الأخرى لتحميل القمح والطعام والشراب والإمدادات العسكرية .

استجاب البابا بإيجابية على طلب المساعدة من الإمبراطور معلماً إياه أنه سيرسل إسطولاً بحرياً .

كما وعد البنادقة بإرسال ١٠ سفن حربية .

ووصل القائد جوستنياني إلى القسطنطينية يرافقه سبعمائة مقاتل وسفيتين ضخمتين محملتين بالكثير من الآلات والمعدات الحربية . حيث انشغل بتدريب المتطوعين هناك .

ومن أجل الحصول على المال تم جمع جميع الأشياء الثمينة
الموجودة في الكنائس مقابل إيصالات إستلام ، وطبعت النقود بدلاً
من ذلك . حتى أنهم باعوا المجوهرات التي تزين تاج الإمبراطور .
كانت بيزنطة تضحي على حساب تدمير كل ما هو ثمين لديها في
سبيل إنقاذ نفسها .

* * *

في الحركة بركة

بشرى من الله على لسان الرسول ،
انتشرت في قلوب العباد كالأمواج .
« لتفتحن القسطنطينية » قال
فأضحت هذه الكلمات المباركة أمراً ؛
وأنا سأكون « جندياً صالحاً » ،
أهدي الشجعان النبلاء .

اعتقد السلطان أن الوقت المناسب قد حان . فقد أراد الوصول
إلى القسطنطينية وإنزال ضربة قاضية على قلب بيزنطة في أسرع وقت
ممكن .

استعد الجيش للانطلاق . وأخذ ينتظر أوامر السلطان .
في يوم الجمعة ٢٣ من شهر آذار عام ١٤٥٣ أصدر السلطان
محمد الأمر بالتحرك .

فانطلق من أدرنة يرافقه عدد من وزرائه وقادته العسكريين ، العلماء
مثل آق شمس الدين ، والملا كوراني ، والملا خسرو وآق بيبك .

كان سكان المناطق التي عبر منها الجيش يستقبلونهم بالدعاء ويودعونهم بالدعاء أيضاً .

لم يكن هناك ما يصف سعادة الجنود . كان يدركون أن هذه الحملة مختلفة عن سابقتها . فقد انتقل إيمان السلطان بالانتصار إليهم .

وعند وصولهم إلى كيشان ، توقفوا هناك وانتظروا قوات الأناضول التي ستتنضم إليهم . في حين عبر أمير أمراء الأناضول إسحق باشا وقواته برفقة محمود باشا مضيق غاليبولي ، متحدين بذلك مع الجيش الكبير .

وصل الجيش إلى مشارف القسطنطينية في ٥ من شهر نيسان عام ١٤٥٣ .

نصب السلطان خيمته الحمراء المزينة بخيوط القصب الذهبية في مكان سيتابع منه الحرب بسهولة ، مقابل طوب كابة حيث كانت الأسوار ضعيفة . كان الإمبراطور يعلم أن الأسوار في هذه المنطقة ضعيفة . ولهذا السبب ، نصب خيمته هو أيضاً في تلك المنطقة . كان من الممكن في هذه النقطة رؤية المنطقة الممتدة من أسوار مالتبة إلى قصر تكفور بأكملها تقريباً . أحاطت قوات قابي كولي محيط الخيمة الهمايونية مثل جدار بشري . في حين تمركز جنود

الإنكشارية المشاة في المنتصف ؛ وعن يمينهم يوجد الفرسان وأصحاب العلوقة وغرباء اليمين ، وعن يسارهم يوجد السلاحدار وأصحاب العلوقة وغرباء اليسار . وعلى الخطوط الأمامية تمركزت هناك قوات المدفعية .

أتى السلطان محمد إلى مشارف القسطنطينية مرات عديدة ، وحدد أين ستمركز كل وحدة مسبقاً . ولهذا السبب ، لم يكن من الصعب على الوحدات اتخاذ مواقعهم . وسرعان ما طوقت الأسوار البرية من ايفان سراي إلى منطقة يدي كولي .

وقد وضع المدفعان الكبيران أمام أسوار طوب كابة وأدرنة كابة . في حين كانت الترسانة الجديدة تنتظر الأوامر .

كانت منطقة الهجوم الأساسية هي الخط المركزي الممتد من طوب كابة إلى أدرنة كابة . وفي هذا المكان كان السلطان ، وجاندارلي خليل باشا إضافة إلى جميع قوات قايي كولي المتواجدين هنا .

كان القسم الممتد من طوب كابة إلى يدي كولي يشكل الذراع الأيمن للجيش . وقد وجد في هذا القسم جيش الأناضول بقيادة أمير الأمراء إسحق باشا .

وأما الجناح الأيسر الممتد من أدرنة كابة إلى القرن الذهبي فكان تحت قيادة أمير أمراء روملي قاراجا بك .

كان زاغنوس باشا متواجداً في المنطقة الممتدة من تلال بيوغلو وصولاً إلى قاسم باشا . حيث سيبقي الباشا ميناء القرن الذهبي تحت الضغط . كما سيوفر الجسر الذي سيبنيه بين هاس كوي والساحل المقابل الاتصال بين الوحدات .

* * *

كان وضع بيزنطة مؤلماً في الداخل . لم يتجاوز عدد قواتهم العشرين ألفاً مع القادمين للمساعدة . كما كان أسطولهم ضعيفاً ، وأسلحتهم غير كافية . ولكن في المقابل ؛ كانت هناك أسوارهم التي يظنون أنها غير قابلة للاختراق وسواحل القرن الذهبي التي يقال أنه لم يتجاوزها أحد . كما كانت الزيوت الساخنة التي يطلقون عليها اسم النار الإغريقية ، نقطة أمان أخرى بالنسبة إليهم . فقد كانت هذه النيران عند سكب الماء عليها تتحول إلى كرة ملتهبة تكبر تدريجياً في المكان الذي ستطفئ فيه .

تولى الإمبراطور والقائد الأعلى جستنياني مهمة الدفاع عن طوب كابة . في حين سيتولى مهمة الدفاع عن كل منطقة من المناطق الأخرى قائدٌ يختار عادةً من الفرسان اللاتين . كما تواجد البنادقة والجنويين والإسبان في صفوف القيادة . كان وجود ثمانية قادة بيزنطيين فقط من أصل ١٨ قائد يشير إلى أن البابا قد وفى بوعده بالمساعدة التي قدمها لهم .

كان أورهان شلبي الذي كان كاللعبه بين يدي بيزنطة ، موجوداً
في المنطقة بين كوم كابة وساماتيا . كان هذا الرجل السيء الحظ
سيدافع عن هذه المنطقة بعدد قليل من الجنود تحت إمرته . كما
سيساعد الرهبان المتطوعين في الدفاع عن هذه المنطقة .

كان الأسطول البيزنطي وحلفائه يحكمون سيطرتهم على مضيق
القرن الذهبي وراء السلسلة .

كانت بيزنطة التي استخدمت جميع الإمكانيات المتوفرة لديها ،
تعتقد أنها جاهزة للحرب .

* * *

يوميات الحصار

الجمعة ٦ نيسان

انطلق السلطان مع جيشه في ٢٣ آذار عام ١٤٥٣ بغية إخماد النار التي تحرقه من الداخل . في حين تشير التواريخ إلى أن يوم الجمعة السادس من نيسان عام ١٤٥٣ كان تاريخ إصداره الأوامر الأخيرة ببدء الحصار . مما يعني أنه انطلق في يوم جمعة ، وبدأ بالحصار في يوم جمعة آخر .

استدعى السلطان ، رئيس صناع الأسلحة إبراهيم قبل حلول الصباح وأمره قائلاً :

- وزعوا الأسلحة على قوات قابي كولي في الحال .

- سمعاً وطاعة يا سلطاني . قال رئيس صناع الأسلحة ذلك وخرج سريعاً من عند السلطان لتنفيذ الأمر .

ثم أمر كل قائد منطقة وكل جندي بالاستعداد للحرب في أي لحظة . عاد القادة الذين تلقوا الأمر إلى وحداتهم بسرعة البرق .

ثم وجه السلطان كلامه إلى جاندارلي خليل باشا قائلاً :

- كما تعلم أيها الباشا أنه حتى المحكوم عليهم بالإعدام يُسألون عن أمنيتهم الأخيرة . فإن طلبوا شيئاً معقولاً تنفذ طلباتهم على الفور . لذلك أقول الآن سنرسل رسولاً أخيراً إلى البيزنطيين ؛ وسنرى إن كانوا سيسلمون المدينة لنا دون إراقة الدماء .

تفاعل جاندارلي بالصلح وإن كانت فرصته ضعيفة . وقال :

- أصبت يا سلطاني ، لنرسل وفداً من السفراء إلى بيزنطة على الفور . وكما تفضلت ، سترى إن كانوا سيردون غضن الزيتون الذي مددناه لهم .

قال الإمبراطور الذي استقبل السفراء العثمانيين :

- إن العرض الذي قدمته لي دنيء . إن كنتم تعتقدون أنني سأسلم المدينة بغية عدم سفك الدماء ، فهذا يعني أنكم لم تعرفوني بعد . أقسمت ألا أسلم المدينة حتى أموت ! إن أردتم . . . يمكنكم أنتم رفع الحصار ، ونستمر في دفع الجزية لكم كما في السابق .

نقل السفراء الإجابة التي تلقوها إلى السلطان ، فقال :

- هذا ما توقعته أيضاً . من الواضح أننا سنحارب إمبراطوراً شجاعاً . في الحقيقة كنت سأبغضه لو كان من الجبناء !

* * *

في صباح اليوم ذاته . . . كان هناك مؤذن يؤذن أمام الخيمة

الهمايونية بصوت كالبلبل . كان السلطان يشعر وكأن الجبال
والحجارة تستمع معه إلى صوت الأذان المبارك . . . حيث تجاوزت
صيحات التكبير السارية في القلوب كالأمواج ، الأسوار وحركت
قلب بيزنطة . . .

لم يعرف السلطان كيفية تهدئة النار المشتعلة في داخله . ولم
تهدأ حتى عندما وقف بين يدي الله وقد لوى عنقه وشابك يديه
احتراماً أو عندما سجد باكياً في الخفاء . لا حل آخر لديه ، إما أن
يأخذ هذه المدينة ، أو يموت في سبيل ذلك .

أصدر السلطان الأمر الأول بعد الصلاة قائلاً :

- ليبدأ الرماة برمي السهام !

وبمجرد صدور الأمر شدت الآلاف من الأوتار ، وانطلقت آلاف
السهام باتجاه كوة الأسوار .
وهكذا مضى اليوم الأول .

السبت ٧ نيسان

نهض السكان المحليون والمجموعات المتطوعة المشاركين
بحماس ، للهجوم على الأسوار مع إطلاق المدافع المحدودة
النطاق . كان بيرم صديق طفولة السلطان يقود المتطوعة . . . فقد
اضطر إلى الانفصال عن حسن الأولوباتي لأنه لم يكن من

الإنكشارية . ولكن كان هذا فراق في الظاهر ، أما قلوبهم فقد كانت مرتبطة ببعضها دائماً .

واجه أولئك السكان المحليون والمجموعة المتطوعة الذين بادورا بالهجمة الأولى ، تحركاً غير متوقع . فقد أصيب الروم بالهلع عندما هاجموهم فجأة . ولم يستطع بيرم مهما فعل السيطرة على مجموعته . فسقط البعض منهم شهيداً . وبينما كانت الأمور تتجه نحو الأسوء سمع بيرم صيحة تقول :

- اصبر يا بيرم ، لقد اقتربنا .

كان ذلك صوت الأولوباتي . حيث هاجم الروم برفقة وحدته . فأغلق الروم الفارين إلى القلعة الأبواب بإحكام . واحتفل بهذا الحدث بحماس كبير في المدينة وكأن نصراً عظيماً قد تحقق . ولكن لم يعد بالإمكان الخروج من القلعة التي أغلقوا أبوابها من الداخل بعد الآن .

في حين عاد الصديقان بيرم وأولوباتي مع مجموعاتهم .

الأحد ٨ نيسان

كان هذا اليوم هو يوم التحضير من أجل هجمات أكبر ستقام فيما

بعد .

حُفرت المتاريس .

ووضع في الخنادق المليئة بالماء ، الأتربة التي أزيلت من
المتاريس .

واصل الرماة ضرب كوة الأسوار . ولكن لم يتمكن هؤلاء من
تجاوز جولة الإحماء . إذ لم يكن هناك نجاح ملموس .

الاثنين ٩ نيسان

أولى البيزنطيون أهمية كبيرة للقرن الذهبي . في حين كان
الأتراك يخشون من تجاوز السلاسل المشدودة عليه . لأن ذلك
سيعرض الأسوار الضعيفة التي على طرف القرن الذهبي للخطر .

كان الكابتن أنطونيو يقود عشرة سفن كبيرة تابعة للأسطول
البحري . ألقى كلمة قصيرة على القباطنة قال فيها :

- أيها الشجعان ، إن واجبنا هو إبقاء العثمانيين الكفار بعيداً عن
القرن الذهبي . ولا أجرؤ على قول ما سيحدث إن لم نتمكن من
القيام بواجبنا هذا ، معاذ اليسوع . لذلك سنتوجه على الفور لحماية
القرن الذهبي .

نشر القباطنة السفن العشر في أماكن مناسبة من القرن الذهبي .
وسرعان ما عرفوا أن أنطونيو كان محقاً . تفحص الأسطول العثماني
بقيادة سليمان بالطة أوغلو السلاسل لأول مرة من أجل دخول القرن
الذهبي ، متجاهلاً سفن أنطونيو . وبجميع الأحوال تراجع دون

التقدم أكثر من ذلك ، فتنفس من هم خلفه في القرن الذهبي
الصعداء .

الثلاثاء ١٠ نيسان

اليوم هو يوم التفتيش . . .

زار السلطان برفقة قادته العسكريين قوات قابي كولي أولاً .

- كيف حالكم أيها الجنود !

- مستعدون للموت من أجل سلطاننا !

- لست بحاجة لموتكم من أجلي ، بل أن تحيوا . سأكون بأمان

بفضلكم . وسأهاجم بيزنطة بهذا الأمان . وإن لزم الأمر فإنكم

ستشاركون في هذه الهجمات . ومن دون الحاجة أبداً !

- سمعاً وطاعة !

ثم انتقل من المركز نحو الذراع الأيمن . قال إسحق باشا أمير

أمراء الأناضول أن جنوده بانتظار تعليمات السلطان كالسهم المستعد

للانطلاق من قوسه . وبالفعل كان كل جندي ينتظر أمر الهجوم

بعيون لامعة . في حين لن يتخلف جنود قراجا بك أمير أمراء روملي

في الذراع الأيسر ، عنه أيضاً .

كان السلطان ممتناً للغاية بحال الجنود .

- ليس هناك مدينة لن تفتح بهذا الجيش ، هكذا فكر .

كانت الجولة على أسوار المدينة من الأعمال المهمة في هذا اليوم . بدأ السلطان ، الذي يراقب الأسوار منذ فترة طويلة ، الغوص في عالم المعنى والتحدث معها . وخاطبها بلغة القلب قائلاً :

« أعلم قصتكم . كما أعلم كم أنتم قلقين في الوقت الراهن . . . ولكن لا تقلقوا . لست مثل الفرس ، والأمويين ، والروس والمجر الذين كان همهم فقط رفع أعلامهم على أبراجكم ؛ ولا أشبه البنادقة والجنويين على الإطلاق . أعدكم بحياة أكثر سعادة من حياتكم السابقة عندما آخذ هذه المدينة بإذن الله . وستذكروني لا « كطاغية لم يترك حجر على حجر » بل كسلطان عادل « يترك كل حجر على حاله »

انسحب السلطان محمد إلى خيمته عند خروجه من عالم المعنى الذي غرق فيه . هناك الكثير من العمل ليفعله .

الأربعاء ١١ نيسان

كان السلطان ما يزال متأثراً بالمحادثة التي أجراها مع الأسوار . وبالرغم من كونها حجر بلا روح فقد وعدّها ، بجعلها تعيش حياة أكثر سعادة من حياتها القديمة بعد أخذه المدينة .

ولكنه مضطر الآن إلى التسبب ببعض الألم لها . أمر بوضع مدافع الشاه في الخنادق القريبة من طوب كابة وجعلها جاهزة للرمي .

وفي اليوم نفسه استمع إلى السفراء الذين أرسلهم إمبراطور المجر . ورغم انزعاجه من تصرفاتهم الوقحة ولكن وجد أنه من المناسب الصبر في الوقت الراهن .

كان السفراء يقولون :

- لقد تغير الملك في بلادنا . وقد اعتبر الملك الجديد اتفاق السلام الموقع بيننا باطلاً . لأنه اتضح أنكم أبرمتم هذه الاتفاق للمماطلة بنا .

كان صبر السلطان محمد على وشك النفاذ . جال بنظراته الحادة على السفراء . من الواضح أنهم لم يكونوا يعرفون السلطان كفاية . كان جوابه واضحاً :

- انظروا جيداً في عيني أيها السفراء ، ماذا ترون ؟

- نرى زوج من العيون فقط ، لا شيء آخر .

- على ما يبدو ، يوجد خلل في أعينكم . وإلا لرأيتم أنني لا أهاب شيئاً !

- إن هذا ليس سوى دليل غرورك !

- في الحقيقة إن الغرور ، أو بالأحرى « الغرور الفارغ » ليس إلا تهديدكم لنا بمساعدتكم للبيزنطيين . لقد سئمنا من ذلك . اذهبوا وأخبروا إمبراطوركم أنه لا يوجد قوة في العالم وليس المجريين فقط باستطاعتها إنقاذ بيزنطة من بين أيدينا !
غادر السفراء المكان مستهزئين بكلام السلطان .

الخميس ١٢ نيسان

كان هناك انتظار مقلق داخل الأسوار . كان السلطان الشاب عنيده جداً . بل يمكن وصفه بالوقح عدا عن كونه عنيداً . لأن الكلمات التي وجهها إلى السفراء المجريين ليس من السهل تقبلها . ما هذا الكلام يا سيدي ، لا توجد قوة في العالم تستطيع إنقاذ بيزنطة من بين يديه .

غفا الإمبراطور قسطنطين غفوة قصيرة قبيل حلول الصباح ، ثم استيقظ على صوت جلبة هائلة . وكأن الأرض قد زحزحت من مكانها . ظن أنه زلزال . قفز من فراشه بسرعة . فماذا رأى ؟ تدفق الأهالي الذي سدوا آذانهم إلى الشوارع يهربون يمنة ويسرة . . . اختلط معه أيضاً الجنود الذين يحرسون الأسوار من جهة طوب كابة . . .

عرف بعد مدة قصيرة السبب وراء هروب الأهالي والعامّة يمنة

ويسرة مغلقين آذانهم . فقد أشعل السلطان المدفع الكبير . كان هذا اليوم يوماً أسود على البيزنطيين . حيث أحدث صوت مدفع الشاه ، الذي انفجر للمرة الأولى ، حالة من الهلع الشديد . لا شك أن هذا المدفع لن يطلق مرة واحدة في اليوم فقط . من يدري كم مرة سوف يطلق ، ومن يدري من سيصم آذانه بعد .

أثناء حدوث ذلك على البر ، وردت أخبار تفيد بأن الأسطول المنتظر في القرن الذهبي يمر بلحظات عصيبة . فقد قام الأسطول العثماني ، المؤلف من قرابة ٤٠٠ سفينة مختلفة الأحجام ، باستعراض عسكري أمام القرن الذهبي . كان ذلك كافياً ليرتجف الأسطول البيزنطي خوفاً . ولم يرغبوا بالتفكير حتى كيف سيكون حالهم لو لم تكن السلاسل التي تحمي القرن الذهبي موجودة .

الجمعة ١٣ نيسان ، السبت ١٤ نيسان

أطلقت مدافع الشاه الواحد تلو الآخر .

اتخذ البيزنطيون التدابير لكي لا يصموا آذانهم مرة أخرى . ولكن رائحة البارود المنتشرة في الأجواء والحجارة المتناثرة من الأسوار ، قد حطمت من معنويات العامة والجنود . كانت كل قذيفة من القذائف العملاقة البالغ وزنها ٦٠٠ كيلو ، تتساقط لا على الأسوار فحسب ، بل على قلوب البيزنطيين . وعقب ذلك على

الفور انهالت حجارة المنجنيق وأصاب الرماة أماكن الأهداف التي حددوها . كان هؤلاء الأتراك كالجوز الصلب جداً .

كان البيزنطيون يعملون بكل قوتهم من أجل ترميم الأماكن المتضررة في الأسوار . ولكن إنتابهم اليأس لكثرة الأماكن التي سيتم ترميمها .

كان هناك أمر جعل البيزنطيين سعداء مجدداً . لأن المدافع الضخمة يمكنها الرمي ثلاث أو أربع مرات فقط في اليوم . كان أولها يطلق مع أذان الفجر . وهو عادة شارة بدء القتال في ذلك اليوم . كما عرفوا بعض أوقات الإطلاق الأخرى . وإذا كان ذلك ممكناً ، لن يخرج أحد في هذه الأوقات ، وسينتظرون زوال الخطر من أماكن اختبائهم . ولكن لا أحد يملك أن يعرف هذا أثناء الحرب . لذلك اكتشف البيزنطيون أسلوب وقاية في أوقات إطلاق المدافع الضخمة : وهو التجول في الشوارع حاملين لوحة العذراء الموجودة في القصر لعلها تنقذهم .

الأحد ١٥ نيسان

كان السلطان محمد يعتقد أن الأمور تسير على ما يرام . كان واثقاً أنه إذا استمرت الأمور على هذا الحال فسوف يتسلم المدينة خلال وقت قصير . ولكن الحادث الذي تعرضوا له في هذا اليوم ،

قد أزعج السلطان والقادة العسكريين . وكان مهندسو سبك المدافع هم أكثر المستائين من ذلك . إذ أن مدفع الشاه الذي سبكه المهندس أوربان لم يعد يتحمل هذا المقدار الكبير من الرمي ، تصدع وتحطم إلى آلاف القطع نتيجة السخونة الزائدة .

لم يستطع قراجا بك كفكفة دموعه وهو يشرح للسلطان ما جرى :

- كما تعلم يا سلطاني ، لقد قدم مدفع الشاه خدمات عظيمة حتى هذا اليوم . وبفضله تصدعت الأسوار . وتحطمت معنويات الأعداء أيضاً . ولكن خلال الرمية الأخيرة . . .

التقط قراجا بك أنفاسه لبضع ثوان من أجل السيطرة على إنفعاله . لم يكن لدى السلطان محمد القدرة على تحمل هذا ، فقال :

- الوقت ليس مناسباً للبكاء يا قراجا بك ، أخبرني ما حدث !

- يا سلطاني ، قبيل رميته الأخيرة اليوم بدأ المدفع بالاشتعال من جميع جهاته . ومهما فعلنا لم نستطع إخماد النيران . وقد بذل المهندس أوربان جهداً أكبر منا جميعاً . ومهما يكن كان هذا المدفع بمثابة ابنه .

- ادخل في صلب الموضوع الرئيسي يا هذا !

- ثم سمعنا فجأة صوت قرقرة قوية تصدر من المدفع . وانبطح كل واحد منا على الأرض دون أن يجد الفرصة حتى للسؤال عما يجري . تحطم المدفع العظيم إضافة إلى الصخرة الضخمة الموجودة عند فوهته . وهناك جرحى في صفوفنا . كما أن . . .
- كما أن . . .

- كما أننا عثرنا يا سلطاني على المهندس أوربان تحت إحدى قطع المدفع ، وكأنه كان يعانق ابنه . .
- هل تقصد أن . . ؟

- نعم يا سلطاني . لقد قضى المهندس أوربان نحبه مع المدفع .
- طيب الله ثراه !
- جزاك الله خيراً يا سلطاني .

- الوقت ليس مناسباً للحزن على الموتى . لا بد من استخراج العبرة من ذلك .

سأل السلطان بدم بارد :

- ألم تفكروا أبداً ، لماذا اشتعل هذا المدفع ؟
- بسبب السخونة العالية أكثر من اللازم . . .
- والحل ؟

....

- أنا أكلمك يا قراجا بك ، ما الحل إذن ؟
- لم نجد حلاً بعد يا سلطاني ، ولكننا نفكر في ذلك .
- حسناً ، تابعوا التفكير إذن . في غضون ذلك جهزوا مدفع شاه آخر . ولكن حذاري أن تطلقوا قبل إيجاد حل ما .
- سمعاً وطاعة يا سلطاني .
- في مساء اليوم ذاته ، كان قراجا بك ومصلح الدين باشا عند السلطان . طأطأ كل منهما رأسه لعدم عثورهم على حل لاشتعال المدفع من السخونة الزائدة بعد . قال السلطان :
- ارفعا رأسيكما . أعلم أنكما مجتهدان . وأنكم تبدلان كل ما في وسعكما من أجل المدافع .
- أطال الله بقاء دولتكم يا سلطاني .
- اسمعاني الآن جيداً : سيتم تشحيم جميع المدافع بعد كل رمية ، وليس الكبيرة فقط . عندها ستبرد بسرعة أكبر وستتمكن من إطلاق المزيد من القذائف .
- نظر مهندسا المدافع إلى بعضهم البعض . كيف لم يفكرا بذلك ؟ هذا هو الفرق بينهم وبين السلطان . قبلوا رداً مغادرين المكان وشرعوا في تنفيذ ما قيل لهم .

الاثنين ١٦ نيسان

كانت وتيرة الحرب في هذا اليوم بطيئة . كما لو أن كلا الطرفين يستريحان . استمر رمي الأسهم على كوة الأسوار . بحيث لم يعد هناك أحد يلمح من الكوات ، لأن أي واحد قد يلمح منهم ، كان يصطاد مثل الطير .

كان السلطان يرغب في العثور على إجابة لسؤال لطالما حيره . فكر أن آق شمس الدين باستطاعته وحده المساعدة في ذلك . لهذا توجه في الحال نحو خيمة معلمه . حيث استقبل آق شمس الدين السلطان محمد في الخارج أولاً ثم استضافه في الداخل . وقد لفت انتباهه شرود ذهن طالبه :

- هناك ما يشغل بالك يا سلطاني . . .

- نعم يا معلمي ، أبحث منذ فترة طويلة عن جواب لسؤال ما .

- بما أنك أتيت إلى هنا فإنك بحاجة إلى مساعدتي . . .

- أنت الوحيد الذي يستطيع مساعدتي يا معلمي .

- لا يمكنني التفكير في مساعدتك دون سماع سؤالك أولاً . . .

- أنت محق يا معلمي . سؤالي هو : أين هو قبر أبو أيوب

الأنصاري يا ترى ؟ أرغب في الذهاب إلى هناك والدعاء . لأنني بحاجة إلى دعمه المعنوي .

- آمل أن أتمكن من مساعدتك إن شاء الله .

- إن شاء الله يا معلمي .

- إن هذا الرجل المبارك الذي استضاف رسولنا الحبيب في منزله ، لم يستطع الوقوف عاجزاً دون فعل شيء عندما سمع الحديث الذي يبشر بفتح القسطنطينية في يوم من الأيام . وقد تقدم في السن كثيراً عند انضمامه إلى الحملة التي قام بها الأمويين لفتح المدينة . حدث ذلك في عام ٦٦٩ إن لم أكن مخطئاً .

- هذا ما أعلمه يا معلمي . انضم أبو أيوب الأنصاري إلى حملة الأمويين لفتح المدينة ولكنه توفي في مكان ما بالقرب منها . وكانت وصيته الأخيرة هي حمل جثته حتى آخر نقطة بإمكانهم الوصول إليها ، ثم دفن في مكان تواجدهم آنذاك .
- وأنت الآن تسأل عن هذا المكان .

- نعم يا معلمي ، إن تمكنا بفضلك من العثور على المكان الذي دفن فيه أبو أيوب الأنصاري ، أود أن أدعو بالنصر لنا هناك . ثم بناء تربة ومسجد له . . .

نقل آق شمس الدين إلى السلطان بفرحة ما تذكره :

- رأيت أحلاماً غريبة منذ بضعة أيام . ربما وجدت الإجابة على

سؤالك .

تحمس السلطان وقال :

- أخبرني من فضلك ، أين هو هذا القبر ؟

- رأيت في أحلامي نوراً ينزل على موضع ما في منطقة أيوب كل ليلة . الله أعلم ولكن ربما القبر موجود هناك .

اتجه السلطان وآق شمس الدين إلى المكان المحدد دون إضاعة الوقت .

قال آق شمس الدين :

- ها هو ، أني أشاهد في أحلامي نوراً ينزل في هذا الموضع كل ليلة .

وبالفعل عثر الجنود في التربة التي حفروها على قبر في تلك المنطقة . كما وجدوا في الطرف العلوي من القبر على قطعة من الرخام مكتوب عليها : « هذا قبر أبو أيوب » .

لم يكن هناك ما يقال عن سعادة السلطان .

قبل يد معلمه .

رد الجميع على الدعاء الذي دعاه السلطان بصوت عال بالقول

« آمين » :

« يا رب ،

إننا هنا لنيل رضاك يا الله .

نرجوك أن تبلغنا البشارة التي ذكرها رسولنا الحبيب في أحاديثه
المباركة .

وارزقنا النصر إكراماً لأبي أيوب الأنصاري الذي انتظر فتح
القسطنطينية منذ مئات السنين .

إنك على كل شيء قدير . آمين » .

الثلاثاء ١٧ نيسان

انطلقت « الأبراج المتحركة » التي أعدها السلطان خلال بضعة
أيام ، تحت نظرات دهشة العدو .

أدرك البيزنطيون الحقيقة المرة عندما بدأت القنوات المليئة
بالمياه تمتلئ بالحجارة والتراب والحصى . كان هذا السلطان
يخترع شيئاً جديداً كل يوم يا أعزائي ! ولكن الأمر قد زاد عن حده !
ماذا سيحدث عندما تمتلئ الخنادق تماماً ؟ في الواقع ، لم يكن من
الصعب معرفة ذلك : ستحدث الهجمة الكبرى ! أخرجوا الصليب
لكي يخلصهم ، وأخذوا يدعون ، ويطوفون الشوارع حاملين صور
القديسين .

الأربعاء ١٨ نيسان

كان البيزنطيون على حق . فقد شرع الجيش العثماني بهجوم عام في وقت الشفق . ثم انسحبوا بعد اشتباكات عنيفة استمرت أربع أو خمس ساعات في منطقة أدرنة كابة لسبب ما . في الواقع ، لم تكن هذه الأمور خافية على أحد . ذلك أن الجيش العثماني كان يختبر قوة تحمل العدو . وبناء عليه سينفذون الهجوم الكبير .

في اليوم ذاته ، فتح سليمان بالطة أوغلو ؛ كينالي ، وبورغاز ، وهيلي وبيوك أضة . وكان هذا حصيلة يوم القصير .

الخميس ١٩ نيسان

لم يكن سهلاً اجتياز سلاسل القرن الذهبي . فقد فشل الهجوم العسكري الذي نفذته قائد الأسطول سليمان بك بالطة أوغلو . وغضب جداً . ولكنه حاول كبج مشاعره . وقال في نفسه ؛ فليكن ذلك ، لا بد أن تفكك السلاسل في يوم من الأيام وندخل القرن الذهبي . وليفكر هؤلاء بما سيحدث .

الجمعة ٢٠ نيسان

غاص في الرؤى التي ترى في الأسحار
السلطان الذي رأى النصر في أحلامه ،

غاص في الأبحار التي تنتظر الفاتح ،

السلطان الممتطي حصانه على البحر .

كان سليمان بالطة أوغلو غاضباً جداً عقب محاولته الفاشلة في دخول القرن الذهبي أمس . وراح يمطر جيشه الذي تحت إمرته بالأوامر واحداً تلو الآخر . لم يرد تكرار الفشل مرة أخرى . وبينما كان القائد يعمل في إمرته قرع الباب . كان المطارق واحد من الحراس . كان الانفعال واضحاً عليه فقال :

- شوهدت ثلاث سفن جنوية وسفينة رومية أمام زيتين بورنو !

- ما الذي يفعلون هناك ؟

- نعتقد أنهم جاءوا لنجدة البيزنطيين .

- أنت محق . بالطبع لم يأتوا لسؤالنا عن حالنا !

- ننتظر أوامرك لاعتراضهم .

- أخبر القباطنة أننا ذاهبون لاستقبال الضيوف .

- سمعاً وطاعة !

- لنذهب ولنلقنهم درساً قاسياً !

اعترضت مقدمة السفن الصليبية قبالة سواحل ساراي بورنو .

حدثت اشتباكات عنيفة بين السفن استمرت لثلاث ساعات .

وقد استغل الصليبيون كون سفنهم مرتفعة الجوانب أحسن استغلال . إضافة إلى هبوب الرياح مثلما أرادوا ، فامتألت أشرعتها بالهواء .

لم يستطيع بالطة أوغلو ، بالرغم من جميع الجهود التي بذلها ، منع السفن من العبور .

كان السلطان محمد يشاهد المعركة من التلة التي يقف عليها . ويشعر في نفسه بكل حركة من حركات السفن . وفي نهاية المعركة ، عبرت السفن الصليبية مرفقة بأعلامها ، فجن جنون السلطان . وتوجه بفرسه الأبيض نحو البحر . وغاص الفرس الأصيل في المياه حتى وصلت إلى منتصف بطنه وكأنه يقدر حال ممتطيه . ولولا منع أولئك الذين لحقوا به ممن حوله لكان غرق في المياه ومعه ممتطيه أيضاً .

في حين ارتفعت صيحات النصر في الجانب الآخر من السور .

السبت ٢١ نيسان

بدا وكأن رأس السلطان سيفعجر من المصائب . كان يبحث عن حل للمأزق الذي وقع فيه . جدد وضوئه عند الفجر . وصلى ركعتين . وفي نهاية الصلاة دعا دعاءً شعر من خلاله وكأن المكان الموجود فيه قد امتلأ نوراً . انشرح قلبه ، واطمأنت روحه .

وما لبث أن دخل أحد الإنكشارية الذين يحرسون الخيمة إلى عند السلطان ، وقال :

- لقد أرسل المعلم آق شمس الدين أمانة لكم يا سلطاني .

- خيراً إن شاء الله ، ماذا يمكن أن يرسل لنا معلمنا .

قال السلطان ذلك ثم أخذ الأمانة الملفوفة ، وحل بدقة الرباط الذي عليها . كانت رسالة . لقد أرسل المعلم الجليل رسالة إلى طالبه العزيز . بدأ بقراءة الرسالة بفضول . وفي أثناء ذلك خف الألم الذي في رأسه وزال الضيق الذي في قلبه . كما لمعت عيناه ، وشعر بقوة في أكتافه وطاقة في ركبته .

كتب آق شمس الدين في رسالته إلى السلطان العثماني ما يلي :

« سلام الله عليك يا سلطاننا صاحب الدولة . ولا حرمنا من خدمتكم .

ليس من الصعب أبداً أن نفهم حزن جلالتك على خسارة المعركة البحرية التي وقعت في الأمس . ولو اقتصر الأمر على حزنكم لكان ذلك مقبولاً . . . ولكنكم على دراية تامة بما قد يكون لذلك من عواقب وخيمة . ولهذا أود أن أعرض عليكم الأخطار التي أراها ، مستعملاً حقي بالأستذة . فسامحوني على هذه الجرأة .

أولاً ، لقد ارتاح العدو في نهاية هذه المعركة ، وارتفعت معنوياته .

ثانياً ، إن وجهة النظر التي تعتبر أن حكمك منقوص ، وقراراتك غير صائبة وكلامك عديم التأثير قد نجحت وبقوة .

ثالثاً ، يعني ذلك أنه لم تستجب دعواتنا .

وبالرغم من ذلك كله ، فإن الوقت غير مناسب للتراخي والليونة . ولا بد من معاقبة أولئك المعارضين للفتح والذين ثبت تقصيرهم في هذا الشأن بشدة ، بما في ذلك إقالتهم من عملهم . وإذا لم يحصل ذلك ، سيظهر الفتور نفسه مرة أخرى عند الشروع في هجوم جديد على القلعة . لأن القليل من هؤلاء مستعدّ للتضحية بحياته في سبيل الله . ولو أن الغاية من ذلك كانت أخذ نصيب من الغنيمة لما ترددوا في رمي أنفسهم في النار من أجل مال الدنيا .

إن أملنا ورجائنا منكم الآن هو كالتالي :

تشبث بعملك قدر ما تستطيع من الجدية والجهد .

وسلم هذا النوع من المهام إلى أولئك الذين سيبذلون قصارى جهدهم . وهو ما يتلائم مع الإجراءات السابقة والأوامر الدينية . ولا تنسى ما تفضل به مولانا جل جلاله : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ .

وفقاً لهذه الآية ، فإن أولئك الذين لا يبذلون ما في وسعهم

لإنجاز عمل ما والذين لا ينفذون أوامره عز وجل ، هم في حكم المنافقين وسيحشرون في جهنم مع الكافرين .

ولا يوجد حل آخر سوى ضبط الأمور بحزم أكبر والتعامل بمزيد من القسوة مع هذا النوع من الناس .

إن النصر من عند الله ؛ ولكن على العبد أن لا يترك جانب الجد والاجتهاد الذي يبذله .

هذه هي سنة رسول الله .

غفوت قليلاً بعد هذه الآيات التي قرأتها وأنا في حالة من الحزن . فرأيت في منامي بلوغي بعض الفضائل والبشائر من الله . فأردت أن تنال ما نلت من هذه الفضائل والبشائر .

أكتب هذه الرسالة من محبتي لكم الخالصة .

أقدم لكم تحياتي الباقية .

دمتم في أمان الله .

معلمكم آق شمس الدين « .

أراحت هذه الرسالة السلطان إلى حد كبير من معاناته . كان آق شمس الدين محقاً تماماً . ولا بد من التحرك فوراً لتنفيذ ما قاله . ما لبث أن حضر قائد الأسطول سليمان بك بالطة أوغلو إلى عند السلطان . كان بادياً عليه الحزن الشديد لخسارته المعركة البحرية

في الأمس . ولم يجراً على النظر حتى في وجه السلطان .

- سامحني يا سلطاني ، (استطاع قول ذلك فقط) ؛ لقد فشلتُ
في عرقلة السفن الصليبية .

- كان عليك ألا تفشل يا سليمان بك ! ألا تعلم أننا لا نملك
رفاهية خسارة أية معركة في هذه الحرب !

- سامحني يا سلطاني . . .

- لا مجال للمسامحة في هذا الموضوع ولكن . . .

شهب لون بالطة أوغلو . ماذا ستكون نهاية هذا الأمر يا ترى ؟

- لقد عفوت عنك . استرح قليلاً . ربما سأحتاجك في
المستقبل .

استطاع القائد تنفس الصعداء أثناء تقبيله رداء السلطان وخروجه
من عنده .

وفي اليوم نفسه ، كان حمزة بك حاكم سنجق غيلي بولو في
حضرة السلطان . قال :

- لقد طلبت حضوري يا سلطاني .

كان السلطان ما يزال متأثراً بهزيمة أمس : يهفهف وينفخ في
الهواء . ثم عدد أوامره بغضب :

- سوف تتولى قيادة البحرية من الآن فصاعداً !

- سمعاً وطاعة يا سلطاني !

- لا يمكنني تحمل هزيمة بحرية أخرى على الإطلاق !

- سمعاً وطاعة يا سلطاني !

- باشر عملك على الفور .

- سمعاً وطاعة يا سلطاني !

حمل حمزة بك عبثاً ثقيلاً على عاتقه . خرج من هناك داعياً أن يتمكن من البقاء سالماً من ذلك .

لم ينته اليوم بالنسبة للسلطان بعد . أصدر أوامره بإطلاق المدافع من جديد . ولكن الهدف في هذه المرة كان السفن الصليبية المتواجدة في القرن الذهبي . وبالرغم من جهوده كافة ، فشلت المدفعية في تحقيق أهدافها . وانسحب السلطان الذي لم يستطع تحمل هزائم جديدة إلى خيمته . فقد كان لديه نموذجاً لمدفع عجل عليه منذ فترة طويلة . دعا كلاً من المهندسين مصلح الدين وقراجا بك إلى عنده . وعند دخول المهندسين إلى الخيمة ، وجدوا السلطان منكباً في العمل على مكتبه . راقبوا عمل السلطان الشاب مدة من الزمن . ثم قالوا بينهم وبين أنفسهم : « ما شاء الله ألف مرة ! »

دخل السلطان في صلب الموضوع بمجرد أن انتبه إلى حضور المهندسين ، قائلاً :

- لقد طورت نموذج مدفع جديد .

نظر المعلمون إلى بعضهم البعض . كيف استطاع السلطان محمد تطوير نموذج مدفع بعد تطويره مدافع الشاه ؟ لم يدم فضولهم طويلاً حتى قال :

- كما تعلمون إن مدافعنا الحالية تقذف بخط مستقيم . وذلك يقلل من معدل إصابتها للهدف .

- أنت محق يا سلطاني .

- أما هذه المدافع التي رسمتها ستكون مستقيمة الشكل !

- ماذا تقصد بمستقيمة الشكل ؟

- أي أن القذيفة المنطلقة من فوهة هذه المدافع لن تذهب إلى الهدف مباشرة . . .

- أين ستذهب إذن يا سلطاني ؟

- سترفع أولاً إلى الأعلى ثم ستنزل على الهدف بشكل مستقيم من الأعلى .

- تقصد أننا ستمكن من توجيه ضربة تتعدى الأهداف وراء المرتفعات .

- بالضبط !

- حفظ الله ذكائك هذا يا سلطاني !

- وحفظكم الله وحفظ دولتنا أيها المهندسين .

- لنبدأ العمل في الحال .

- ودون أي تأخير أيضاً

خرج المهندسون حاملين معهم رسومات المدفع الجديد .

الليلة الواصلة بين ٢١ نيسان و٢٢ نيسان

مؤمن من جهة ، وذكي من جهة

يكتب التاريخ بمدافع الشاه

نور الوصال يتوارى في ذكائه

يبحر بين التلال بسفن قادس !

ربما ستكون الليلة نقطة تحول في الحصار . كانت الهزائم التي
مني بها في بعض المعارك ، وإن كانت على نطاق محدود ، قد
أحزنت السلطان . فقد كان السلطان المدرك بأن الحزن لن يجدي
نفعاً ، يرغب بالقيام بأمر يخطط له منذ زمن طويل . وبالطبع أراد أن
يستشير وزرائه بهذا الأمر كما اعتاد أن يفعل قبل اتخاذ أي قرار
مهم .

في مساء نيسان هذا مع بدء حلول الظلام ، كان الوزراء حاضرون أمام السلطان .

- هناك موضوع يشغل بالي منذ فترة طويلة . أود أن تعلموا به أيضاً . وأرجو أن ترشدوني مجدداً إلى الطريق الصحيح .

قال جاندارلي خليل باشا :

- كما تعلمون إن آرائكم هي أوامر بالنسبة إلينا وإن لم نتفق معكم من حين لآخر .

- لا أريد منكم تنفيذ أفكاري أو اختراعاتي الجديدة دون نقاش .
إن أفكاركم محل تقدير عندي أيضاً .

- كلنا آذان صاغية يا سلطاني !

- كما تعلمون ، تواصل مدفعيتنا ضرب الأسوار من ناحية البر .
ولكننا لم نحقق أية نتيجة بعد .

قاطع جاندارلي كلامه بأسلوب معبر :

- لقد عرضنا على جلالتك صعوبة هذا الأمر...

- إن مهمتنا هي تجاوز العقبات يا باشا ، مهمتنا جميعاً...
والآن ، أرى أن رمينا للقذائف من جهة البر فقط لا يكفي .

- أنت محق يا سلطاني .

- لذلك ينبغي علينا الهجوم على الأسوار من جهة القرن الذهبي .

- كيف سيحدث ذلك بوجود السلاسل عند مضيق القرن الذهبي ؟ إضافة إلى أن بالطة أوغلو عندما فشل في دخول القرن الذهبي ...

- هذا ما أود سؤالكم عنه أيضاً . ما الذي علينا فعله حتى تعبر سفننا إلى القرن الذهبي ؟

كان جميع الوزراء يعتقدون أن حدوث هذا الأمر غير وارد .
تحدث جاندارلي مجدداً ، قائلاً :

- هذا مستحيل يا سلطاني !

سأل السلطان بقية الوزراء :

- ما رأيكم يا وزراء دولتي ؟

لم أسمع صوتاً من أحد . مما يعني أنهم كانوا يشاركون وجهة نظر جاندارلي .

بدأ السلطان يتجول ذاهباً وإياباً داخل خيمته . كان واضحاً أنه يفكر في حل لهذا الموضوع . وأخيراً تحدث :

- إذا جعلنا السفن تعبر بين قاسم باشا وجدول ماتشكا الموجود في دولما بهتشه ...

فتح جميع الوزراء أفواههم من الدهشة . قال جاندارلي :

- لقد نسيت أن تلك المناطق يابسة يا سلطاني .

- كلا لم أنسى أيها الباشا ! أريد أن تعبر السفن من هناك
بالتحديد !

سحرت فكرة « عبور السفن إلى البر » الوزراء . إنه أمر غير قابل
للحدوث .

ولكن عند التفكير بالأمر بدأوا يدركون أن سيكسبون الحرب
بتحقيق أشياء تبدو مستحيلة . ما عدا جاندارلي بالطبع . كان ما يزال
متشبهاً بموقفه المعارض :

- إن فشلنا في تحقيق ذلك سوف نصبح مهزلة أمام العالم !

- لن نصبح مهزلة أو أي شيء آخر أيها الباشا ! سيقولون أن
السلطان قام بعمل جنوني آخر ولكنه فشل .

قال زاغنوس باشا :

- تبدو فكرتك منطقية يا سلطاني . منذ أن أخبرتنا بها وأنا أفكر
بكيفية القيام بذلك . إن استطعنا صنع زلاجات مناسبة عندها
سنتمكن من العبور فوق اليابسة والنزول في القرن الذهبي .

قال شهاب الدين باشا :

- أعتقد أن ذلك ممكن أيضاً ؛ وإلا ما الفائدة من ثيراننا وعرباتنا إذن ؟ سيجر هؤلاء السفن ، وتحل المسألة ...

- لقد أصدرت التعليمات بذلك !

تحدث جاندارلي بحسرة :

- إذن لقد اتخذت قرارك ودخل حيز التنفيذ بالفعل !

- أردت تجربة قراري عليكم أولاً . وقد أسعدني وجود العديد

من الوزراء الذين يؤيدونه . إذن لنباشر العمل في الحال !

وزع السلطان الأوامر على وزرائه وقادته العسكريين . كان الأمر

الأول لزاغنوس باشا وهو :

- إلحق بالمعسكر الذي أمام الأسوار في الحال ! واجعلهم

يواصلوا الرمي بالمدافع حتى منتصف الليل ! وأشعل النيران !

ولتقرع الطبول والأجراس وينفخ في الأبواق ! وأن يهجم مئة ألف

جندي على الأسوار بصيحات التكبير التي سيصيحون بها معاً حتى

منتصف الليل ! وأن يتوقف هذا الصباح عند حلول منتصف الليل

تماماً . وذلك ليفهم العدو هدفنا الأساسي !

- سمعاً وطاعة يا سلطاني !

والآن جاء دور القائد الذي سيفتح الطرق البرية للسفن . حفظ

القائد كل ما أمر به :

- ليجعل الحفارون والمجدفون الأماكن التي ذكرتها ، صالحة
لعبور السفن !

- سمعاً وطاعة يا سلطاني !

- ليصنع النجارون من خشب البقس ألواحاً خشبية ! وتوضع هذه
الألواح على الطرق التي ستعبرها السفن !

- سمعاً وطاعة يا سلطاني .

- وأن يحضر ألفان أو ثلاثة آلاف برميل من زيت الزيتون .
وتشحم تلك الألواح الخشبية بالزيت مما يسهل حركة السفن !

ثم جاء دور حمزة بك ، قائد الأسطول . كان السلطان قد خبأ
الأوامر المهمة له :

- وأنت أيها الأدميرال حمزة بك ، سيكون الأسطول على أهبة
الاستعداد .

- سمعاً وطاعة يا سلطاني !

- وستنطلق السفن بمجرد صدور أمري بذلك !

- سمعاً وطاعة يا سلطاني !

- وستسحب خمسون سفينة إلى اليابسة تبعد عن بعضها البعض
مسافة قدرها خمسين ذراع (الذراع الواحد يساوي ٧٥ سم تقريباً) .

- سمعاً وطاعة يا سلطاني !
- سيكون البحارة داخل السفن .
- سمعاً وطاعة يا سلطاني !
- ستفتح الأشرعة !
- سمعاً وطاعة يا سلطاني !
- ستسحب المجاديف !
- سمعاً وطاعة يا سلطاني !
- سيسحب كل سفينة ١٠ أزواج من الجواميس و ٢٠٠ جندي شجاع !
- سمعاً وطاعة يا سلطاني !
- ما لبثت أن انطلقت السفينة الأولى .
- رَفَعَ إبحارُ السفن على اليابسة من معنويات الجنود إلى أعلى مستوى . كانوا يطلقون بقم واحد ودفعة واحدة صرخات البهجة ، وتتعالى في السماء صيحات التكبير .
- تبعَت بقية السفن السفينة الأولى . وأخيراً ، تم إخراج ٦٧ سفينة على سطح أرض بيرأ (بيوغلو حالياً) طيلة الليل ، وأنزلت في مياه القرن الذهبي قبل حلول الصباح .

الأحد ٢٢ نيسان

تابع الإمبراطور قسطنطين العمل حتى الصباح . مما أدى إلى توسع الأوعية الدموية في عينيه من شدة الأرق . لقد حاربت بيزنطة ببسالة حتى هذه اللحظة . كما أحرز الأسطول الصليبي الذي جاء لنجدتهم ، انتصاراً باهراً أمام السلطان . ولكن لم يكن لدى أولئك الموجودون خلف الأسوار أية رهبة طيلة ١٥ يوم الماضية من الحصار . كان السلطان يواصل حصاره بكل حزم وإصرار . من الواضح أنه حتى جاندارلي أكثر الموثوق بهم ، قد فشل في كسر عزيمة السلطان . وكأن المدافع العثمانية العظيمة المسماة « الشاه » لم تكن كافية لكي يخترع الآن مدفعاً يمطر الموت من السماء إلى الأرض . من ذا الذي يخطر في باله أمر كهذا ؟

كانت محنة الإمبراطور تزداد في داخله مع استمرار الحصار . اقترب من نافذة مقر قيادته لاستنشاق بعض الهواء . وعند اقترابه من هناك أخذ يفرك عينيه . ثم أمعن النظر مرة أخرى ظناً منه أنه يحلم من شدة الإرهاق . كلا ، لم يكن يرى حلماً . إن السفن العثمانية داخل القرن الذهبي على الضفة التي يتواجدون هم فيها ! كان الجنود البيزنطيون يركضون يميناً ويسرة مندهشين لا يعلمون ما عليهم فعله ، يشيرون لبعضهم البعض إلى السفن العثمانية .

صرخ الإمبراطور من النافذة :

- ما هذا التهاون ! ما هذه الفضيحة !

في الوقت نفسه ، بدأ قادة جيشه بالتهافت على مقره واحداً تلو الآخر . ويقولون دفعة واحدة :

- السلاسل سليمة تماماً !

- لم يتم التعرض إلى سفننا !

- لقد جاؤوا من البر !

- أتت السفن من البر !

زمجر الإمبراطور قائلاً :

- وأنتم أين كنتم ؟

- لقد أخذ العدو يماطلنا حتى منتصف الليل .

- أشعلوا النيران !

- دقوا الأجراس وعزفوا !

- ثم انقطعت أصواتهم عند منتصف الليل .

- ظننا أنهم قد تعبوا كثيراً .

- يبدو أنهم قد خدعونا .

- لم نفكر في أمر كهذا أبداً .

- كيف لم تفكروا في أمر كهذا ؟ انظروا ما تزال رائحة النبيذ تفوح من أنفاسكم .

قال أحدهم :

- أنت من وَزَعَ النبيذ علينا أيها الإمبراطور .

صب الإمبراطور جام غضبه عليهم قائلاً :

- أنتم يا براميل النبيذ يا أيها القفف (الأوعية) . . . هل طلبت منكم أن تفقدوا وعيكم إلى هذه الدرجة ؟ اخرجوا من هنا . . .

سمع القادة أثناء مغادرتهم بخنوع الإمبراطور وهو يأمر قائلاً :

- أنت يا قائد الأسطول ستتحمل مسؤولية التخلص من هذه الفضيحة . وإلا فإنك تعلم ما سيحل بك .

تولى القائد قيادة أسطوله غاضباً . وصبَّ اللوم والعتاب الذي تلقاه من الإمبراطور أضعافاً مضاعفة على القباطنة .

كان من المفترض بهم اتخاذ وضعية الحرب على الفور . ولكنهم كان مضطرين إلى استعادة وعيهم أولاً . . .

أدرك الإمبراطور أن الأمر ليس مزحة . فأرسل على الفور وفداً من السفراء إلى السلطان . لم يكن هؤلاء يشبهون السفراء الوقحين الذي زاروا السلطان من قبل . انحنى أكتافهم وطأطأت رؤوسهم .

وقدموا إلى السلطان العرض الجديد للإمبراطور :

- إن إمبراطورنا على استعداد لقبول أقصى الشروط . يعرض عليكم منحكم مورا عوضاً عن القسطنطينية ، شريطة رفعكم الحصار وترككم بيزنطة وشأنها .

انعكس حب الفتح على وجه السلطان . كان يتنفس الفتح مع كل نفس من أنفاسه ، ويهتف به مع كل كلمة يقولها . وأي جملة قد ألفها أو سيؤلفها لم تضع هباء في فضاء السماء ، بل انتقلت إلى المستقبل على شكل صفحات ذهبية مصنوعة للتاريخ . وقال جملته الأخيرة بهذا الإيمان :

- إما أن آخذ بيزنطة أو ستأخذني هي !

غادر السفراء المكان وكأن العالم قد إنهار فوق رؤوسهم .

الاثنين ٢٣ نيسان

بدأت السفن العثمانية الموجودة في القرن الذهبي العمل على الفور . كانت مهمتها الأولى هي بناء جسر بين كومبارا خانة ودفتردار . كان هذا الجسر مثيراً جداً للاهتمام . حيث ربط أكثر من ألف برميل ، وقارب وخطاف حديدي مع بعضهم البعض . وفرش بالألواح الخشبية . كان بوسع المدافع العبور فوق هذا الجسر المتين جداً ، وأن يسير عليه خمس أشخاص جنباً إلى جنب بكل سهولة .

وبهذا تم ضمان الاتصال بين تلال غلاطة والأسوار البرية لدى القوات العثمانية .

أما بالنسبة إلى البيزنطيين فقد حل الخوف مكان الدهشة لديهم . وأخيراً ، دعا الإمبراطور ، الذي أدرك أن الخوف لن يغير القدر المكتوب ، « مجلس الاثنا عشر » للاجتماع في كنيسة سانتا ماريا . وبعد تبادل لوجهات النظر ، صدر القرار بإحراق السفن التركية غداً عن طريق هجوم مفاجيء .

الثلاثاء ٢٤ نيسان

أجل الجنويون موضوع حرق السفن أربعة أيام بحجة أن العدو في حالة تاهب . ولكن سيعرف البيزنطيون غاياتهم الحقيقية من وراء ذلك بعد مرور وقت طويل .

أرسل الجنويون سراً ثلاثة رجال مختارين إلى السلطان . كان لدى السلطان تعاطف مع هؤلاء الناس الذين لا يصعبون الأمور على أنفسهم . فقد أبلغ الموفدون الذين جاؤوا إلى السلطان العثماني ، أن البيزنطيون سيقدّمون على حرق السفن التركية الموجودة في القرن الذهبي بعد أربعة أيام .

هكذا هي الحرب . لم يكن واضحاً من ومتى وما الذي سيفعله . غير أن السلطان كان موقناً بأن الأمر الأهم هو منح الثقة

للناس بشكل عادل . كان يعتقد أنه بذلك قد كسب تعاطف البنادقة .
(الصواب : الجنويين) أمر السلطان الذي شكر الموفدين بإرضائهم
ومكافأتهم .

٢٤-٢٧ نيسان

تم نصب مدفع فوق الجسر على القرن الذهبي . بدأ المدفع
بضرب السفن البيزنطية من جهة وضرب الأسوار الموجودة على ذلك
الطرف من جهة أخرى .

وفي الوقت الذي عجز فيه البيزنطيون عن التعامل مع نار مدفعية
أحادية الجانب ، أصبحوا الآن بين نارين . ولكنهم استمروا في
الدفاع عن أنفسهم روحاً وجسداً .

السبت ٢٧ نيسان

وبالفعل حدث ما قاله الجنويون . وبدأت السفن البيزنطية
بالتحرك وهي عازمة على حرق السفن العثمانية مع غروب شمس
اليوم الرابع .

كان القبطان البندقي كوكو يقود هذا الهجوم . في المقدمة كان
هناك قارب محمل بأكياس من الصوف وبالات القطن . وكان يتبعه
سفيتين صغيرتين من نوع قادس . كانتا مليئتان بالبارود من

الداخل ، ومغطاة بالزفت من الخارج . حيث سترك هذه السفن - القابلة للاشتعال بأية شعلة نار صغيرة - الأسطول العثماني وسط النيران .

لم يصدر أي صوت من أسطول السلطان محمد . يبدو أن ملاحى السفن قد استغرقوا في النوم من شدة التعب . لم يخطر على بالهم أن منفذي الهجوم سيقدمون على أمر كهذا .

كان قد فات الآوان عندما أدرك القبطان كوكو ، الذي يحلم بالنصر ، أن الأمور لن تجري كما هو مخطط لها .

فقد استيقظ الملاحون الذي يفترض أنهم نائمون ، دفعة واحدة عند اقتراب السفن من قاسم باشا . وفيما بعد انفجرت المدافع العثمانية الواحدة تلو الأخرى . . . ثم بدأت السفن المليئة بالبارود بالاشتعال . . . وبذلك هبت النيران في السفن البيزنطية عوضاً عن السفن العثمانية . . . وغرق القبطان كوكو مع ١٢٠ من أفراد طاقمه في المياه . . . وأخيراً كانت الخسارة !

الأحد ٢٩ نيسان

كان يوماً عادياً آخر من أيام الحرب . . . عَيَّن البيزنطيون قبطان آخر مكان القبطان كوكو الذي ذهب لاصطياد السفن العثمانية فاصطادته هي .

وكما ذكرنا كان يوماً عادياً آخر من أيام الحرب .

٣٠ نيسان - ٢ آيار

كان الجانب الملفت للانتباه في هذه الأيام هو تفاقم مشكلة نقص الأرزاق في المدينة إلى حد كبير . حتى أن الإمبراطور بدأ يوزع الخبز المخصص للجند أنفسهم .

كان السلطان الذي كان على علم بكل ما يجري داخل بيزنطة عن طريق جواسيسه ، واثقاً بأن سقوط المدينة قد بات مسألة وقت فقط . فأمر بضرب الأسوار دون انقطاع . لدرجة أنه لن تتاح الفرصة للعدو للتنفس .

الخميس ٣ آيار

عاشت بيزنطة أمراً أسعدها ولو قليلاً : فقد فتح المدفعان المنصوبان على أسوار القرن الذهبي النار على الأسطول العثماني وأغرقوا إحدى السفن . ولكن كان لدى السلطان أشغال أهم من الغضب من هذا الحدث : وهي مواصلة الحصار حتى سقوط المدينة . . .

الجمعة ٤ آيار

لم يغفل السلطان عن إتخاذ التدابير اللازمة رغم عدم توفر الوقت لديه للقلق أو الغضب على تلك السفينة الغارقة . فقد نجحت المدافع الثلاث الموضوعة على تلة قاسم باشا في إسكات المدفعية

البيزنطية . مما تسبب في حالة خوف جديدة لدى بيزنطة . وباتوا يشعرون وكأنهم محاصرين من كافة الجهات .

حضر زعماء الدين والضباط إلى عند الإمبراطور البيزنطي لمناقشة الوضع الحالي . كانت ملامح الخوف والقلق بادية على وجوههم . تحدث الأعلى رتبة بينهم قائلاً :

- يا إمبراطورنا الموقر ، نعلم أنك متعب من العمل .

- إن التعب والإرهاق ليس مهم ، يكفي أن نتخلص من المصيبة التي بلينا بها .

- إن جلّ ما يريده الجيش هو رؤيتك سالماً إلى جانبهم .

- ماذا يعني ذلك ؟ كما ترون إنني في أتم الصحة والعافية . .

- لا نقصد ذلك .

- ماذا تقصدون إذن يا أصدقائي ، تكلموا معي بوضوح .

- نقول لو أنك تنتقل إلى مكان أكثر أماناً . . .

- هل تريدون مني مغادرة المدينة ؟

...-

- هل أترك مدينتي وأهرب كالدجاجات الخائفة ؟

- لا يسمى ذلك هروب . . .

- إذاً ماذا يسمى يا أخي ، ماذا يسمى ؟

- يسمى احتراز فقط . . .

- لا أريد . لا أريد مثل هذا الاحتراز . افهموا ذلك .

شعر الذين صارحوا الإمبراطور بتلك الفكرة بالحرص من أنفسهم
لكونهم لا يمتلكون الشجاعة الكافية التي يمتلكها . وغادروا المقر
مطأطئين رؤوسهم .

السبت ٥ آيار

كان زاغنوس باشا . . مربى السلطان أثناء طفولته . . . الرجل
الأكثر ثقة الآن . . . كما كان كالصقر تماماً . . .

انعكست موهبته الفطرية على إدارته للجيش . . . كانت المدافع
الكبيرة الموضوعة فوق أراض غلاطة وبيوغلو تواصل ضرب المدينة
والأسطول البيزنطي . . . مما منع العدو من التنفس للحظة .

الأحد ٦ آيار

أصدر السلطان أوامره إلى الضباط وهي :

- ليهاجم ٣٠ ألف جندي أسوار طوب كابة بعد غروب الشمس !
اختلطت أصوات الطبول والأجراس مع صيحات التكبير . حيث
هاجم ٣٠ ألف محارب ناحية طوب كابة ، في هذه البقعة الضعيفة

من الأسوار مباشرة . ولكن لم ينالوا أية نتيجة من الاشتباكات المستمرة قرابة ثلاث ساعات . ولكن في واقع الأمر ، كان البيزنطيون في تقهقر متزايد يوماً بعد يوم . وبات سقوطهم مسألة وقت فقط . وهو ما يعتقده السلطان ، ويواصل هجماته دون انقطاع .

الاثنين ٧ آيار

سُتِمت السفن البيزنطية من قذائف المدفعية العثمانية . ولم يكونوا يرغبون في وقوع خسارة جديدة . ولهذا السبب ، اتخذوا وضعية الدفاع من أجل حماية السلاسل على الأقل .

٨ - ١٢ آيار

بينما كان السلطان يستعد لهجوم أقوى من الهجمات السابقة ، كان البيزنطيون مشغولين في ترميم الأسوار .

السبت ١٢ آيار

- يا وزراء دولتي ، ويا قادتي الشجعان ، لقد كبدنا العدو خسائر فادحة ولكن لم نستطع بعد إنزال الضربة القاضية بهم .
سيتم هذه المرة مهاجمة الأسوار بين أدرة كابة وقصر تكفور بقوة مؤلفة من ٥٠ ألف شخص !

تم تنفيذ أوامر السلطان بحماس كبير . غير أن إسقاط المدينة لم يكن ممكناً بعد .

كان السلطان متوكلاً على الله ثم على جيشه وأسلحته . لم يفقد أمله أبداً . كان هناك أمر تعلمه من تلك المحاولات الفاشلة هو : إن المدينة بتسع أرواح ، لذلك ينبغي القيام بأكثر من حملة واسعة عليها . . .

الأحد ١٣ آيار

بينما كان السلطان محمد يحضر للقيام بحملة واسعة ، بدأت ٤٠٠ سفينة تابعة للبنادقة بقيادة غابرييل بالمساهمة في الدفاع عن المدينة عبر ترميم الأسوار بجوار أيفان سراي . ارتعد السلطان عند سماعه بهذا الأمر ، قائلاً :

- حتى وإن دعوا العالم كله لنجدهم ، سأكون جباناً إن تراجعحت خطوة واحدة .

١٤ - ١٥ آيار

جرى في هذين اليومين ، رمي كثيف من المدفعية العثمانية ، يقابلها جهود بيزنطية لترميم الأسوار المدمرة .

استأثرت فكرة الفتح بالسلطان بشكل كامل . كان يبذل جهداً مضاعفاً من أجل تحقيق ذلك . فقد كانت « مدافع الشاه » ، و « المدافع التي ترمي جواً » و « تسيير السفن على اليابسة » كلها أمور لم يرى مثيل لها من قبل . علاوةً على ذلك ، كانت الغاية من هذا الحصار في حد ذاتها مصدراً معنوياً . وبينما كان القائد يحاول أن يكون قائداً يفتخر به النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، كان الجنود في جهد محموم لبلوغ المجد نفسه . وبعد هذا كله لا بد أنهم سيبلغون الغاية المنشودة . وهو ما يتطلب القليل من الوقت والصبر فقط .

في هذه المرة اقترح السلطان على عمال التنقيب اقتراحاً آخر . حيث سيحفر هؤلاء نفقاً تحت الأسوار بين القرن الذهبي وأدرنة كابة . وبذلك سيصبح من الممكن العبور من تحت الأسوار إلى الجانب الآخر .

في حين لم يقف البيزنطيون مكتوفي الأيدي . وبصرف النظر عن مدى صعوبة الظروف التي هم فيها ، فقد كانوا بارعين كالعادة في أمور الدفاع . وانتبهوا إلى نشاط حفر العثمانيين للأنفاق في الوقت المناسب . كان بانتظار جنود السلطان محمد عند المنطقة الواقعة بين

السورين مفاجأة سيئة : فقد هدم البيزنطيون الأنفاق واستشهد
عشرات الجنود .

الجمعة ١٨ آيار

لم تكن بداية هذا اليوم جيدة بالنسبة للبيزنطيين . فقد رأى
المستيقظون مع بزوغ الفجر برجاً خشبياً ضخماً أمامهم . كان البرج
كبيراً جداً لدرجة يمكن النظر إلى الأسوار من قمته . كما كان
متحركاً . وكان مغطى بطبقتين من جلد الثور الرطب لحمايته من
خطر الحرق . وكان يصعدون إلى الطوابق العلية عن طريق
السلالم . كان هناك نوافذ صغيرة على سطحه من أجل إطلاق النار .
بلغت دهشة البيزنطيين عند إسناد العملاق المتحرك على الأسوار
أقصى حد لها .

كانوا يلقون الشتائم على السلطان العثماني . كان هذا الرجل
مصيبه بالنسبة إليهم . ويستحق شتى أنواع الشتائم من وجهة
نظرهم .

حاولوا بعد الدهشة الأولى تلك التصدي للبرج بكل ما أوتوا من
قوة . حيث استشهد بعض الجنود العثمانيين الذين حاولوا تسلق
الأسوار من البرج بالنار الإغريقية رغم إصابتهم بالأسهم الملقاة من
النوافذ الصغيرة . وبالرغم من تغطية البرج بطبقتين من جلد الثور

الرطب فإنه أولاً وأخيراً مصنوع من الخشب . ولهذا السبب نجح البيزنطيون في حرق البرج بجهد كبير . وقد تمكن بعض الجنود العثمانيين الذين رأوا اشتعال البرج من الهرب وإنقاذ حياتهم . في حين أجبر القسم الآخر على الاستسلام للنيران الحارقة . وبالطبع ساهم هذا الحدث في رفع المعنويات داخل بيزنطة .

السبت ١٩ آيار

تراجعت معنويات البيزنطيين المرتفعة في الأمس بشكل كبير . فقد بنى العثمانيون جسراً من الألواح الخشبية بين ساحل غلاطة وبوابة أفجيلار لاستخدامه في هجوم عام سيقومون به . كما لم تترك صيحات التكبير المرتفعة في السماء مع الانتهاء من بناء الجسر ، شيئاً يذكر من معنويات البيزنطيين .

الأحد ٢٠ آيار

بدأ ناقوس الخطر يقرع بقوة بالنسبة إلى بيزنطة . فقد دمرت المدافع الكبيرة التي ألقت القذائف الضخمة البالغ وزنها ٦٠٠ كيلو ، الأسوار تماماً . أثارت رؤية تزايد صعوبة ترميم الأسوار رغم الجهود الكبيرة المبذولة ، الرعب في قلب الإمبراطور . ولكن ما الحل ، إن الخوف لن يغير القدر المكتوب .

الاثنين ٢١ آيار

أمر الإمبراطور بقرع جميع أجراس الكنيسة . دوت أصوات المعدن في السماء . وانسحب البيزنطيون جميعهم جنوداً ومدنيين ، الذين أدركوا وجود وضع غير اعتيادي ، إلى خطوط الدفاع . كان حقاً هناك وضع غير اعتيادي . فقد اقترب الأسطول بقيادة حمزة بك بسرعة كبيرة من منطقة تواجد السلاسل عند مدخل القرن الذهبي . استنتج الإمبراطور من تلك التحركات أن العثمانيين سيشنون هجوماً شاملاً ، وأمر بقرع الأجراس . غير أن السلطان لم يكن يفكر في هجوم شامل بعد . وإنما أراد من تحركات الأسطول هذه أن يختبر ردة فعل العدو فقط . وعرف جيداً الآن أن أيام بيزنطة أصبحت معدودة . قال في نفسه : انتظر ، انتظر قليلاً بعد !

في اليوم نفسه ، بدأ عمال التنقيب بحفر نفق جديد بجوار أغر كابة وتقدموا بها حتى أساسات الأسوار .

الثلاثاء ٢٢ آيار

انتبه الجنود البيزنطيون إلى أعمال حفر النفق بالقرب من أغر كابة . وقاموا بالعمل الذي يبدعون به وأشعلوا النار داخل النفق . مما أودى بحياة العديد من العمال الذين لم ينجو من الدخان الكثيف .

الأربعاء ٢٣ آيار

كان السلطان محمد مدركاً أن بيزنطة منهكة بالكامل . وأن إنزال الضربة القاضية مسألة وقت فقط . واستناداً إلى فكرته الأخيرة هذه أرسل للمرة الأخيرة قاسم بك إسفنديار أوغلو سفيراً إلى الإمبراطور .

تحدث الإمبراطور الذي استقبل السفير قاسم بك محاولاً التظاهر بالقوة قائلاً :

- إذن يطلب السلطان منا تسليم المدينة مرة أخرى .
- هذا صحيح يا حضرة الإمبراطور .
- ويبيدي حزنه على سفك المزيد من الدماء .
- هذا صحيح يا حضرة الإمبراطور .
- ألا يعلم سلطانكم أن هذه الحرب هي حرب شرف بالنسبة لي ؟
- إن سلطاننا يقدر شجاعتكم .
- أ طال الله عمره . وأنا أيضاً أقدر شجاعته . فقد جعلنا نعاني من مصاعب لم نعرف مثيل لها من قبل .
- إنها الحرب أيها الإمبراطور . لا بد أن تنكسر جرة من جرتين ارتطمتا ببعضهما البعض . غير أن السلطان يرغب بأن لا تنكسر أية جرة من الجرات !

- لتتكسر يا سيدي ، لتتكسر !

- إذن ما تقصدون قوله هو... .

- أقصد أنني عازم على مواصلة هذه الحرب حتى آخر قطرة من دمي . ولن أسمح للتاريخ بأن يذكرني كإمبراطور قد سلم مدينته .
افهموا ذلك !

- أنت أدري بذلك أيها الإمبراطور ، أنت أدري بذلك .

لم يفاجئ جواب الإمبراطور السلطان محمد . وأنا لو كنت مكانه لفعلت الشيء نفسه ، هكذا قال .

الخميس ٢٤ آيار

كان الجميع يرى أن الوضع في بيزنطة مستمر في التدهور أكثر فأكثر . وإذا استمر الوضع هكذا لن تصمد المدينة سوى عدة أيام وستسقط . في حين واصل البيزنطيون ترميم الأسوار المدمرة كجهد أخير منهم .

استعان البيزنطيون ، الذين أدركوا أن ترميم الأسوار لن يجدي نفعاً ، بواحدة من أفضل الطرق المعروفة لديهم : نشروا عن طريق جواسيسهم خبر وصول الأسطول البحري الإيطالي عن طريق البحر والجيش المجري عن طريق البر من أجل نجدة المدينة . أرادوا بذلك إرباك الجيش العثماني . ربما قد تظهر مجموعة معارضة

للسلطان حقيقة ذلك وتساهم في رفع الحصار . وسيتضح عما قريب
نتيجة هذه التخمينات .

الجمعة ٢٥ آيار

عُقدَ اجتماع بحضور كثيف في آيا صوفيا . طلب رجال الدِّين
وقادة الجيش من الإمبراطور مغادرة المدينة . استشاط الإمبراطور
قسطنطين غضباً من اقتراحهم هذا وقال :

ماذا تحسبوني ؟ هل أنا دنيء ووضيع حتى أترك المدينة
وأهرب ؟ هل أخون مدينتي بينما تخلص الكلاب لبيوتها ؟

تحدث القائد جوستنياني على لسان جميع المشاركين في
الاجتماع قائلاً :

- سيذكر التاريخ كم كنت شجاعاً . بل إن التفكير بغير ذلك مناف
للعقل . وبالرغم من عدم رغبتنا بذلك ولكن ماذا سيحل بالرعية إن
سقطت في ساحات المعارك ؟ نرجو منك التفكير في هذا .

- أنا واثق أن شعبي سيكون ممتناً بانقضاء أجلي هكذا ، وسيقدر
الأشياء التي تكبدتها من أجله .

- إقبل عرضنا هذا على الأقل أيها الإمبراطور .

- وما هو ؟

- لننقل نساء القصر إلى إحدى السفن ، وننقذهم بذلك على الأقل .
قال الإمبراطور :

- إن ذلك ممكن ، نفذوا ذلك . ولكن لا تأتوني باقتراح آخر بعد
الآن .

السبت ٢٦ آيار

كان البيزنطيون يأملون قدوم الجيش المجري لنجدتهم . كانوا
يعتقدون أنه لو تحققت تلك الإشاعات التي نشروها لتخلصوا من
السلطان العثماني . أراد قسطنطين استخدام هذه الفكرة كورقة رابحة
ضد السلطان محمد وإن كانت محض خيال . فأرسل وفداً من
السفراء إلى السلطان معلقاً آماله على ذلك .

كان السلطان منهمكاً بالحرب من ناحية ، وبالمناورات السياسية
من ناحية أخرى . . . ولكن ما الهدف الحقيقي للسفراء هذه المرة ؟
سيعلم ذلك عما قريب .

حضر السفراء أمام السلطان . ووقفوا هذه المرة ورؤوسهم
مستقيمة أكثر هذه المرة مقارنةً بالمرّة الماضية . وكأن ثقتهم بأنفسهم
قد ازدادت . وبدأ رئيس الوفد بالكلام قائلاً :

- يا حضرة السلطان ، لقد واصلتم الحصار رافضين الاقتراحات
التي قدمناها لكم سابقاً .

- قد نقبل بعرض واحد منكم فقط .

- ما هو يا حضرة السلطان ؟

- أن تسلموا المدينة بالطبع !

رغم انزعاج وفد السفراء من موقف السلطان هذا ، ولكنهم حاولوا إخفاء ذلك .

- إنك كثير المزاح أيها السلطان !

- بل على العكس لا أذكر أنني كنت بمثل هذه الجدية من قبل .

- وماذا إن أخبرتك بأن الجيش المجري قادم لنجدتنا ؟

- هل هذا ما يزيدكم جرأة ؟ لا تنسوا أن الحاملة لا تعود بالماء الذي تحمله !

- إنهم ليسوا حاملة مياه أيها السلطان... إننا في العالم المسيحي كالأنهار المتدفقة إلى مياه بحر مشترك .

- نعم هذا واضح جداً ، واضح من أولئك الذين سيتركون بيزنطة لمصيرها المحتوم !

- ستفهم قريباً يا حضرة السلطان أن بيزنطة ليست وحدها . ولهذا يقول لك الإمبراطور... .

- ماذا سيقول إمبراطوركم لي ؟ هل يريد مني رفع الحصار ؟

- هذا ما يريده بالضبط يا حضرة السلطان .

- لقد أخبرتكم سابقاً . ابذلوا ما في وسعكم ! وإن أردتم ادعوا العالم المسيحي جميعه للقدوم لنجدتكم ! سينتهي الحصار في اليوم الذي نتسلم فيه المدينة ! إن قدّمتم لي مثل هذا العرض مرة أخرى سيكون تعاملي معكم مختلف تماماً !

كانت هذه الجملة الأخيرة كافية لزعزعة السفراء . وأدركوا أن تلك الكلمات ليست مجرد مزحة .

ودع الضباط السفراء .

انسحب السلطان الذي أعطى السفراء الرد المناسب ، من أجل أخذ قسط من الراحة . ربما كان من الأصح وصف ذلك تقييماً صحيحاً للأحداث وليس استراحة . كان السلطان يحدث نفسه كعادته :

« لقد سمعت بنفسك الأقاويل المتداولة بين الجنود منذ عدة أيام . ربما قد أدى طول أمد الحصار إلى خفض معنويات البعض منهم . فقد كانوا واثقين بقدوم قوات لنجدة بيزنطة . وقد يرغبون ربما برفع الحصار من أجل إنقاذ أرواحهم . أتفهم موقف هؤلاء . ولكن وجود رجال دولة مثل جاندارلي خليل باشا يدعون إلى إلغاء الحصار كلما سنحت لهم الفرصة . . . كان أسلافنا محقين حين

قالوا : إن الذبابة صغيرة ولكنها كافية لإصابتك بالمرض . لذلك ينبغي علينا سحق رأس الأفعى قبل أن يكبر . يجب علي أن أرتب اجتماعاً في الحال وأن أرفع معنويات الجيش إلى أعلى مستوى . ربما يكون قد فات الأوان حتى الغد . لذلك ينبغي علي القيام بذلك اليوم وفي هذه اللحظة » .

لم يمض وقت طويل حتى شوهد حضور الوزراء ، وأمراء الأمراء ، والباشوات ، وأمراء الآلاي ، والبين باشي ، واليوز باشي ، والملازمين ، وآغاوات قابي كولي وقادة الأسطول البحري ، اجتماع الديوان في الخيمة . ودخل السلطان في صلب الموضوع دون إطالة في الكلام :

- لن أعدد أسمائكم مراراً وتكراراً . إنكم جميعاً أعزاء كرام عندي . لأنكم أناس تعلمون شرف عملكم في خدمة الدولة . ولهذا أود استشارتكم في أمر ما ، يا شركائي بالقضية . كما تعلموا لقد طال أمد الحصار

أيد جاندارلي وأتباعه كلام السلطان بإيماءة رؤوسهم .

- وكأن طول أمد الحصار ليس كافياً حتى انتشرت شائعة منذ عدة أيام . تفترض قدوم المجريين لنجدة بيزنطة . . .

قاطع جاندارلي الكلام :

- نعلم أنها ليست إشاعة بسيطة يا سلطاني .
- كيف تعلم ذلك أيها الباشا ؟
- لدينا أيضاً مصادر أخبار خاصة بنا . . .
- تنبه الجاندارلي إلى زلة لسانه ، وقال :
- ما أردت قوله أن هناك بعض المعلومات التي تقال لنا قبل أن يتم إبلاغك بها .
- ألا تعلم أيها الباشا أنك سيد الكلام طالما أنه في فمك ؛ وبمجرد أن خرج من فمك لمرة واحدة ، أصبح سيدك .
- سأبلغك بالمعلومات التي تلقيتها .
- أخبرني إذن ، ما هي المعلومات التي ستبلغنا بها ؟
- لقد انطلق المجريون بالفعل .
- ذلك يعني أنك صدّقت تلك الشائعات . . .
- لا أظن أنها شائعات . . .
- لنفترض للحظة أن هذه الشائعة هي حقيقة بالفعل ؛ ولهذا السبب جمعتمكم .
- أمعن السلطان النظر في جميع الأعضاء في الديوان كل على حدة .

- ما رأي ديواننا إزاء وجود احتمال كهذا ؟ لنبدأ من عندك أولاً
يا جاندارلي ، بما أنك الوزير الأعلى مقاماً .

كان جاندارلي خليل باشا يعلم أنه ليس لدى السلطان نوايا حسنة
تجاهه على الإطلاق . كان يفكر بما أن السلطان لم يعزلني من
منصب الصدر الأعظم فإنه يخشى من قوتي ونفوذتي . ولهذا لم
يتردد في التعبير عن آرائه مرة أخرى التي كررها مرات عديدة في
السابق معتمداً على فكرته تلك :

- لقد قمتم بواجبكم . ولم يكن لدى أحد من أجدادكم هذا القدر
من الأمل . وقد نلتم شرفاً عظيماً بالانجازات التي حققتوها حتى
الآن . بالمقابل جرت معارك عنيفة . وخسرنا الكثير من الجنود .
حيث تدافع المدينة عن نفسها بكل قوة . وجيشنا في خطر . وقد
شارك اللاتين في الدفاع إلى جانب البيزنطيين . وها قد انطلق
المجريون أيضاً . والأسوء من ذلك كان قيامنا بإثارة العالم المسيحي
بأكمله . وسيأتون عما قريب لنجدة بيزنطة . في غضون ذلك لنجنب
أنفسنا غضب جميع المسيحيين . وأنت قوي جداً . وباستطاعتكم
زيادة قوتكم أكثر في وقت السلم . إن نهاية الحرب مجهولة دائماً .
إن الحروب تجلب الكوارث أكثر من الرفاه . هذا ما أردت قوله
فقط .

كان لدى بعض العلماء مثل آق شمس الدين ، والملا كوراني ،

وقادة عسكريين مثل شهاب الدين ، وزاغنوس باشا ، آراء مختلفة عن جاندارلي . كان يعتقدون أن بيزنطة قد حوصرت جيداً وأن النصر بات قريباً .

تحدث زاغنوس باشا على لسان الذين يشاركونه آرائه نفسها قائلاً :

- لقد أثبتتم قوتكم يا سلطاني . ومع ذلك هناك من يريد أن يزرع الخوف في نفوسنا ، ويجعلنا جناء بينما نحن شجعان ؟ ينبغي على سلطاننا المنصور وضع خطط أكبر ، والشروع في تنفيذ انجازات أعظم . إذ تخرب جزء كبير من الأسوار . وباستطاعتنا تدمير الجزء الباقي . يكفي أن تسمح لنا بهجوم واسع النطاق في وقت واحد ، وستنال النصر العظيم بعون الله .

تبنى غالبية المشاركين بالاجتماع وجهة النظر الثانية هذه .

ثم وجه السلطان الأسئلة التالية إلى الحاضرين في الديوان قائلاً :

- هل قوتي أقل من قوة الإسكندر المقدوني العظيم الذي أطاعه العالم بقوة عسكرية هزيلة ؟
- لا يا سلطاني .

- هل تمكن والدي وجدي من قبله من تأسيس جيش كهذا من أجل الاستيلاء على المدينة ؟

- لم يتمكنوا من ذلك يا سلطاني .

- هل كان بوسعهم تطوير آلات حرب كهذه ؟

- لا .

- إذن ؟

كان إجابة هذا السؤال الأخير والموجز ، قد كتبت في السجلات كقرار صادر عن الاجتماع وهي : سيشن هجوم عام .

كان السلطان راضياً عن القرار المتخذ . وبات يشعر أنه أقوى من ذي قبل . ولكن كان يعتقد أنه بحاجة إلى شيء آخر . كان آق شمس الدين قد عثر على قبر أبو أيوب الأنصاري ، وزوده نوعاً ما بمعلومات عن نتيجة الحصار .

ولأجل ذلك أرسل إلى معلمه الشاعر أحمد باشا أحد أصدقاء المسامرة لكي يسأله ما يلي :

- هل هناك فرصة أن تفتح المدينة ؟

نقل أحمد باشا الجواب الذي تلقاه من آق شمس الدين إلى السلطان قائلاً :

« الله أكبر . ما قيمة قلعة كافرة بعدما تحرك هذا الحشد الهائل من الجنود والقادة يقودهم سلاطنتهم مثل الجسد الواحد ؟ وواصلوا

العمل بحماس . وسيلغون أمانهم في أقرب وقت ممكن إن شاء الله » .

- هذه الإجابة غير كافية بالنسبة لي يا أحمد باشا ! إذهب مرة أخرى إلى حضرة آق شمس الدين على الفور ! واطلب هذه المرة التاريخ الدقيق للفتح !

كان آق شمس الدين يعلم أن المعلومة الأولى التي أرسلها إلى السلطان لن تهدئه وتسكن من روعه . ولهذا السبب كان يدعو الله باستمرار لكي يكون عوناً له . وفي المرة الثانية التي أتى فيها أحمد باشا : - لا يعلم الغيب إلا الله . وليس بوسعنا نحن العبيد سوى توقع بعض الأمور . ولكن أتوقع وبشدة أن النصر سيكون حليف سلطاننا إن شن الهجوم العام في الـ ٢٩ من الشهر الجاري إن شاء الله ، وسترتفع أصوات الأذان من داخل السور .

كان هذا الجواب كافياً للسلطان . ولم يعد يطق صبراً .

الأحد ٢٧ آيار

اتخذ السلطان كافة التدابير المادية والمعنوية . وahan وقت الهجوم النهائي ، وإنزال الضربة القاضية والحاسمة . . . وأعلن الأدلاء الذين يطوفون بين الجنود ، أن الزحف الكبير سيجري بعد يومين .

السبت ٢٨ أيار

أدرك المتواجدون خارج الأسوار وداخله أن المصاف الكبير قد بات قريباً جداً . وكان واضحاً لدى كلا الطرفين أن مسار الحرب سيكون إما اليوم أو غداً . اتخذت الاستعدادات الأخيرة ، ورفعت الدعوات الأخيرة . حتى اختلطت أصوات الأذان وأصوات الأجراس مع بعضها البعض .

عقد اجتماع مختلف على غير المعتاد في خيمة السلطان محمد . كان الوزراء وقادة الجيش ورجال الدين والعلماء يستمعون بجدية كبيرة :

- أيها الأدميرال حمزة بك !

- أمرك يا سلطاني !

- ستقترب مع أسطولك مسافة سهم من الأسوار المطلة على ساحل بحر مرمره ؛ وستصيب الجنود البيزنطيين المتواجدين فوق الأسوار بالإرهاق بنيران المدافع ، والبنادق والسهام .

- سمعاً وطاعة يا سلطاني !

- لم ينتهي بعد !

- أمرك يا سلطاني !

- ستدع سفنك تدنو من اليابسة عند النقاط المناسبة . وسيحاول
البحارة المرتدين قمصاناً مدرعة تسلق الأسوار .

- سمعاً وطاعة يا سلطاني !

تراجع حمزة بك خطوة إلى الوراء بعدما تلقى أوامره .

والتفت السلطان إلى زاغنوس باشا وقال :

- وأنت يا زاغنوس باشا !

- أمرك يا سلطاني !

- مهمتك هي أسوار القرن الذهبي . . .

- لا تقلق يا سلطاني !

- ستهاجم الأسوار الموجودة هنا بالعبور من على الجسر الرابط

بين ضفتي القرن الذهبي .

- سمعاً وطاعة يا سلطاني !

- وسيوفر لك أسطولنا في القرن الذهبي الدعم بنيران المدافع

والبنادق .

- جزاهم الله خيراً يا سلطاني !

ثم وجه السلطان أوامره هذه المرة إلى قراجا بك قائلاً :

- يا قراجا بك !

- أمرك يا سلطاني !

- بمجرد بدء الهجوم العام ستعبر الخنادق الموجودة بين أدرنة
كابة وأغر كابة .

- سمعاً وطاعة يا سلطاني !

- عندما تعبر الخنادق ستقترب من الأجزاء المهدمة من الأسوار
وتتدبر أمر الجنود الذين يدافعون هناك .

- سمعاً وطاعة يا سلطاني !

- أما هدفك التالي فهو تسلق الأسوار !

- سمعاً وطاعة يا سلطاني ، إن هدفي التالي هو تسلق الأسوار !

وفي هذه المرة خاطب السلطان اثنين من الباشوات معاً :

- وأنتم أيها الباشوات إسحق ومحمود !

- أمرك يا سلطاني !

- أمرك !

- ستحاولان تسلق الأسوار عند أقرب نقطة من سيليفري كابة مع

صدور أمر الهجوم !

- سمعاً وطاعة يا سلطاني !

- سمعاً وطاعة !

ثم خاطب السلطان الجميع معاً :

- سأتولى مع قواتي في المركز المنطقة بين بيرم باشا وطوب كابة... وسيقود خليل باشا جناحي الأيمن ؛ ويقود الباشوات ساروجا وسعدي جناحي الأيسر . ومهمتنا هي الهجوم على الثغرة الكبيرة التي فتحت في الأسوار الواقعة شمالي طوب كابة وإنزال الضربة القاضية بالعدو .

التقط السلطان بعض الأنفاس ثم تابع قائلاً :

- ومن هناك سيكون دخول إلى المدينة إن شاء الله !

رعد المتواجدون في الخيمة بفهم واحد تقريباً وقالوا :

- إن شاء الله يا سلطاني .

بلغ الحماس في الخيمة ذروته قبل ساعات قليلة من الهجوم الأخير . وكأن الجميع كانوا ينتظرون من السلطان إلقاء خطبة أخيرة . وهو أيضاً كان ينتظر هذه اللحظة . كان الوقت ملائماً لإلقاء الخطبة التي عمل عليها منذ أيام . أمعن النظر مراراً وتكراراً بالعيون الموجهة إليه . وأثرت نظراته الثاقبة في قلوب المتواجدين هناك . وأخيراً بدأ الخطبة مضيفاً على الكلمات الكثير من حماسه :

« أيها الباشوات ،

والباكوات ،

والآغاوات ،

ورفاق السلاح ،

لن أعمل على زيادة شجاعتكم أكثر . فقد أظهرتم ذلك كلما سنحت الفرصة ، وأكثر مما ينبغي . ولكن غايتي الأساسية هي التبشير بما ينتظركم من شرف ومجد أبدي عبر هذا الهجوم الأخير الذي أؤمن أنه سينتهي بالنصر .

سأهديكم اليوم مدينة عظيمة ومجيدة للغاية ! إن هذه المدينة عاصمة الرومان القديمة ، وقطعة من الجنة بلغت ذروة الجمال والغنى والمجد والشرف . هكذا هي المدينة التي سأمنحكم إياها .

والآن ، شجعوا بعضكم البعض من أجل نصرنا . ولا تنسوا أن هناك ثلاثة شروط لانتهاة أية معركة بالنصر وهي : صلاح النية ، وتجنب الفتنة ، وإطاعة أولي الأمر . لا يوجد عمل لن يكتب له النجاح في حال نفذت الأوامر المعطاة مباشرة في مناخ يسوده الهدوء والانضباط . والآن ، سارعوا إلى المعركة بحماس نابع من الصمود العالي واطهروا ما تملكونه من بطولة .

اعلموا أن أول من سيصعد الأسوار سيستقبل إستقبلاً محفوفاً بالإعزاز والإكرام من قبلنا . وسيتم ترقية هذا البطل في الجيش وستمنح هدايانا العظيمة له ولعائلته .

بالنسبة لي ، أقسم لكم أن أحارب وأبذل دمي وروحي رخيصة .
وسأتابع شخصياً كيف سيحارب الجميع .

انصرفوا الآن كل منكم إلى منطقته . كلوا واشربوا واستريحوا
بضع ساعات . وليتحرك الجنود الذين تحت أمرتكم حركة واحدة .
احصروا على الهدوء التام من جميع الجهات . ثم انهضوا عند الفجر
وأعدوا جنودكم للهجوم الأخير في انضباط تام . ولا ترضخوا للتأثير
من أية جهة أو حدث قد تتعرضون له وحافظوا على اتزانكم
وثباتكم .

اهجموا عند سماعكم عزف المهتار ورؤيتكم رفرفة الرايات .

بارك الله حربكم وجهادكم .

واعلموا أن معونة الله وشفاعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم
معكم » .

* * *

في نفس اللحظة التي تجري بها هذه الأحداث خارج الأسوار ،
كان هناك نشاط محموم آخر يجري داخلها . فقد كان الإمبراطور
يعمل جاهداً على إعداد حاشيته وشعبه للدفاع الأخير بأفضل طريقة
ممكنة . غير أن الجنود والشعب قد انهك وأصابه التعب من العمل
ليلاً نهاراً ليتمكن من كسر الحصار المتواصل منذ ٥٣ يوماً . كما أن

نيران المدافع المتمركزة على منطقة طوب كابة قد أحدثت ثغرات في الأسوار وبات ترميمها أمراً مستحيلاً . رغم ذلك ، حاول الإمبراطور إنجاز المستحيل وترميم الأسوار .

- ابدلوا جهودكم أيها الشجعان ، قال ذلك مخاطباً العاملين على ترميم الأسوار ؛ ابدلوا جهودكم ، إن تغلبنا على هذا الهجوم نكون قد قصمنا ظهر العثمانيين . ولن يجرؤا على مهاجمتنا بعد الآن !

بدأت مجموعة من الرهبان المتجهين إلى الأسوار حاملين بيدهم لوحة مريم العذراء ، قراءة التراتيل على شكل جوقة . كانت غايتهم رفع معنويات العاملين على ترميم الأسوار . وبالفعل كان ذلك الدعم مجدياً . إذ بدأ العمال بالعمل بجدة ومثابرة أكبر على إيقاع التراتيل . ولكن بعد مدة قصيرة ، انزلت لوحة مريم العذراء المقدسة عندهم من يد الرهبان ، تحت أنظار العمال المتفاجئة ، وانقلب وجهها على الأرض .

هرع الجميع بحماس لرفع اللوحة على الفور . ولكن دون جدوى . . . بدا وكأن اللوحة قد تسمرت في مكانها . لم يتمكنوا من رفع اللوحة رغم جميع المحاولات . بدأ الجنود والعمال ، الذين اعتبروا هذه الحادثة نذير شؤم ، إخراج الصليب والدموع تنهمر منهم وأخذوا يهربون يمينه ويسرة . وأخيراً نجح القساوسة في رفع اللوحة ، ولكنهم عجزوا عن إزالة الخوف الذي وقع في قلوبهم بأي

شكل من الأشكال . حتى انتشر الخوف تدريجياً في أرجاء بيزنطة .

كان الإمبراطور عازماً على الدفاع عن المدينة رغم كل السلبات . أخذ يطر أوامره واحداً تلو الآخر على قادته الذي دعاهم إلى مقره . ستجمع النساء والأطفال لرمي الحجارة على الجنود العثمانيين . وسيدافع الجنود البنادقة عن الأسوار البرية . وستعيق السفن في القرن الذهبي الأسطول العثماني . وسيحمي الأمير أورهان شلبي السبيء الطالع ، المتأمل بأن يصبح سلطاناً في يوم من الأيام وهو يعيش حياة الأسير - نوعاً - ما بين يدي بيزنطة ، الأسوار الواقعة في يدي كولة من جهة البحر برفقة ٦٠٠ من رجاله .

وسيتولى القائد العام جوستيناني الدفاع العام عن المدينة . وكانت مهمته إعادة تنظيم القوات ونشرها في الأماكن الضرورية . كما قام القائد العام بفكرة ذكية منه بحفر خندق عميق خلف الأسوار الضعيفة الواقعة شمالي طوب كابة . وبنى أمامه أيضاً حاجزاً قوياً للقدائف .

دعا الإمبراطور جميع مندوبي القوات المدافعة عن المدينة إلى اجتماع في آيا صوفيا . كان يعتقد أن سيرفع من معنويات الجنود والشعب بهذه الطريقة . خاطب المستمعين له قائلاً :

- أيها النبلاء !

والقادة !

والجنود !

أعقد اجتماعنا في هذا المكان المقدس لأننا بحاجة لذلك أكثر من أي وقت مضى . لقد بذلتم حتى هذا اليوم ، جهوداً جبارة في الدفاع عن مدينتنا ضد جيش السلطان محمد . ولكننا بحاجة إلى زيادة قوتنا الدفاعية أضعاف مضاعفة مما كانت عليه . وبذلك ستمكن من التصدي للأتراك الفاسقين والوثنيين الذين يسبون لنا المتاعب منذ ٥٢ يوماً .

لا تخيفكم الأسوار التي دمرتها مدافع العدو . إن قوتكم نابغة من حفظ الرب ورعايته . ولهذا عليكم توجيه قوة الرب هذه نحو أعدائكم بأيديكم وأسلحتكم .

أعلم أن قواتهم العديمة الخبرة ستبدأ الحرب بإطلاق الصيحات ورمي السهام من بعيد كما هو الحال دائماً . ولكن لن تستطيع هذه السهام فعل شيء أمام جيشنا المدجج بالدروع .

لا تكونوا مثل الفرسان الرومان الذين أصابهم الذعر فزعين من الفيلة عند محاربتهم القرطاجيين . لا تخافوا وتهربوا من صيحات العدو . إن الحيوانات وحدها فقط من تهرب من الحيوانات الأخرى . أنتم شجعان . واجهوا هؤلاء المتوحشين الذين يعتدون

علينا كالرجال . اذبحوهم برماحكم وسيوفكم مثلما تذبح الخنازير
البرية . وليعلم أولئك الأوغاد أنهم لا يقتالون حيوانات بل يقتالون
أسيادهم .

كما تعلمون إن أعدائنا الكفار يهددون مدينتنا الجميلة حامية
بيزنطة كلها . يقسمون أنهم سيدوسون بنعال خيولهم القدرة أماكن
الرب المقدسة هذه .

أيها النبلاء ،

والإخوة ،

والأبناء ،

بيدكم أنتم حماية السمعة الأبدية للمسيحية . هيا إذن ، سترفع
نفوسكم العظيمة أكثر استعداداً للمصاف الكبير .
أيها الجنود ،

أطيعوا قادتكم مهما كانت الظروف . واعلموا أن اليوم هو يوم
مجدكم . لذلك استعدوا بالكامل للمعركة الكبيرة غداً . وأنا واثق
أن النصر سيكون حليفنا بعون من الرب .

ازدادت شجاعة المستمعين بعد خطاب الإمبراطور هذا .
وأقسموا جميعاً على القتال حتى النهاية .

* * *

كان كل شيء جاهز للهجوم الأخير لدى الجيش العثماني .
انصرف الجنود بعد طعام العشاء بأمر من السلطان لأخذ قسطة من
الراحة .

حل الظلام على القسطنطينية . وقد أحاط بها صمت عميق .
ولكنه كان يذكر بالهدوء ما قبل العاصفة . كان من الممكن حدوث
أي شيء في أية لحظة . وهذا ما حدث بالفعل ، فقد تفاجئ
البيزنطيون من المشهد الذي رأوه . كان الجميع يشيرون لبعضهم
البعض باتجاه الأنوار المصفوفة بشكل منتظم خارج الأسوار . كانت
المشاعل المعلقة على رماح الجنود تحيط بالمدينة من كافة جوانبها
مثل كرة من اللهب .

كانت صلصلة السيوف الصادرة بعد ذلك بقليل تشبه نداءات
الموت المرتفعة من بين ألسنة اللهب . وبالفعل كان جنود السلطان
يطلقون نداءات الموت إلى البيزنطيين . بدا وكأن معظم الناس داخل
الأسوار غاضبين من عدم تسليم الإمبراطور للمدينة . ربما حلت
الأنغام التي تهب الحياة للإنسان محل نداءات الموت تلك آنذاك .
ولكن قضي الأمر وانطلق السهم من القوس مرة . كانت نيران القهر
تشتعل في رؤوسهم . لم يكن لديهم أي حل آخر سوى مواجهة هذه
النيران . لا يعلموا إن كان بإمكانهم الانتصار . سينتظرون ويرون
ما سيحصل . ما أصعب الانتظار . يؤدي إلى انهيار أعصاب

الإنسان . لا يهم . يكفي أن ينتهي هذا العذاب ، وأن تنطفئ أضواء القهر هذه ، وتصمت تلك الأناشيد المزعجة التي ترددها فرقة المهتار ، وأن تتوقف صيحات التكبير المرتفعة في السماء .

حانت اللحظة التي انتظرتها بيزنطة . انطفأت الأنوار عند منتصف الليل ، وهدأت فرقة المهتار ، وتوقفت صيحات التكبير . عمَّ الصمت المكان ولم يعد يسمع أي صوت . ولكن ذلك كان سيئاً جداً بالنسبة لهم . لأن ما فعله السلطان كان حرباً نفسية . ذلك أن أعصاب البيزنطيين قد انهارت . ألم يعلم العثمانيون بذلك ؟ وإن علموا بالأمر لم يهاجموا ؟ هل هكذا ستكون الحرب ؟ لقد أصبحت الضوضاء التي تحدث عنها هي الحرب . وما معنى الضوضاء ، هي أن تصدر كافة الأصوات أثناء الحرب لكي تمزق القلوب ، وأن تردد أصداؤها في السماء . ولكن الأمر لم يكن كذلك . لم يصدر الجيش العثماني أي صوت . يا ليت له لو بدأ القتال ! يا ليت لو سُمع صوت واحد أو صيحة واحدة !

كانت أصوات المدافع الصادرة بعد ذلك بقليل ، بعيدة كل البعد عن الصوت الذي تتوقعه بيزنطة . كان ذلك مزعجاً أيضاً ، إذ لم يكن يريدون صوت المدافع بل أرادوا صوت الجند . صوت الجنود وهم يقاتلون بعضهم البعض . . .

الثلاثاء ٢٩ أيار ١٤٥٣

التاسع والعشرون من أيار . . . عند أذان الفجر

بكل خشوع في الصلاة .

كان السلطان

نظام عتيق من « بلدة مجيدة »

- لأجل تطهيرها - في تضرع وإبتهاال .

كان السلطان

يوسف دورسون

كان السلطان محمد زار بيزنطة . وكان يعرفها جيداً . كان كل

شيء جاهز للهجوم الأخير . وكان الجيش ينظر إلى شفتي

السلطان . لأنه في اللحظة التي سيصدر فيها أمر الهجوم ، سينقض

إلى الأمام مثل السهم .

كان الوقت حوالي الساعتين بعد منتصف الليل . سُمع الصوت

الذي انتظره الجيش العثماني بأمل ، بينما انتظرته بيزنطة بخوف

يقول : هجوم !

ومع صدور أمر الهجوم بدأت المدفعية العثمانية الثقيلة برمي

المدافع بكثافة . في البداية أتلقت أصوات المدافع أعصاب

البيزنطيين ، حتى أفقدتهم هذه الأصوات صوابهم تماماً . يا إلهي ،

كم كان مشهداً مرعباً . في البدء كان يسمع صوت يصم الآذان ، ثم ترتفع أصوات مهولة من الأهداف التي ضربت ! وإن فكر الجنود العاملون على ترميم الأسوار بإخراج رؤوسهم من الكوات ، مستحيل أن يبقى ذاك الرأس مكانه أبداً !

وقد أسندت خطوط الهجوم المتقدمة تحت غطاء من نيران المدافع وصيحات التكبير ، السلاالم على الأسوار . وفي لحظة بدأت مئات السلاالم تعانق الأسوار مثل العشاق .

بالمقابل حاول المدافعون عن القلعة تحطيم السلاالم ، وإمطار العساكر المتساقطين بالسهم . كما حاولوا صدّ أولئك الذين اقتربوا من قمة الأسوار بالنيران الإغريقية . كانت السلاالم المدمرة تستبدل بأخرى جديدة على الفور ، ويحل مكان الجنود الذي استشهدوا آخرون جدد . وقد اضطرت خطوط الهجوم التركية إلى تكرار محاولاتها هذه عدة مرات . ونجحت المدينة في الصمود أمام الهجمة الأولى هذه التي دامت قرابة الساعتين .

أمر السلطان الذي أدرك إرهاب خط الهجوم الأول بانسحاب هؤلاء الجنود الشجعان للوراء .

أخطأ الجيش البيزنطي الذي تأمل أنهم سيستريحون وإن كان قليلاً أثناء هذا الانسحاب القصير . فقد تقدم فرسان الأناضول

بالرماح والدروع . وبدأ هؤلاء المحاربين بحملة واحدة عبور الخنادق وتسلق الأسوار الخارجية .

أدى تسلق فرسان الأناضول للأسوار الخارجية مثل سرب من النمل إلى إثارة خوف كبير في المدينة . كانت الأجراس تقررع دون توقف . ودعي جميع الأصحاء إلى الأسوار للمساعدة . وارتدى معظم العساكر القمصان المدرعة . وبذلك كانوا يسقطون السلاالم من فتحات الكوات ، ويحاولون قتل الجنود المتساقطين على الأرض ، بالبنادق والسهام إن توفر أو بالحجارة . في حين كان أولئك الذين نجحوا بتسلق الأسوار عن طريق حماية أنفسهم بالدروع ، يواجهون بالنيران الإغريقية البيزنطية المشهورة . وتفرغ الزيوت الساخنة بمراحل ضخمة على الجيش العثماني . كان المشهد مرعباً لدى كلا الطرفين . لم يكن الموت يفرق بين الجنود . بل يحصد كل من يظهر أمامه .

كان السلطان يدخل بين الوحدات العسكرية من حين لآخر ، ويقوي أولئك المتعبين . ومع ذلك لم يحصد أية نتيجة بعد سواء من المركز أو من الجناحين الأيمن والأيسر .

صلى السلطان صلاة الفجر قبل استبدال خط الهجوم الثاني وبالخط الثالث . وقد اصطف الوزراء ، والقادة ، والأساتذة ، ورجال الدين ، والإنكشارية خلف السلطان . ثم رفعت جميع

الأيادي إلى السماء عقب الصلاة . واستمعت الجماعة بخشوع كبير إلى دعاء السلطان وهو :

« يارب ،

أنت الرزاق وأنت العالم بكل شيء . أنت الأحد الصمد . الذي لم يلد ولم يولد . ولكنهم طرخوا فكرة التثليث ، وجعلوا مكان « الله الأحد » تثليث « الأب والابن والروح القدس » . وحذفوا من الإنجيل الآية التي تقول ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحَدٌ ﴾ وأصبحوا من أولئك الذين حذر منهم الله في الآية التالية ﴿ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ .

يارب ،

إن الرجاء الوحيد لعبدك العاجز هذا أن أحارب الكفار في سبيلك وأن أبذل كل ما أستطيع لأكون جديراً بك .

أنت المريد ، وأنت القوي ، وأنت القادر ، وأنت المعين .
يارب زد من صبرنا وقوتنا . وأعنا في هذه الحرب التي نخوضوها في سبيلك !

عند انتهاء السلطان من الدعاء امتلأت السماء بصيحات « آمين ! » وغطت الدموع خدودهم .

دفع السلطان خط الهجوم الثالث إلى الأمام . كان هؤلاء الإنكشارية والقوات الرديفة . لأن تقديم الجيش العثماني لهؤلاء

الجنود الأفضل تدريباً ، يعني أنه سيوجه الضربة الأخيرة .

وكما هو الحال عند كل هجوم خرجت المدفعية إلى الساحة أولاً . وأخذت تضرب القذائف بالمئات على الأسوار في الوقت نفسه كالصواعق . ثم هجم المحاربون . وفي غضون ذلك سمع صوت بيرم الذي كان يقود قسماً من القوات الرديفة يقول :

- تقدموا أيها الأسود ، إن النصر حليفنا !

وسرعان ما صرخ حسن الأولوباتي القريب منهم قائلاً :

- هيا أيها الشجعان ، إن النصر حليفنا !

وضع كلا الطرفين حياتهما على المحك ، وبدأ بتسليق الأسوار .

كانت فرقة المهتار تعزف أجمل الأناشيد .

كانت المزامير والنقارات والطبول تعزف أبهى الألحان .

كانت المدينة على وشك السقوط .

لقد خارت جميع قوى بيزنطة مع بزوغ شمس الصباح .

توغل القائد جوستينياني في محاولة أخيرة بين القوات الرديفة في

المنطقة بين طوب كابة وأدرنة كابة التي يجري فيها القتال الأساسي .

سمح هذا الوضع للجنود الذين انهكوا تماماً بالتقاط أنفاسهم قليلاً .

هاجمت القوات الرديفة لدى كلا الجيشين بعضهما البعض

بضربات قاضية . وفي لحظة من اللحظات شوهد الجيش البيزنطي وقد اضمحل تماماً . ولسوء الحظ ، لم يكن لديهم قوات جديدة لتحل مكانهم وتقاتل .

أصيب الجيش بالذعر حينما رأى قائده جوستينيانى الذي يحاول تشجيعهم يسقط على الأرض مثل خشبة . كان القبطان بمفرده للحظة ، حاول النظر إلى الخارج من الكوات .

وفي تلك اللحظة القصيرة بالذات استقر سهم طنان في كتف القائد بسرعة البرق . وسرعان ما قطع سهم ثان يده هذه المرة .

كان القائد ينزف دماً . وإن استمر هكذا سيموت من كثرة النزيف . وفي الحال أحضر إلى المشفى المتنقل . فاستطاع البقاء على قيد الحياة بعد التدخل السريع الذي أجري له هنا . كانت معنويات القائد قد استنفذت تماماً لانفصاله عن خط دفاعه ، وعدم عودته إلى قواته مرة أخرى . عندها بدأت تسود حالة من الذعر :

- لقد تركنا القائد وفر هارباً !

- هيا بنا لنهرب !

- أنا سأهرب أيضاً !

- انجوا بحياتكم !

* * *

حسن الأولوباتي على الأبراج

أحدهم ، على صوته القائل « يا الله »

يسكب الأرواح عليه ، وروائح المسك والعنبر

أحدهم ، على أعلى قمم الأبراج

يرفع علماً بيد من حديد

يوسف دورسون

نادى السلطان الذي لاحظ إنهزام الجيش البيزنطي على قواته

قائلاً :

- لقد هزم العدو يا شجعان ، تقدموا !

زحفت القوات التي سمعت هذا الأمر كالسيل العارم .

بدأ حسن الأولوباتي تسلق الأسوار وييده اليسرى درعه ، وفي اليمنى سيفه ، وفي فمه الخنجر . ومن خلفه حوالي ٣٠ شخصاً من أصحابه يتبعونه . لأن من يعيش في سوق الأرواح ، يشتري روحاً ، ويبيع أخرى . فقد وهب قرابة ١٨ شخصاً من شجعان حسن الأولوباتي أرواحهم على الأسوار . وفي هذه المرة كان رفع العلم

العثماني على الأسوار من نصيب الأولوباتي . فك العلم مربوط حول خصره ، ورفعته هناك . كان مشهداً لم يرى مثيل له من قبل . لم يرى مثله ولكنه مشهد يتاق إليه . . . لم يكن مهماً تدرجه بين السورين بحجر كبير تم رميه وإصابته بعشرات السهام في جسده هناك . يكفي أن العلم العثماني مرفوع فوق الأسوار .

بينما كان علم حسن الأولوباتي يرفرف على قمة السور صعد من الجهة الأخرى بطل آخر على الأسوار . كان هذا الشجاع هو سليمان من القوات التابعة لأمرأء روملي .

فقد نجح في النجاة من السهام الملقاة عليه ، وعبر إلى الطرف الآخر من السور . لم يكن قارشديران سليمان وحده . كان يرفقته عشرات الجنود مثله القادمين من روملي . يركضون جميعاً والسيوف بأيديهم نحو الاشتباكات الجديدة . ولم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً حتى جردوا العديد من الجنود البيزنطيين الذين اعترضوهم من أسلحتهم .

من ناحية أخرى بقي جسد حسن الأولوباتي هامداً هناك ولكن نجح مئات الإنكشارية مثله في تجاوز السور الأول المدمر تماماً . وهم الآن في المنطقة بين السورين . لم يدم القتال طويلاً هنا . وضع الإنكشارية السيف في الجنود البيزنطيين المرهقين .

شرع قسطنطين الذي أدرك خطورة الوضع في الفرار نحو السفن

تاركاً بطولته جانباً . عندها أصيب الجنود الذي رأوا فرار الإمبراطور بالذعر والهلع تماماً . وبات الشغل الشاغل لكل واحد منهم هو النجاة بحياته .

لم يكن صعباً على الإنكشارية دخول المدينة من الثغرة التي فتحت في السور الثاني .

عندها بدأت هرولة لا هوادة فيها داخل الأسوار . طارد الجنود العثمانيون الفارين . في حين نجا الذين لجؤوا إلى الكنائس بحياتهم ، وأما البقية الذين قبض عليهم قتلوا في مكانهم .

كان بيرم من بين الذين تتبعوا الفارين . وفجأة رأى أحد البيزنطيين قد عاد ويحاول مهاجمته . بدأت ذراع هذا الأخير ترتجف عند انقضا ض جنديين عليه بسيفهما في الهواء . هجم بيرم بقوة على ذراعه المتعبة للغاية . فأصبح سيف الجندي البيزنطي في جهة وهو في جهة أخرى . وكالصقر المنقض على فريسته أنزل بيرم ضربته القاضية به قائلاً « الله أكبر » .

لم يكن بيرم الذي تدفقت كلمات الشكر من فمه ، يعلم أن الجندي الذي قتله هو الإمبراطور قسطنطين .

* * *

اخترق طوب كابة تفتح الطرق

اخترق طوب كابة ، تفتح الطرق والمسالك
يا ملائكة الفتح ، هيا ادخلوا أولاً
تتفتح الورود على وجه الفاتح
يا أيتها الجميلات ، ناولن الورد للفاتح
ترفع الأيادي للخالق عز وجل
انظروا للفاتح وهو ساجد في سجدة الشكر

يوسف دورسون

كسرت بوابة طوب كابة من الداخل . ودخل الجيش العثماني
المدينة أفواجاً .

ترجل السلطان الشاب المدرك أنه حقق بشارة النبي محمد
صلى الله عليه وسلم « لتفتحن القسطنطينية ، فلنعم الملك ملكها ،
ولنعم الجيش ذلك الجيش » عن صهوة حصانه ، وسجد سجدة
شكر لله تعالى . وأطال السجود لدرجة أن المحيطين به انتابهم
القلق . وحمداً لله أنه نهض بعد حين ماسحاً دموعه وانتهى ذلك

الترقب القلق . وقد بكى كثيراً لدرجة أصبح فيها التراب الذي وضع رأسه عليه مبلولاً .

وفي اليوم نفسه بعد الظهر دخل مع وزرائه وقادته وأساتذته ورجال الدين المدينة في موكب عظيم .

كان السلطان الراكب على ظهر حصانه الأشهب ما يزال في ٢١ من عمره . وقد وقف إلى جانبه تماماً آق شمس الدين ذو الشعر الأبيض واللحية البيضاء .

وأخذت الفتيات البيزنطيات يناولن آق شمس الدين الورود اللاتي يحملنها ظنناً منهن أنه السلطان . فأشار بدوره إلى السلطان قائلاً :

- هذا هو السلطان محمد ، أعطينَ الورود له .

التفت الفتيات الشابات إلى السلطان هذه المرة .

- نعم ، أنا السلطان محمد ، ولكن هو معلمي ؛ أعطينَ الورود له .

لم تكن الفتيات البيزنطيات وحدهن من تأثرن بهذا الكلام بل تأثر أيضاً كبار السن من البيزنطيين الذين سمعوه . قال أحدهم :

- إن شخصاً يحترم ويقدر معلمه هكذا ليس قائداً فحسب بل فاتحاً لبيزنطة والعالم كله .

ذَكَرْتُ كلمة « الفتح » التي استخدمها أولئك البيزنطيين
المسنيين ، السلطان محمد بإحدى الحقائق . وهي أن السهام التي
رماها على لوحة الهدف قائلاً « حباً بالفتح » منذ سنوات ، قد
استقرت اليوم في قلب المدينة . إذن هو السلطان الذي فتح
القسطنطينية . وهو القائد الذي بشر به نبينا الحبيب . وهو « الفاتح »
أيضاً .

ما زال السلطان الفاتح محمد عاجزاً عن التخلص من حماسه ،
وفي تلك الأثناء لاحظ أن آغا الإنكشارية يبدي رغبته في قول شيء
ما له .

- ما الذي تحاول قوله يا آغا !

- لقد ألقى الإنكشارية على شخص يرتدي ملابس قسيس .

- وماذا في ذلك ؟

- لا يوحى مظهر هذا الرجل بأنه قسيس ؟

- ماذا يوحى إذن ؟

- إنه عثماني مثلنا تماماً . . .

- لماذا قد يرتدي رجل عثماني ملابس قسيس ؟

- هذا ما أثار فضولنا أيضاً . وعندما ضغطنا عليه قليلاً عرفنا أن

هذا الرجل . . .

- أيعقل أنه ...

- نعم ، لقد عرفنا أن هذا الرجل هو أورهان شلبي ومن غيره ...

- ويل لهذا الخائن !

- ماذا تأمرنا أن نفعل ؟

- ألم يحاربنا أورهان شلبي مثل أي قائد بيزنطي ؟

- نعم حارب ...

- إذن ...

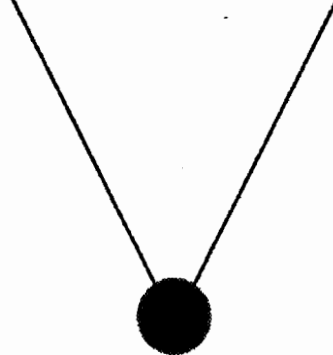
- أنت أدرى يا سلطاني ...

- أنا أعلم ما سأعمله لذلك ، أسأل أستاذي .

بعد محادثة قصيرة أجراها الفاتح الشاب مع آق شمس الدين .
كانت النتيجة التي توصلوا إليها واضحة : يعفو عن حياة أورهان
شلبي ، وسيطفىء جذوة طمعه في السلطنة التي بداخله . وبذلك لن
يسلك طريقاً كهذا حتى يقطع دابر الفتنة .

انصرف آغا الإنكشارية من هناك لكي ينفذ الأمر الذي تلقاه .

* * *



القسم الثالث

فاتح العصر الحديث

صلاة الجمعة في آيا صوفيا

آيا صوفيا . . . يا أم المعابد . . .

نلت الشرف بأصوات الأذان

تحيط نفسها برائحة سماوية

يملاها النور من القبة إلى العمود

وتغمرها البهجة التي نالتها من الفاتح

واستغرقت بعدها في هدوء جميل مصحوب بالمحبة

يوسف دورسون

منذ قديم الزمان كان السلطان محمد الفاتح يتوق ويلتهب بالحب . حيث تأججت شعلته الأولى في قلبه مع التهويدات التي كان يسمعها من والدته الست مكreme خاتون (الصواب : هُما خاتون لأن الست مكreme هي زوجته) وهو صغير السن . في حين شكلت تعاليم أساتذته خلال سنوات طفولته التي قضاها في مدينة أماسيا مصدر إلهام ساهم في إشعال هذه النار . ورويداً رويداً عمد أساتذته من ناحية ومربيه من ناحية أخرى الذين صقلوا روحه في الفترة الأولى

التي أمضاها في مانيسا إلى إعداد هذا الأمير الشاب لتولي عرش السلطنة ، مع إبقائهم على تلك النار متقدة في روحه باستمرار . وعند عودته إلى المدينة مجدداً عقب فترة حكمه الأولى القصيرة الأمد كان يرافقه هذه المرة زاغنوس باشا وشهاب الدين باشا بصفتهم مربيين له . وكانا يمثلان صقور الدولة . وبالطبع فإن السلطان محمد الذي نشأ على أيدي هؤلاء الباشوات سيحافظ بدوره على نار الحب حية داخله . حتى كانت هذه النار تملأ كل ذرة من كيان الأمير الشاب . من الآن فصاعداً ، سيعيش الأمير محمد من أجل هذا الحب وحده ، وإذا مات فسيموت من أجله فقط .

كان السلطان الشاب المسمى محمد الثاني بانتقاله من الإمارة إلى السلطنة ، يعتقد بضرورة أن تخرج نار الحب هذه من قلبه وتحاصر البيزنطيين بأكملهم . وهو ما فعله بالضبط . حيث تخلى عن كبح مشاعره . وتخطى جميع العقبات التي واجهته واحدة تلو الأخرى وبلغ مراده . وتحققت البشارة المباركة بفتح القسطنطينية .

مما يعني أن العلم والمعرفة التي تلقاها على امتداد إحدى وعشرين عاماً لم تذهب سدى . ولهذا مهما شكر الله فهو قليل ولن يوفيه حقه . وتذكر سجدة الشكر التي أداها عند دخوله إلى المدينة من أسوار قصر طوب كابة . وقال « لا يكفي » ، « هذا القدر وحده لا يكفي لشكر الله تعالى ، بل يجب علي أن أشكره مع كل نفس

أتنفسه » . هذا ما كان يشغل باله أثناء توجهه إلى كنيسة آيا صوفيا بصحبة وزرائه وقادة جيشه ومعلميه ورجال الدين . ثم شد لجام حصانه الأشهب . وعرف الحصان الأصيل ما يريده راكبه . وقف رافعاً رأسه إلى الأعلى قليلاً . والتف الجميع حول السلطان . ينظرون إلى هذا الرجل الذي خرّ على الأرض مترجلاً عن حصانه بمجرد دخوله إلى حديقة آيا صوفيا لكي يسجد سجدة شكر لله تعالى ، ويسكب على رأسه حفنة من التراب أخذها من الأرض ، يشبه مسلماً من أهل التقوى أكثر من كونه سلطاناً . وكان السلطان بتصرفه هذا يقصد القول بأننا « خلقنا من تراب وسنعود للتراب » .

كما نال السلطان بهذا العمل تقدير وإعجاب أولئك المنهزمين في الحرب أيضاً . ثم وقف بدوره ينظر بإعجاب إلى آيا صوفيا . يا له من بناء ضخّم ! يعني هذا أنه سيتخلص من صوت الجرس ويتشرف بصوت الأذان .

كان بعض البيزنطيين الناجين من الحرب وفي مقدمتهم البطريك قد لجأوا إلى آيا صوفيا . وكانوا يأملون أن لا يلحق بهم السلطان الأذى في هذا المكان . وبدأ السكان المحليين الذين رأوا دخول السلطان محمد الفاتح مع حشد غفير إلى الكنيسة بدأوا بالبكاء والنواح .

كما حاول البعض منهم تقبيل حذاء السلطان . ولكن الفاتح

الشاب عارض هذه المبالغات . ثم نادى على البطيريك قالاً :

- قف يا حضرة البطيريك !

وقف البطيريك بسرعة وخوف . وضم يديه إلى بطنه . ورأسه ما يزال إلى الأسفل .

- ارفع رأسك ، وانظر إلى وجهي !

استجاب البطيريك إلى هذا الأمر الحاسم . وبمجرد أن تلاقت عيناه مع عيني السلطان حتى انتابته موجة خوف أخرى . لأن صاحب تلك النظرات يجعل قلب الإنسان يبلغ حنجرتة من شدة الخوف .

- أنا السلطان محمد الفاتح ، هكذا بدأ السلطان الشاب كلامه ثم تابع قائلاً :

- أقولها لك ولرفاك ولجميع أفراد شعبك ابتداءً من اليوم لا تخشوا نقمتي فيما يخص حياتكم وحریاتكم .

لم يصدق البطيريك ما سمعت أذناه . هل صحيح ما سمعت ؟ إن السلطان الشاب يتحدث اللغة الرومية بطلاقة . وواضح تماماً ما كان يقصده . ولكن البطيريك واجه صعوبة في تصديق ما سمعه . ونظر حوله فرأى جميع الرومان يعانقون بعضهم البعض من الفرحة . مما يعني أن ما قاله السلطان كان صحيحاً . ولا أحد ينوي قتلهم ، وسلبهم حريتهم .

في هذه المرة بادر البطريق إلى تقبيل ذيل رداء السلطان .
وبلمح البصر فتش الإنكشارية ملابس البطريق . وعندما اتضح لهم
أنه غير مسلح سمحوا له بالاقتراب من السلطان . وقبل البطريق
رداء السلطان بإجلال واحترام كبيرين .

وعند الانتهاء من ذلك صعد الفاتح إلى قبة آيا صوفيا . فقد أراد
مشاهدة المدينة من منظور عين الطائر . كان المنظر الذي رآه مؤسف
ومحزن . كانت المدينة قد دمرت بالكامل ، وليس أسوارها
فحسب . لربما هذا البؤس لم يحصل أثناء الحصار فقط . ذلك أن
الخراب والدمار كان يتسرب إليها باستمرار من جميع الجهات منذ
عدة قرون . حيث تحولت صهاريج المياه المفتوحة إلى حقول
وبساتين ، وبيت البوم ويعشش في أطلال الكنائس . وما يحز في
القلب أيضاً كان منظر آثار زلزال مضمار السباق الذي لم يستخدم منذ
زمن طويل . وأخذ يتجول بنظره على موقع أعمدة القصر الكبير
الذي دمره اللاتين منذ ٢٥٠ عام تقريباً . وأدرك الفاتح الشاب أثناء
نزوله من قبة آيا صوفيا أن مهمته لم تنتهي ، على العكس تماماً ، لقد
بدأت من جديد . واتخذت النار المشتعلة داخله شكلاً جديداً .
وكان لابد من إعادة بناء هذه المدينة من الصفر . وهو أمر كان يقع
على عاتقه القيام به مرة أخرى . وبهذا الشغف وهذه النار أصدر
أولى أوامره قائلاً :

- فليؤذن المؤذن .

وعلى الفور أذن المؤذن بصوت مثل البلبل . ووقف السلطان محمد الفاتح ومن يرافقه لأداء صلاة العصر .

وعقب الصلاة أصدر الفاتح أمراً جديداً :

- فليصنع لآيا صوفيا منبراً ومحراباً ، وتغطي الرسوم على الجدران . سنصلي صلاة الجمعة في هذا المكان .
قوبل أمر السلطان هذا بصيحات التكبير .

أقيمت صلاة الجمعة الأولى عقب الفتح في آيا صوفيا يوم الجمعة الموافق لـ الأول من حزيران سنة ١٤٥٣ . وبذلك تحولت أعظم كنيسة في المدينة إلى جامع في حين تركت الكنائس الأخرى على حالها بوصفه تقليد عثماني .

أقام الصلاة آق شمس الدين بناءً على توصية السلطان . وقال هذا العالم الجليل جملة خلال خطبته جعلت السامعين لها يرددون عبارات « ما شاء الله » و « إن شاء الله » وهي : « أنا على يقين أن الإسلام سيملاً هذه المدينة في المستقبل القريب . وأعتقد بقوة أن اسم هذه المدينة الجميلة سيتغير ليصبح « إسلامبول » » .

بعد صلاة الجمعة قال السلطان محمد الفاتح للصدر الأعظم جاندارلي خليل باشا :

- أيها الباشا لقد حققنا إنجازاً عظيماً بعون الله .
- هذا صحيح أيها السلطان . . . وحصة الأسد في هذا النجاح هي من نصيبك .
- أنا لا أميز نفسي عنكم . . . ولا سيما جيشي فأنا واحد منهم .
- رضي الله عنك .
- أقول بأن نتوج هذا النصر باحتفالية .
- مناسب يا سلطاني
- رتب أنت هذا الأمر
- سمعاً وطاعة
- شيء آخر . . .
- نعم يا سلطاني
- فليأخذ الجيش نصيبه من الغنائم . لكن حذاري أن يلمس المباني التاريخية وبخاصة آيا صوفيا فليحمها جيداً . ولا ينتزع فسيفسد هذا المعبد الرائع .
- حاضر يا سلطاني ، بأمرك . . .
- كذلك . . .
- نعم يا سلطاني

- ابتداءً من الغد ليبدأ إلقاء الدروس في آيا صوفيا . ينبغي أن يكون هذا المكان دار علم . ودع الملا خسرو يهتم بهذه الأمور . وينفذ كل ما يطلبه بهذا الشأن .

- أمرك يا سلطاني

لم يستطع جاندارلي خليل باشا تصديق أن الذي أصدر هذه الأوامر الرائعة جميعها هو السلطان الشاب الراض لمعظم قراراته . وبات يدرك الآن جيداً مدى الخطأ الذي ارتكبه حينما اعتبره « طفلاً » فيما مضى .

وبناء على تعليمات جاندارلي خليل باشا صدرت الأوامر إلى قوات الجيش بجمع الغنائم . مع التذكير بحساسية السلطان تجاه المباني التاريخية بشكل خاص . حتى مسمار واحد لم يتم انتزاعه منها .

بعد الفراغ من موضوع جمع الغنائم ، أقيمت الاحتفالات مدة ثلاثة أيام بلياليها في أوق ميداني . كما نظمت الألعاب والمسابقات المختلفة بين الجنود . وقرأت ختمة القرآن الكريم على أرواح الشهداء والدعاء لهم . ووزعت هدايا النصر من أموال وأراضي وأملاك على الأبطال والمحاربين .

* * *

خطابات الفتح

- بقي الحماس كبيراً طوال الأيام الأولى من الفتح .
وخاطب السلطان معلمه الملا كوراني قائلاً له :
- إن العلماء الأجلاء مثلك يا معلمي لهم فضل كبير في انتصارنا هذا .
- لقد قام الجميع بواجبهم يا سلطاني . ونحن كذلك ...
- شكرا يا معلمي ، إن خدماتكم لن تنسى .
- الشكر لكم يا سلطاني ، ولدولتنا .
- أتمنى لو نرسل خطاب « الفتح » إلى بعض الدول الصديقة لنا .
- لقد أصبتم يا صاحب الدولة ، إن مشاركة فرحتنا مع الأصدقاء هي عادة قديمة .
- أرجو منكم تحضير أولى خطابات الفتح تلك ...
- إن طلبكم هذا هو بمثابة أمر بالنسبة لنا يا سيدي ...
- استغفر الله يا أستاذي ...
- إلى من تأمرني أن أكتب الرسالة الأولى ؟

- تعلمون أن دولة ممالك مصر هي أقوى دولة في العالم الإسلامي في وقتنا الحاضر .

- صحيح .

- اعتقد أنه من المناسب كتابة رسالة الفتح الأولى إلى السلطان المملوكي سيف الدين إينال .

- ما تفكر فيه صحيح يا سلطاني ، إذا سمحت لي سأبدأ الآن بكتابة الرسالة .

- تفضل يا معلمي .

قدم الملا كوراني الرسالة التي أعدها إلى السلطان محمد الفاتح وجعله يوقعها ، ثم ختمها بختم الدولة ، وسلمها إلى وفد من السفراء برئاسة الأمير جمال الدين القابوني .

استقبل السفراء بحماس كبير في مصر . وقرأ الحاكم المملوكي سيف الدين إينال خطاب الفتح المرسل من السلطان بتمعن . عندها شاعت في وجهه السعادة والسكينة . ثم جعل أحد رجاله يقرأ الرسالة بصوت عالٍ لكي يسمعها الحاضرون :

« بسم الله الرحمن الرحيم ،

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ إن الوقت

هو وقت تلاحم وتعاضد العثمانيين والمماليك بعضهم البعض بمحبة وود . إن من أحسن سُنن أسلافنا أنهم مُجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، ونحنُ على تلك السُّنة قائمون ، ومُستمسكين بحديث نبينا صلى الله عليه وسلم : « مَنْ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ » .

فهممنا هذا العام مُعتصمين بحبل ذي الجلال والإكرام إلى أداء فرض الغزو في الإسلام ، وجهَّزنا عساكرنا الغُزاة والمُجاهدين لفتح مدينة القسطنطينية . وحاصرناها وهي مدينة مُحصَّنة صعبة المرام شامخة الأركان . ومحاطة بالأسوار من كافة الجهات .

وأهلها مُستكبرون على أهل الإيمان . وينالون العون والمساعدة من ممالك مثل رودوس وإسبانيا والبندقية وهم وسواهم من أهل الشُّرك والطُغيان . وما استطاع الظفر بها أسلافنا العظام مع أنهم جاهدوا حقَّ الجهاد ولم ينالوا بها نيلاً .

وأعددت لها ما يعتمد من المنجنيق والنقب والمدافع وغيرها الكثير من أدوات الحرب لحصارها من جانب البر والفُلك المشحون من جانب البحر . ونزلنا عليها بكُلِّ أهبةٍ يعتدُّ بها وجميع الأسلحة في السادس من نيسان من شهور سنة ألف وأربعمائة وثلاثة وخمسين .

في البدء دعوتُ أهلها إلى دين الحق . ولكنهم أصروا واستكبروا ولم يصغوا إلى دعوتنا . فأحطنا بها وجرى بيننا وبينهم القتال ثلاثة

وخمسين يوماً وليلة . وأخيراً فتحت المدينة صباح يوم التاسع والعشرين من أيار من شهور سنة ألف وأربعمائة وثلاثة وخمسين بعون الله ، وبركة معجزات النبي وهمة الخلفاء الراشدين الأربعة . وأخذت كنوزها وخزائنها . وقرأ الأذان بدلاً من قرع الأجراس . والحمد لله على لطفه والنعمة التي أنعمها علينا . لو لم يهدنا الله لما اهتدينا إلى الطريق الصحيح .

وقد رزق الله هذا العبد نعمتين . إحداهما اعتلاء العرش ، والأخرى هي هذا الفتح . وبعثنا مع وفد سفارتنا هدايا لصديقنا العزيز خاصة مؤلفة من غنائم الحرب . نأمل أن تلقى استحسانكم وقبولكم وإن كانت مجرد قطرة في بحر .

وكلنا أمل ورجاء أن يتضمن مكتوب جوابكم أعمالكم الحسنة وينبأ عن أحوال صحكتكم . وذلك بعد قبول اقتراحنا هذا ومعونة الله أيضاً . عالم الغيب وإليه وحده ترجع الأمور .

* * *

أرسل السلطان محمد الفاتح خطاب فتح آخر إلى شريف مكة . وقرأ بنفسه الجواب المرسل منه خلال اجتماع عقده بحضور الوزراء وقادة الجيش والعلماء ومقدمي الدولة جاء فيه :

« خادم الإسلام والمسلمين ،

الحاكم وسلطان رؤساء الدول ،

محيي الدين الذي جاء به الرسول الأكرم ،
المتفوق على أسلافه في الغزو والجهاد ،
المشاد بفتوحاته بين معاصريه ،

المتشرف بتحقيق الآية الكريمة القائلة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ
وَالْإِحْسَانِ ﴾ ، ننحني إجلالاً وإكباراً للسلطان المظفر الذي تفتخر
وتباهى به بني عثمان .

نصر الله أصحابه وخذل أعدائه إلى يوم البعث والنشور بحرمة
سيد الأولين والآخرين وآله وصحبه من ذريته أجمعين الطاهرين عليه
أفضل الصلاة والسلام . فتح الله على يديه معادل خصومه التي متانة
حصونها مشهورة بين الأنام ، وتحصيل ممالكهم وتوابع بلدانهم
المعروفة بعظمتها وجبروتها . بيض الله جباه أصحابه ورزق وجوههم
الفرحة والبهجة دائماً . وسود الله وجوه المشركين مثل سجن
مظلم . وأعز الله القدوس العزيز والمجيب للدعاء جيوشه المظفرة .
وجعل راياته المنصورة ترفرف إلى أبد الأبدين .

وصلت رسالتكم الرفيعة وأسطرُ بشارة الفتح إلى أخيكم
المواظب على الدعاء لكم بكل صدق وإخلاص والمتفاخر بصدافتكم
في أجمل الأوقات . وتلقينا رسالتكم بكل احترام ، وقبلناها بكل
إجلال . وفتحناها بكمال الأدب ، وقرأناها مقابل الكعبة المعظمة بين
أهل الحجاز . فرأينا فيها من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ،

وشاهدنا من فحاويها ظهور معجزة رسول الله خاتم النبيين ، وحمدنا الله
بتيسير ذلك الأمر العسير وتحصيل ذلك المهم الخطير .

وبششنا بذلك غاية البشاشة ، وابتهجنا من إحياء مراسم آبائكم
العظام ، والسلوك مسالك أجدادكم الكرام ، في إظهار المحبة
لسكان الأراضي المقدسة ، وبين جموع المسلمين عملاً بمقولة
أن ؟ الصداقة تنال بالميراث ؟ .

وسررنا بإرسالكم مقداراً كبيراً من المال لتوزيعه على الفقراء
والسادات والعلماء . ودعونا بقلوب خالصة بمقتضى حديث النبي
صلى الله عليه وسلم ؟ دعاء المحسن إليه للمحسن لا يرد ؟ .

نرجو الله تعالى ونتضرع إليه أن يرزقكم من فضله العظيم أفضل
النعم في الدنيا والآخرة .

بعثنا عينات من مختلف الأقمشة الهندية المنقوعة في ماء زمزم ،
وغطاء باب الكعبة المشرفة هدية إلى حضرتكم . ومن المأمول أن
تلقى هدايانا البسيطة هذه قبول آغاوات بآبكم العالي ، وذلك معذرة
وحجة عند عليّة القوم .

وحفظ الله وأدام لكم دولة قوية وسلطنة زاهرة إلى يوم الدين .
آمين « ! .

* * *

أوروبا تذرف دماً

كان البيزنطيون الذين نجحوا في النجاة من عساكر الفاتح قد انتهى بهم المطاف إلى جزر بحر إيجه . وبذلك لاقت هذه الأخبار المؤلمة والحزينة عن فتح القسطنطينية والتي انتشرت في جميع أنحاء العالم صدى واسعاً خاصة في العالم المسيحي . حيث نقل المسؤولون والأشخاص النافذين من خلال الرسائل التي كتبوها الوضع إلى مجلس شيوخ البندقية والبابا .

وعند قراءة إحدى الرسائل داخل المجلس استولى على الحضور حزن عميق . وما لبث أن تحول الحزن إلى غضب ، وتحول الغضب إلى لهيب الانتقام . كان الصخب والضجيج يصدر من الجميع . كانوا يرثون ، ويطلقون الصرخات ؛ وقد كان البعض منهم يتنف شعراً رأسه ويدق صدره إلى جانب أولئك الذين انتحروا . وأخذت فكرة تنظيم حملة صليبية جديدة تطفو على السطح لدى كافة الأطراف .

في حين بدأ البابا نيقولا الخامس الذي سمع الخبر . . . بالصراخ قائلاً « إنه عار على المسيحية ! » . وكان أول ما خطر على باله أيضاً

هو تنظيم حملة صليبية جديدة . وكان يأمل أن يوحد العالم المسيحي بزعامته حول هذه الفكرة . وقد كتب البابا في الرسالة المليئة بالحزن التي وجهها إلى الدول والممالك المسيحية في تاريخ ١٢ من تموز عام ١٤٥٣ ما يلي :

« يا عباد الله المختارين ،

والأباطرة المقدسين !

إن السلطان العثماني محمد قد جثم مثل الكابوس على مدينة القسطنطينية وانتزع مدينتنا المقدسة من بين أيدينا . إن هذا الحدث هو وصمة عار لطخت تاريخنا المجيد . لأن شوارع المدينة الطاهرة قد تدنسست بأحذية العثمانيين . وأغلق البحر الأسود أمامنا ؛ وخرجت الأفلاق من أيدينا . وإن ظلت السيوف التركية تتمايل وتهتز على تلتنا فإني أخاف أن يأتي الدور على صربيا والمجر ولن أتجرأ على القول أنها قد تصل إلى ألمانيا أيضاً ، أو إلى روما .

لقد آن أوان الوحدة .

وأن يعرف السلطان العثماني حَده .

ويطرده الأتراك من الأراضي التي وصلوا إليها »

كان المؤرخ البيزنطي دوقاس أكثر الذين شعروا بتلك المرارة

والأسى . وقال في مرثية نظمها للمدينة التي فقدتها ما يلي :

« يا كبرى المدن !

يا جنة الأرض ، أين جمالك الآن ؟

أين الأضرحة التي دفن بها الحواريين ؟

وأين جثث الأباطرة ؟

كانت مليئة بالطرق والحقول والبساتين

ورفات القديسين والنبلاء والرهبان والراهبات . أين هؤلاء

جميعاً ؟

يا لها من كارثة !

يا لها من كارثة !

* * *

العهود

بدأت آثار الحرب في المدينة بالزوال تدريجياً . وعلت الابتسامة وجوه السكان المحليين عندما لم تنهب محلاتهم كما كان يحدث سابقاً ، ولم يكن هناك قطاع طرق عند كل زاوية . وكان الإنكشارية يتجولون في الطرقات ويحولون دون ارتكاب أحدهم جريمة والقيام بأي تجاوز .

كان الرومان يتحدثون في كثير من الأحيان فيما بينهم قائلين :

- منذ سنوات ونحن يقال لنا إن الأتراك همجيين وبرابرة .

- يا لها من كلمة البربرية ؛ قالوا أنهم متوحشون يأكلون لحوم

البشر .

- ولكن اتضح لنا أنهم ليسوا كذلك على الإطلاق .

- أنت محق ؛ إن الأتراك ليسوا برابرة ولا أكلة لحوم البشر .

- بالرغم من أنهم قتلوا الكثير من جنودنا أثناء الحرب ولكن...

- إنها الحرب ، بالطبع سيموت الجنود فيها ، إنها ليست لعبة

أطفال .

- هل نحن وحدنا ؟ ألم يسقط الآلاف من جنودهم أيضاً ؟
- على أي حال ، لقد تجاوزنا الحرب . وحان وقت السلم
الآن . . .

- إن الأتراك خبراء بالسلم جيداً بمقدار خبرتهم في الحرب .

- لا يتدخلون في معتقدات أحد .

- ولا يستصغرون أحداً بسبب ملته .

- يسمحون للجميع بأن يعيشوا كما يريدون .

- مطلبهم الوحيد هو الولاء والطاعة لهم .

- إذا استمرت الأمور هكذا سيتعلق الناس بالسلطان طواعية

- أتذكر كيف كان هناك ملاك سيخلصنا من ظلم الطغاة

- اعتقد أن هذا الملاك هو السلطان نفسه

- صحيح أيها الجار ، هيا لنعد إلى عملنا .

كان السلطان محمد الفاتح ممتناً لأن الناس كانوا راضين عن
حياتهم . فقد كان السكان المحليون تحت حمايته ورعايته . وكان
يدرك تماماً أن الدول تفتح بحد السيف ولكنها تحكم بالعدل . لذلك
ينبغي أن يحسن استخدام ميزان العدل كما تعلم من والده وهو
ما يزال طفلاً صغيراً . ومن أن أجل أن يستمر هذا الميزان يكيل بدقة

من بعده ينبغي بناء مثل هكذا نظام . وبالفعل كان لدى السلطان طريقة فكر بها لتحقيق ذلك . واستشار وزرائه فيها خلال اجتماع عقده معهم قائلاً :

- ما رأيكم إن منحنا « عهداً » أو ميثاقاً للناس من مختلف الأديان والملل المنضوية تحت حياتنا ؟

أيد جاندارلي خليل باشا السلطان عن طريق القيام بأمر لم يفعله منذ مدة طويلة قائلاً :

- لقد أصبت يا سلطاني . وبخاصة إذا اطمئن المسيحيون على مستقبلهم ستدوم أجواء السلم والاستقرار زمناً طويلاً .

هكذا فكر بقية الوزراء . كانت الدولة العثمانية دولة قوية . وكان يعد منح بعض الحقوق للعناصر الخاضعة لإدارتها من عظم وجلال شأنها .

بعد هذا الاجتماع أعطيت أولى العهود إلى أتباع الكنيسة الأرثوذكسية . رغم أن البطريرك قد أخذ وعداً من السلطان محمد الفاتح منذ اليوم الأول ؛ لكن الوعد الذي قطع قد حووظ عليه الآن بالاتفاق .

انتخب جنادبوس أولاً بطريركاً للكنيسة الأرثوذكسية . ثم دعي إلى مأدبة أقيمت فيما بعد . كانت قاعة الولائم قد أعدت بشكل جيد

للغاية . لم يكن هناك نوع من أنواع الطعام غير موجود على الطاولات . لم ير المدعوون المسيحيون مثل هذا الكرم وحسن الضيافة في حياتهم .

أُكِلَ الطعام ، وتليت الصلوات ؛ وبدأت محادثات ودية بين كلا الطرفين .

بعد ذلك بقليل شوهد البطريرك يدخل إلى حضرة السلطان .
وقام الأخير بدوره بوضع التاج على رأس الزعيم الديني قائلاً :

- إن وضع التاج على رأسكم هو مصدر فخر واعتزاز بالنسبة لي . ثم قال :

-وها هو الصولجان ، وأعطاه للبطريرك .

وفي الكلمة التي ألقاها البطريرك بصعوبة بسبب حماسه وفرحه قال :

- حتى الأمس القريب عشنا حالة من الخوف الشديد . وبغض النظر عن رؤيتكم بمثابة خطر كبير علينا ، كانت تتم معاملتنا كمواطنين من الدرجة الثانية من قبل الكاثوليك . ولكن جئتم أنتم ...

ثم شرب البطريرك كأساً من الماء للسيطرة على حماسه وتابع قائلاً :

- ولكن جئتم أنتم واجتمعنا داخل آيا صوفيا . وبينما كنا بانتظار حكم الموت عفوت عنا : فوق كل هذا أعدت لنا وحدتنا من خلال تاجنا وصولجاننا . لو تعرفون ، آه لو تعرفون ما مدى أهمية هذا بالنسبة لنا... وليعرف العالم كله ، نحن الآن جزء من العائلة العثمانية...

لقيت كلمات البطريرك تقديراً وقبولاً .

أظهر السلطان الوثيقة التي بيده أمام أولئك المتواجدين في الصلاة وقال :

- يتحقق العيش المشترك باحترام حقوق بعضنا البعض .

إننا في الواقع ننفذ ما أمرنا به ديننا . ولا نفعل لغيرنا ما لا نرضاه لأنفسنا . ومن المحتمل أن يأتي بعدنا من ينسى هذه القاعدة . ولهذا السبب أعددنا هذه الوثيقة .

بدأ السلطان محمد الفاتح بقراءة الوثيقة بصوت عالٍ دون أن تسمع همسة في الصلاة . وجاء فيها :

« أنا السلطان الفاتح محمد خان أمر أن لا يتسلط أحد على البطريرك ،

ولا تحول الكنائس إلى مساجد ،

وأن تقام مراسم الزواج والدفن وفقاً لقواعد الكنيسة اليونانية ،

وأن يعاقب الذين لا يمثلون لهذه الأوامر بأشد أنواع العقوبات «
لم يبق لدى البطريرك والشعب الأرثوذكس أي شيء ليقولونه .
واكتفوا بإعلان ولائهم وتبعتهم للسلطان ، ولمرات عديدة
أيضاً... .

وعقب إعطاء الأرثوذكس هذه الوثيقة مباشرة ، منح سكان حي
غلاطة من الجنويين الذين أعلنوا ولائهم للدولة العثمانية امتيازات
مشابهة .

كما ضم السلطان الفاتح السكان الأرمن واليهود المتواجدين في
المدينة تحت جناحي التسامح .

وسرعان ما لقي تصرف السلطان هذا صدى لدى العالم أجمع .
وبخاصة اليهود الذين يعيشون في مناطق جغرافية مختلفة ، حيث
بدأوا بالهجرة إلى مدينة القسطنطينية . وتذوقوا متعة الحياة بممارسة
معتقداتهم بحرية .

* * *

جزاء قول الحقيقة

في أحد الأيام التي ساد فيها الأمن والسلام ، عثر الإنكشارية على أحد الرهبان المحبوسين في الزنازين البيزنطية . كان المسكين في حالة بائسة بقي فيها دون طعام أو شراب لعدة أيام . وكانت أثار التعذيب الذي تعرض له سابقاً تملأ كل مكان في جسده . وخاطب الجندي الإنكشاري الذي وجده داخل الزنزانة المغلقة باللغة اليونانية والتركية قائلاً :

- أين كنتم ؟ كدت أموت من الجوع لو لم تأتوا .

سأل الجندي ،

- من أنت ؟ عندها روى الراهب باختصار ما جرى له .

- حسناً ، سأخذك إلى السلطان . ولكن سأملأ بطنك أولاً .

- شكراً جزيلاً ، شكراً جزيلاً لك . . .

ثم أحضر الراهب الذي ملئ بطنه وغسلت ملابسه إلى حضرة السلطان . فحقد الفاتح بالرجل المسكين وقال :

- من الواضح أنك تعرضت للتعذيب . من فعل هذا بك ؟

- البيزنطيون

- لماذا ؟

- يا سيدي ، عندما شددتم الضغط على أسوار المدينة استدعاني
الإمبراطور وسألني فيما إذا كان الأتراك سيأخذون المدينة .

- وبماذا أجبته ؟

- قلت نعم سيأخذونها وفق ما قرأته وسمعته ورأيته .

- لقد صدقت .

- قلت الحقيقة ولكن كلفني ذلك الكثير . فقد رموني في
السجن ، وتعرضت للتعذيب لعدة أيام ؛ وبقيت دون طعام أو
شراب . وكنت على وشك أن أموت جوعاً لو لم يجدني
الإنكشارية . أنا مدين بالشكر والعرفان لكم .

- اشكر الله قبل أن نشكرنا . بعد ذلك يمكنك أن تعيش كيفما
تشاء في مدينتنا .

- شكراً جزيلاً .

- سأسألك سؤالاً آخر .

- تفضل يا سيدي .

- هل ستبقى هذه المدينة الجميلة في قبضتنا ؟

فكر الراهب للحظة . ربما كان خائفاً من أن جوابه سيثير غضب
السلطان .

- لا تتردد ، قال السلطان ؛ مهما كان جوابك فلن يمس أحد شعرة من رأسك .

تكلم الراهب المطمئن قائلاً :

- نظراً إلى عدالتكم ، وشجاعة جيشكم يمكن أن تبقى المدينة بحوزتكم سنوات طويلة .

- ماذا بعد ؟

- ستزداد الفتن والفساد والاضطرابات فيما بينكم ؛ وإذا ابتعد حكامكم عن العدالة فإن هذه المدينة لن تكون لكم .

وبصوت سيسمعه جميع من حوله قال السلطان :

- ما تقوله صحيح يا حضرة الراهب صحيح تماماً... منهيّاً كلامه . ثم أصدر أوامره إلى موظفيه قائلاً :

- قدموا للراهب كافة احتياجاته .

* * *

أشارت التواريخ الموافقة لأوائل شهر حزيران من سنة ١٤٥٣ إلى إنتهاء عملية الفتح ، وسادت السكينة والطمأنينة داخل المدينة .

ولكن روح الفاتح لم تنعم بالراحة والهدوء بعد . وكأن هناك ورم خبيث ينمو تدريجياً داخله . لم يكن هذا الورم سوى جاندارلي

خليل باشا . وإن لم يأخذ حذره فسيتلبسه بالكامل ، وقد تتحول عائلة جاندارلي إلى منافس لبني عثمان .

ولهذا منذ زمن طويل وضع أفكاره حيز التنفيذ .

ذات ليلة قُرِعَ باب جاندارلي خليل باشا قبل بزوغ الفجر . دعا الخصي العساكر الإنكشارية إلى الدخول . فما كان منهم ومن دون تردد أن توجهوا إلى غرفة جاندارلي . ولم يكن لدى الخصي القدرة أو القوة على دفعهم . واعتقل الإنكشارية الضخام الصدر الأعظم ودفعوه خارجاً .

قال جاندارلي :

- ويحكم أيها الهمجيون ، ما هذه الوقاحة ؟

- إنه فرمان سلطاننا ، عندها تجمد في مكانه .

فقد ألقى السلطان محمد الفاتح بالصدر الأعظم جاندارلي خليل باشا الذي كدّ وتعب عليه منذ طفولته في زنانات يدي كولة .

« انظر إلى سخرية القدر » ، هكذا فكر في نفسه ؛ راهب حرر من زنازين بيزنطة ، ووضع مكانه وزير .

حسناً ماذا بوسعنا أن نقول ، إنها العدالة الإلهية .

* * *

دستور الفاتح

كان السلطان محمد الفاتح قد أعلن للعالم الإسلامي عن فتحه العظيم عن طريق إرسال « خطابات الفتح » من ناحية ، وضمن كافة حقوق الناس من مختلف الأديان والملل عن طريق منحهم « العهود والمواثيق » من ناحية أخرى . ولكن كان هناك موضوع أكثر إلحاحاً من هؤلاء . هو ضرورة إقامة نظام يلائم تنظيمات الدولة وعظمة الإمبراطورية وموقعها الجغرافي . وأن تحدد صلاحيات ومسؤوليات كل وحدة على حدة وصولاً إلى أدق التفاصيل . وبذلك لن يفسح المجال لأي فراغ في شؤون الدولة مهما كان صغيراً . ولهذا أعد الدستور .

كان الدستور يتألف من ثلاثة أقسام هي :

القسم الأول ، ينظم أماكن مقدمي وشيوخ الدولة خلال المراسم .

القسم الثاني ، تنسيق شؤون مثل جلسة الديوان ، والغرفة الخاصة ، ومراسم احتفال خدام القصر .

القسم الثالث ، تنظيم مداخل ذوي المناصب والجرائم
والعقوبات .

وفي زمن قصير اتضح تأثير هذا الدستور . وبدأت الدولة
العثمانية التقدم بسرعة نحو التحول إلى إمبراطورية .

* * *

تغيير وجه المدينة

كان السلطان محمد يدرك أنه حقق نجاحاً كبيراً للغاية من خلال فتح القسطنطينية . ومن الآن فصاعداً أصبح يدعى « بالفتح » وليس « بالسلطان » . فقد سبق وتنبأ أستاذه آق شمس الدين أن اسم المدينة قد يصبح « إسلامبول » في المستقبل . ولكي تتحقق هذه النبوءة وتصبح حقيقة ، كان على المسلمين الذين يعيشون هناك أن يكونوا « كثيرين » بالفعل . ولذلك باشر السلطان محمد الفاتح المدرك لهذه الحقيقة بحركة إسكان كبيرة في المدينة . وتم توطين الشعب المسلم الذي جلب من مناطق مختلفة من الجغرافية العثمانية في أحياء مختلفة من المدينة .

حيث وضع القادمون من مدينة بورصة في منطقة سلطان أيوب ،

ومن طرابزون في محيط جامع بايزيد ،

ومن ولاية تشارشمبا في سامسون إلى حي تشارشمبا ،

وأهالي تيريلي في حي وفا ،

ووضع القادمون من كستموني في حي كازانجي ،

ومن جاليولي في تير سانة ،
ومن أكسراي في منطقة أكسراي ،
ومن ألبانيا في سيليفري كابة ،
ومن مانيسا في حي ماجونجو ،
أما القادمون من إزمير فوضعوا في حي بويوك غلاته .
في حين شرع السلطان محمد الفاتح بالإقامة في قصر خشبي بناه
في منطقة بايزيد .

وبتشجيع من آق شمس الدين وبقية علماء الدين ، أوكّل الفاتح
إلى جميع الوزراء والأمراء والسادة والباشوات والشيخ والزهاد
وظائف هامة تتعلق بإعمار المدينة . حيث عمل هؤلاء مع بعضهم
البعض وكأنهم في سباق من أجل تجميلها . للدرجة أنها اكتسبت
هوية جديدة تماماً خلال مدة قصيرة .

وأخيراً ، أصبح هذا النجاح للسلطان الشاب يقرن بعبارة « فَتْحًا
مُبِينًا » الواردة في الآية الأولى من سورة الفتح . والحق أنه بتحرير
المدينة من الهيمنة الغربية تجاوز هذا الفتح من كونه فتحاً عادياً ،
وارتفع إلى مستوى « الفتح المبين » .

بما أن الإمبراطورية البيزنطية قد أزيحت عن مسرح التاريخ مع
السيطرة على المدينة ، كان لابد من بناء مدينة أكثر شأناً وأطول عمراً

وأجدد بدلاً منها ، وبذلك ينبغي أن يبدأ حقبة جديدة في تاريخ العالم أو حتى عصراً جديداً . جميع هذه الأمور كانت تشغل بال الفاتح أثناء إسراره في النشاطات العمرانية للمدينة .

كان السلطان يدرك أن كل خطوة تتخذ ينبغي أن تقوم على أسس سليمة . والطريق لتحقيق ذلك كان من خلال العلم . وفي هذا الصدد أعطى أهمية كبيرة لإنشاء بيوت العلم .

ما لبث أن بدأ النشاط التعليمي في آيا صوفيا عقب صلاة الجمعة الأولى التي أقيمت فيها . حيث جلب معلمه الملا خسرو برجال علم أجلاء مثله ، وحول آيا صوفيا إلى جامعة . وبعد فترة وجيزة من إقامة هذه الجامعة الأولى تأسست جامعة زيرك بأمر من السلطان محمد الفاتح وتحت إشراف الملا زيرك .

وفي السنة الموافقة لـ ١٤٥٩ تحول جامع السلطان أيوب إلى جامعة مع الإضافات التي أدخلت عليه .

أما الجامعة الرئيسية التي اشتهرت خلال هذه الحقبة كانت تقع ضمن مجمع جامع الفاتح الذي يحمل اسم السلطان . وقد وجد ما مجموعه ثمان مدارس على جانبي الجامع . كان فيها أقسام للعلوم الدينية والدنيوية . كما كان القسم المدعو « دار الشفاء » مقراً لأهم الكليات الطبية في تلك الحقبة . وقد احتوى المجمع أيضاً

على قاعة طعام للأساتذة والطلاب والضيوف . حيث كان يتم إنزال الضيوف في « كيرفان سراي » . وفي القسم المدعو « موقت خانه » كانت تحدد أوقات الصلاة . في حين كانت « صبيان مكتبي » أو مكاتب الصبية جزءاً مهماً من المجمع . وفيها يتم تلقين الأطفال الذين لم يبلغوا سن المدرسة بعد تعليماً خاصاً . كما ضم المجمع المزود بمكتبة ضخمة حدائق وساحات ومنازل مخصصة لإقامة الأساتذة .

وفي يوم من الأيام أتى السلطان محمد الفاتح بزيارة الجامعة المسماة باسمه .

وخاطب مدير المدرسة الذي استضافه قائلاً :

- أرى أنكم تقومون بالكثير من الإنجازات الرائعة .

- أطال الله عمر دولتنا ، ولا حرمانك .

- وأنا أيضاً سأغادر في يوم ما هذا العالم مثل أي إنسان فان .

ولكن الأهم هو أن يسير بيت العلم هذا نحو المستقبل على أسس سليمة . لا تنس هذا أبداً .

- أنت محق يا سلطاني .

- كيف حال كادر الأساتذة ؟

- إنه جيد وهذا بفضلكم يا سلطاني .

- وأنا أيضاً أرغب بالتدريس هنا ، أعدوا لي غرفة .

- إنه لشرف لنا وجود سلطان دولتنا بيننا . ولكن ...

...-

- ولكن كما تعلمون لكي تصبح معلماً هنا ...

- نعم ...

- لكي تصبح معلماً هنا ينبغي عليكم اجتياز امتحان إجباري ...

- أنت محق ، قال الفاتح ؛ لا يجوز أن نخرق القاعدة التي وضعناها . سوف أخوض الامتحان .

- نحن بانتظار حضوركم الامتحان الأول الذي سيقام ،
يا سلطاني .

- لقد بدأت أشعر بالحماس منذ الآن يا أستاذي ، ماذا لو لم
أنجح ؟

- حسناً اجتهد أكثر وستخوض الامتحان مرة أخرى ؛ ولكن أنا
أثق بك يا سلطاني !

نال السلطان محمد الفاتح ، الذي نجح في الامتحان الأول ،
شرف الانضمام إلى الكادر التعليمي للجامعة . وعمد إلى استخدام
هذا الشرف من وقت لآخر أثناء التدريس .

كان السلطان محمد الفاتح قبل عودته إلى أدرنة قد أجرى اجتماعاً حضره الوزراء والسادة والباشوات وكافة أركان الدولة .
وطلب حضور السيد سليمان وخضر شلبي على نحو خاص .

وعقب الخطابات الافتتاحية المعتادة في كل اجتماع دعا السيد سليمان وخضر شلبي إلى جانبه . على ما يبدو كان لديه قرارات هامة بشأنهم . التفت أولاً إلى خضر شلبي وقال :

- أنت يا معلمي خضر شلبي ، تعلم كم أكن لك عميق احترامى .

- جزاك الله خيراً يا سلطاني .

- ألا تذكر ، لم أكن أعرفك بعد في السنوات الأولى من حكمي .

- لم أتذكر يا سلطاني .

- أتى عالم مصري إلى أدرنة . وقد أثار غضبي عجز علمائنا عن الإجابة على الأسئلة التي طرحها . لأجل هذا نصحوني بك . ومثلما أجبت على جميع أسئلة ذلك العالم فقد وضعته في موقف محرج من خلال أسئلتك بالمقابل . ومنذ ذلك اليوم لا تفارقني .

- رضي الله عنك .

- ولكننا سنفترق الآن .

- لم أفهم . . .
- سأعود إلى أدرنة .
- وخادمكم المتواضع ؟
- سيبقى هنا .
- لوى خضر شلبي عنقه مظهراً التواضع والتذلل .
- الرأي رأيك يا سلطاني .
- سيبقى هنا ولكن بصفتك قاضي المدينة (رئيس المحكمة ورئيس البلدية) .
- لم يكن لدى خضر شلبي ما يعبر به عن سعادته .
- أمرك يا سلطاني .
- ثم التفت السلطان محمد الفاتح إلى السيد سليمان هذه المرة وقال :
- وأنت أيضاً يا سيد سليمان لقد نلت تقديرنا وإعجابنا لكونك أول جندي يصعد الأسوار من بين أمراء روملي . ومنذ ذلك الحين ونحن نمنحك مكانة مميزة .
- شكراً لك يا سلطاني .
- إذاً تذكر أن هناك وعداً آخر لنا . . .

- نعم أذكر يا سلطاني . . .

- ها أنا ذا أفي بوعدى الآن وأعينك والياً على مدينتنا .

غمر هذا الخبر السيد سليمان بالفرحة وردّ قالاً :

- رضى الله عنكم يا سلطاني .

- أردت أن أكون مطمئناً عند عودتي إلى أدرنة . وأن تتعاونوا

وتكونوا يداً واحدة وتجعلوا هذه المدينة أجمل مدينة في العالم . كما

أريد منكما أولاً أن تقيما قلعة حصينة للغاية فوق يدي كولىه . ثم

قصرأ يليق بعظمة وجلالة دولتنا . . . ابحثوا عن مكان مناسب لبناءه

ولكن اعتقد أن تلال توب كابى مناسبة لهذا القصر .

- أمرك يا سلطاني .

- أمرك .

بعد توزيع هذه المهام ألقى السلطان محمد الفاتح خطاباً على

الحاضرين في الاجتماع قائلاً :

- لعلمكم جميعاً إن إسطنبول هي حاضرتي من الآن فصاعداً .

استعمل السلطان كلمة « إسطنبول » بدلاً من « القسطنطينية » .

وقد أعجب جميع الحاضرين هناك بهذا الاسم . ولا سيما آق شمس

الدين . . . لأن السلطان محمد الفاتح لم ينسى على ما يبدو كلمة

« إسلامبول » التي قالها المعلم سابقاً .

عند انتهاء الاجتماع جلس السلطان محمد الفاتح إلى جوار
أستاذه الملا كوراني وقال :

- هل يمكنك البقاء قليلاً يا معلمي ؟

أجاب الملا كوراني قائلاً :

- سمعاً وطاعة يا سلطاني .

- استغفر الله يا معلمي ، سأخبرك أمراً . . .

وفي هذه المرة قال الملا كوراني :

- تفضل يا بني .

سرّ الفاتح كثيراً بهذا النداء . لأنه لم يخاطبه أحد بذلك منذ زمن
طويل .

- يا معلمي المحترم ، أتمنى أن نعمل معاً من الآن فصاعداً إن
تفضلت بذلك .

- مثل ماذا ؟

- أود أن تعمل بصفتك وزيراً لي .

تأثر الملا كوراني بهذا العرض الرائع وقال :

- دعك مني يا محمد إن الوزارة ليست ملائمة لي ، سأبقى معلماً
في الجامعة .

- أنت أدري ولكن أود أن أكافئك بشيء على خدماتكم .
- قلت إن الوزارة ليست ملائمة لي .
- حسناً ماذا إن أرسلناك قاضياً على بورصة ؟
- بعد توقف قصير أجاب الملا كوراني قائلاً :
- لا بأس ، يمكنني القيام بهذا العمل .
- قال السلطان محمد الفاتح :
- مبارك عليك يا معلمي ، وقد قبَّل الملا كوراني يده .
- بعد توزيع المهام الجديدة عاد السلطان مرتاح البال إلى أدرنة .

* * *

ما بعد الفتح

عاد السلطان إلى أدرنة تاركاً إسطنبول في أيد أمينة .

كان متلهفاً إلى أطفاله وأمهاتهم .

استطاع الأمير بايزيد إدارة شؤون أدرنة على نحو جيد حقيقة أثناء غيابه . وإن سارت الأمور على ما يرام سيعتلي بايزيد العرش العثماني من بعده . لذلك كان يعدّه منذ الآن لإدارة الدولة .

كان جاندارلي خليل باشا الذي أحضر من زنازين يدي كولة ووضع في زنازين أدرنة ، الشخص الساعي لكبح جماح عشق السلطان للفتح . وبالرغم من أنه لم يعد لدى الصدر الأعظم القدرة على عرقلة طموحات السلطان ولكن من باب الاحتياط فقط . قام السلطان محمد الفاتح ، الذي اتخذ قراراً حاسماً بهذا الشأن ، بإعدام جاندارلي خليل باشا في تاريخ ١٠ تموز ١٤٥٣ . مما أدى إلى بلوغ سلطة الفاتح ذروتها بين وزرائه وبقية رجال دولته .

وإن تحقق الفتح لم يكن لدى السلطان محمد مجال للاستراحة . فقد كان بحاجة إلى مزيد من العمل . حتى أنه لم يضع سيفه في

غمده ، ولم يخلع حذائه . وأثناء انشغاله بجميع هذه الأمور لم يكن آق شمس الدين أكبر الداعمين له بجواره .

كان آق شمس الدين يعتقد أن مهمته هنا قد انتهت . وتمثلت هذه المهمة العظيمة في إعداد الأمير محمد لفتح إسطنبول . والآن بعدما نجح بجدارة في ذلك ، أصبح بإمكانه الانسحاب والتقاعد . وبالرغم من إلحاح السلطان عليه بالبقاء في إسطنبول ولكنه لم يقبل ، واستقر مع عائلته في غوينوك . يمضي وقته في تعليم الطلاب .

وفي أول ليلة له في غوينوك وجد آق شمس الدين نفسه في حضن الذكريات :

« ولد في مدينة دمشق سنة ١٣٩٠ . يعود نسبه إلى سيدنا أبي بكر الصديق . حفظ القرآن الكريم في سنة مبكرة . واستقر مع عائلته في نواحي الحور من مدينة سامسون في السابعة من عمره . أكمل تحصيله العلمي بعد وفاة والده وعمل مدرساً في مدرسة عثمانية . وفي غضون ذلك أصبح شغوفاً بالعلوم ودرس الطب . وبالرغم من صفته العلمية ، فقد كان يمتلك عشقاً أبدياً للتصوف . فبدأ بالبحث عن مرشد لنفسه مقتفياً آثار هذا العشق . وقد أوصى أولئك الذين يعرفونه بأن يرافق الولي حاجي بيرم في أنقرة والشيخ ضياء الدين في حلب .

بناء على ذلك سأل أحد الأشخاص الذي قابلهم عند توجهه إلى أنقرة من أجل التواصل مع الولي حاجي بيرم عن مكان تواجد هذا العالم الكبير . كانت دهشته كبيرة من الجواب الذي تلقاه وهو :

إن الولي حاجي بيرم هو ذاك الرجل الذي يجوب الدكاكين ويجمع الأموال مع مريديه !

استغرب من تصرفه هذا - مثل رجل متسول - وتخلّى عن فكرة مرافقته .

أصبح هدفه الآن هو الذهاب إلى حلب من أجل مرافقة الشيخ ضياء الدين .

بعد مضي عدة أيام على سفره رأى حتماً في الخان الذي نزل فيه . فقد كان هناك طوق كلب حول عنقه ، وكان حبل هذا الطوق في يد الولي حاجي بيرم . كان يريد التوجه إلى حلب ولكن حاجي بيرم كان يجذبه إلى أنقرة .

عاد على عجالة إلى أنقرة على إثر هذه الرؤية وعثر على تكية الولي حاجي بيرم . كان الولي الكبير يعمل مع مريديه في الحقول . وبدأ بدوره بالعمل في الحقول مثل المريدين ولكن لم يلق ترحيباً من حاجي بيرم .

عندما حان وقت الغداء سكب الولي حاجي بيرم ومريديه بقايا الطعام في أوعية الكلاب .

حاول آق شمس الدين كبح حماسه عندها ملتقطاً أنفاسه قليلاً .
لأن الأمور التي تذكرها لم تكن من النوع الذي سينساه الإنسان
بسهولة .

ثم تابع آق شمس الدين الإبحار في بحر الذكريات :

« تذكر الرؤية التي رآها ، وبدأ بتناول بقايا الطعام المسكوبة في
أوعية الكلاب قائلاً (هذا ما تستحقه أنت) . كان الولي حاجي بيرم
مسروراً من هذا الفعل ، وقال له (لقد دخلت قلوبنا بتواضعك هذا ،
تعال معي) .

ما جرى بعدها معروف . مع مرور الوقت أحبه الولي حاجي بيرم
كثيراً وأوكل إليه مهمة خاصة . كانت هذه المهمة هي تحضير الأمير
محمد للفتح العظيم » .

أعاد آق شمس الدين التفكير في القرار الذي اتخذه مرة أخرى
عند تحرره من الذكريات . لم يكن لديه أي شك . لأنه لم يعد هناك
من داع لبقاء السلطان بجواره طالما أن مهمته قد انتهت . بل إن
وجوده هناك قد يولد عواقب وخيمة ربما على السلطان والدولة
معاً . فقد كان السلطان محمد الفاتح يمضي معظم وقته وإلى وقت
متأخر في الزاوية .

ذات مرة قال له السلطان « بمشيئة الله ومعونتكם حققنا الفتح

العظيم . وإذا كنت تقبل أود أن أمضي بقية حياتي كمريد لك » .
رفض طلبه بشدة قائلاً « إن السيف يليق بيد الفاتح أما آق شمس
الدين يليق تحته الصوف » . لو بقي هناك قد يصبح مثل أبيه تماماً
مصرأ على التخلي واعتزال الشؤون الدنيوية . لذلك كان يعتقد أن
ما فعله كان صائباً برفضه طلب السلطان . بناء عليه سيعود السلطان
محمد الفاتح إلى مهمته الأساسية ويشق طريقه في سبيل أن يكون
سلطان العالم .

انغلق آق شمس الدين على نفسه وخص في أعماق التصوف .
ولكنه كان يتسع ويتشتر تدريجياً لدى الناس من حوله .

* * *

السلطان الشاعر

ما تزال رائحة الحرب تملأ الأجواء . مع ذلك لم يتردد الفاتح في إراحة روحه من وقت لآخر . ولكنه قد يتحول إلى وحش يعرف كيف يزأر كالأسد ، أو ناعماً مثل ورق الورد عندما تقتضي الحاجة لذلك . وفي أوقات كهذه كان يدعو أصدقائه الشعراء إلى قصره . وها قد فعلها مرة أخرى .

حضر شعراء العصر البارزين واحداً تلو الآخر . وبعد ذلك بقليل سيُفتتح المجلس ، ويلقي الشعراء نماذج عن آخر قصائدهم . كان السلطان محمد الفاتح من أكثر المعجبين بالشاعر أحمد باشا من بين هؤلاء . وكأنه يُحوّل أبيات شعره المبطنة إلى عشق مجسد من لحم ودم . وما لبث أن عين هذا الشاعر المشهور وزيراً بسبب القيمة التي منحه إياها .

افتتح المجلس . وأخذت القصائد الجميلة ترفرف في الأجواء .

وخطب السلطان محمد الفاتح أحمد باشا قائلاً :

- إنه لحظ كبير لنا وجود شاعر مثلك في عصرنا .

قال أحمد باشا :

- شكراً على الإطراء والمجاملة يا سلطاني ، بل إنها هبة سماوية
لنا الحصول على سلطان شاعر مثلك .

رد السلطان الشاعر قائلاً :

- إذن علينا أن نمنح الشعر حقه . في لقائنا السابق كان هناك
رديف رباعي قد قرأته بعنوان « آه يا قلب » ،

هلا أعدت قراءة مقدمته مرة أخرى ؟

قرأ أحمد باشا القسم المطلوب بحماس كبير قائلاً :

(مذ رأيت شعرها المعطر بالياسمين على خد الورد وقلبي ،

يلهث وراء حب فارغ بلا رأس ولا أرجل .

آه يا قلب ، ألم أقل لك لا تذهب إليها ،

آه وويلتا من هذا القلب ثم آه)^(١)

اختلفت كلمات الشعراء ببعضها البعض قائلين « حياك الله ،

وأطال عمرك ! » .

كان أحمد باشا رجلاً ذكياً لذلك استفسر من السلطان قائلاً :

(١) نظراً لصعوبة الأبيات الشعرية اكتفيت بترجمة النص المتضمن شرحها فقط .

- لا بد أن هناك غاية خاصة أردتموها من هذا الشعر .

رد السلطان الشاعر قائلاً :

- نعم ، هناك غاية خاصة أردناها من هذا الشعر . . .

- هلا تفضلت وأخبرتنا ما هي ؟

- لقد كتبت قصيدة رديفة مشابهة لها . . .

- ما أروع هذا ، آمل أن لا يحرمنا سلطاننا من سماع هذه

القصيدة . . .

كان السلطان محمد الفاتح يخجل مثل شاعر مراهق . مع ذلك كان الشعراء الكبار يعترفون بأنه لم يكن شاعراً يستهان به على الإطلاق . وكان الحماس في قصائده يعكس روحه بين الأسطر . فقد كان يعرف جيداً مغزى الشعر في ذلك العصر ، ويتابع باستمرار قصائد الشعراء الآخرين . إضافة إلى أن استخدامه الاسم المستعار « عوني » والذي يعني « المنقذ » كان يعكس شخصيته .

ألقي السلطان محمد الفاتح قصيدته بصفته عوني وليس السلطان

وهي :

(ما دريت أن الموت دواءٌ للهوى في فؤادي

أتمنى الموت معه من قبل أن أرى آلام الهجران

ما الذي فعلته لأستحق كل هذا الهمّ والغمّ والآلام التي عانيتا
آه يا عوني قد أصبحت مثلك بارعاً في مكابدة الحزن والآلام
ها أنا ذا ما حيلتي لست أدري غير آه وويلتا من هذا القلب ثم آه)
عند انتهاءه سأل السلطان قائلاً :

- كيف وجدتموها ؟

- عظيم . . .

- ما شاء الله . . .

- خاصة أسلوب التجاهل الذي استخدمته في كلمة « عوني »
يستحق الثناء والتقدير . (هو فن يتحدث فيه الشاعر عن شيء يعرفه
ولكن يتجاهله وكأنه لا علم له به) . وهنا بدا الشاعر وكأنه يتحدث
عن شخص آخر عند قوله كلمة « عوني » . ولكن كان هو نفسه
الشخص الذي تحدث عنه) .

- وأنت يا أحمد باشا ، لم تقل شيئاً ؟

- ماذا يمكنني أن أقول ؟ إنها رائعة بالفعل . أنا محظوظ لأنني
كنت باعثاً على كتابة قصيدة كهذه .

- شكراً لكم يا أصدقائي ، شكراً لكم .

- الشكر لك ، ولدولتنا ولنحيا فننا !

انفض الاجتماع . وبقي السلطان الفاتح بمفرده مع رائحة الحرب التي تفوح في الأجواء مرة أخرى .

بدأ البابا يحصد نتائج رسالة الدعوة التي وجهها إلى الدول المسيحية . وبينما انصاع البعض منهم إلى دعوة البابا ، لم يجرأ البعض على الانخراط في مغامرة جديدة .

كان السلطان محمد الفاتح ، صاحب الخبرة الجيدة ، يتابع الأحداث الجارية في العالم المسيحي يوماً بيوم عن طريق جواسيسه . كما أبرم اتفاقاً مع البنادقة الذين قد يشكلون الداعم الأكبر للبابا في الحملة الصليبية المحتملة . وبناء على ذلك تخلت البندقية ، التي ضمت سيطرتها على مستعمراتها الشرقية ، عن الانضمام إلى صفوف الصليبيين . كذلك الأمر بالنسبة إلى الجنويين المتواجدين في البحر الأسود وبحر إيجه حيث اتفقوا مع السلطان . ولن ينضموا إلى الصليبيين مقابل عدم المساس بهم . في حين رفض فرسان رودس عرض المواجهة من قبل السلطان بسبب تبعيتهم للبابا . أما صربيا فقد حاولت بأسلوب مختلف . حيث أرسلت مفاتيح بعض القلاع التابعة لها إلى السلطان لكي تكون صديقة للإمبراطورية العثمانية من ناحية ، وفي الوقت نفسه بدأت بالتشاور

مع المجرين من أجل الانضمام إلى الحملات الصليبية من ناحية أخرى . بناء عليه عدلَ الفاتح الذي أبلغ بذلك عن الاتفاق مع الصرب .

في سنة ١٤٥٤ شن حملة على صربيا . استولى على أوستروفيتش وأومول وسيفريجه حصار . ولكن بمجرد أن انسحب الجيش العثماني اجتاح المجر من ناحية والصرب من ناحية أخرى الأراضي العثمانية . عجز خلالها فيروز بك الذي بقي في المنطقة عن إعاقة العدو ووقع أسيراً .

بناء عليه جمع الفاتح وزرائه وقادة جيشه وقال لهم :

- هل ترون ما فعله الصرب والمجر ؟

أجاب الوزراء :

- لم يستطيعوا الخروج للتصدي لنا رجلاً لرجل ؛ استغلوا فراغ الميدان أثناء غيابنا . . .

- اجتاحوا أراضينا

- إضافة إلى أسرهم لفيزوز آغا ، وعند اطلاعه على وجهات النظر هذه أخبر السلطان الفاتح محمد بما ينبغي فعله .

عندما علم الصرب والمجر بخروج السلطان لشن هجوم مع قواته لم يتجرأوا على خوض حرب جديدة . وقبلوا بدفع الجزية

للعثمانيين مطلقين سراح فيروز آغا . ولكن السلطان لم يكتفِ بهذا ، وشن حملة جديدة في سنة ١٤٥٥ ضم فيها صربيا إلى الأراضي العثمانية .

* * *

كانت بلغراد هدف الفاتح التالي هذه المرة . فقد كان لابد من السيطرة على شواطئ نهر الدانوب وبلغراد خاصة إزاء التهديدات القادمة من الشمال .

في سنة ١٤٥٦ سار الجيش نحو بلغراد . مما ساهم في توحيد أوروبا تجاه هذا التحرك . كما أرسلت كلاً من ألمانيا وإيطاليا قواتها لنجدة بلغراد .

فقد سبق وحوصرت بلغراد حصاراً طويلاً دام قرابة ستة أشهر من قبل والد الفاتح ولكن لم ينل أي نتيجة .

اعتقد السلطان محمد فاتح إسطنبول أن بوسعه الاستيلاء عليها بسهولة . ولكن الأمور كما تمنى . فقد هُزِمَ الأسطول البحري العثماني أمام الأسطول المجري . وعمت الفوضى في الجيش العثماني عند استشهاد أمير أمراء روميلي قراجا بك . كما ألحقت القوات الصليبية الهزيمة بالجنود الإنكشارية .

لم تكن الهزيمة أمراً يقبل به السلطان محمد الفاتح . فهاجم

صفوف العدو وهو يضرب على صهوة حصانه الأشهب بالسوط الذي بيده . في حين اندفع الجنود الإنكشارية القريبين لحماية السلطان . وبهذه الحركة أعيدت الحياة إلى الجيش العثماني . وبينما كانت المدينة على وشك السقوط وقعت مشكلة أخرى . فقد سقط أحمد آغا الإنكشارية شهيداً . وأصيب السلطان محمد الفاتح أيضاً . مما دفع وزرائه إلى منعه من مواصلة الحرب بهذه الحال رغماً عن إرادته .

- تؤخذ بلغراد في أي وقت ولكن العثور على سلطان آخر مثلك أمر صعب للغاية . . .

استوعب الفاتح كلامهم .

رفع الحصار عن بلغراد . وعاد الجيش أدراجه إلى أدرنة .

* * *

جعل الألم عسلاً

كان هناك نشاط محموم في قصر أدرنة . والسبب كان إرسال السلطان محمد الفاتح ابنه البكر حاكماً على مقاطعة أماسيا .

أي أن الطرق نفسها التي سلكها ذات مرة سيسلكها ابنه الآن . كان بايزيد محظوظاً هو الآخر . فبالرغم من أنه قليلاً ما يرى والده ، فقد عاش مع عائلته في أدرنة حتى هذا العمر . فقد بلغ الآن التاسعة من عمره . وحين الوقت لكي يتعرف على القواعد الصارمة للدولة . وأول قاعدة سيتعلمها كانت أن لا يعول على لهفة وحسرة الأب . لأنه لن يكون وحيداً بينما يتذوق طعم الألم هذا . فقد كان يذهب برفقة والدته غولبهار خاتون إلى أماسيا . حيث سيضمنان أيديهما ويتجولا معاً في حدائق التفاح في أماسيا . غير أن أهدافهم الأساسية كانت التحضير لاعتلاء بايزيد العرش . وفي الوقت الذي كانت فيه شيشك خاتون ترى أن السلطنة ملائمة لابنها الصغير جم ؛ لن تسمح غولبهار خاتون لأي أحد بالاستحواذ على السلطنة التي هي من حق بايزيد ، أثناء انتظارها للأمير مصطفى ابن غولشاه خاتون . لذلك كان ينبغي تنشئة الأمير الابن على نحو يوافق نشأة والده .

كان يرافق الأمير أثناء ذهابه في العادة إلى أدرنة جيش صغير .
إضافة إلى الوزراء والخدم والأساتذة والحرس والأصدقاء . . .
قبل السلطان محمد الفاتح ابنه للمرة الأخيرة ثم سلمه إلى أمه
بعدها شم رائحته . في حين بقيت الأم والابن ينتظران حتى ركب
العربة .

وأخيراً ضربت السيّاط ، وانطلقت العربات .
كان السلطان محمد الفاتح الأشد حزناً والأكثر ثباتاً وحزماً من
بين المؤدّعين . ومهما حصل فقد تعلم أن يصنع من الألم عسلاً
حينما يتعلق الأمر بالمصالح الذاتية للدولة .

* * *

اقطع يد السلطان

بالرغم من إقامته في أدرنة كان السلطان محمد الفاتح يتردد من حين لآخر إلى إسطنبول ، يتفقد موظفي الدولة .

وفي يوم من هذه الأيام ، كان الموظفون مجتمعون في مكتب القاضي خضر شلبي .

كان خضر شلبي على دارية تامة بنية السلطان الحقيقة بالرغم من ثراتهم وأحاديثهم التافهة .

- هل كَفَيْنَا ووفَّيْنَا في تفقدنا يا سلطاني ؟

- يا معلمي ، وأي كلمة هي تفقد ، إنها زيارة مجاملة بالنسبة إلي . . .

- فليكن ذلك . هل أنت راض عن هذه الزيارة ؟

- أنا ممتن للغاية . . . يا لها من نعمة عظيمة بالنسبة لنا أن يكون لدينا قاض جليل مثلك . . .

- شكرًا يا سلطاني . عندي خبر أتصور أنه لن يعجبك .

أصيب السلطان محمد الفاتح بالقلق وقال :

- خير يا معلمي ، ما هو هذا الخبر ؟
- هناك رجل ينتظر في الخارج . . . يده مبتورة .
- وما علاقة ذلك بي ؟
- إن هذا الرجل معماري رومي . . . خلال تشييد جامع الفاتح . . .
- تذكرت الآن . لقد قص هذا الرجل أعمدة الرخام التي ستستخدم في البناء بلا مبرر . وأنا بدوري . . .
- وأنت أيضاً قطعت يده .
- نعم ، هذا ما حصل بالضبط .
- وقد أتى هذا الرجل إلينا يشتكي منك . وحينما علمت بقدمك أرسلت في طلبك للقدوم إلى هنا .
- أحسنت صنعاً ، فليأتِ إذن كي نتواجه .
- ليس كذلك . سنذهب إلى قاعة المحكمة ، وستدافع عن نفسك هناك .
- بدأ السلطان محمد الفاتح يتعرق قليلاً ، لم يكن لديه خيار آخر .
- وذهباً إلى قاعة المحكمة . ثم قرأ اسم المعمارى الرومى واستدعى إلى القاعة ، ووقف ينتظر فى المكان المخصص له بوصفه المدعى .
- فى حين كان السلطان يحدد فى المهندس من مكان جلوسه .
- القاضى خضر شلى :

- يا سيدي ، ستتواجه مع المدعي أمام القانون ، وعندما طلب منه الوقوف وقف بكل تواضع .

والآن تساوى كل من المعماري الرومي والسلطان العثماني في المنزلة نفسها .

قال خضر شلبي للسلطان :

- إن هذا الرجل المدعي عليك . . . يعتقد أنك قطعت يده بغير وجه حق . ما قولك في هذا الشأن ؟

- لا اعتقد أنني اقترفت ظلماً . لقد أمرت فقط بمعاقبة من قص الأعمدة التي ستستخدم في بناء الجامع .

بعدما استمع خضر شلبي إلى المعماري الرومي أيضاً قال :

- سيصدر القرار بحققكم بعد قليل . سأرفع الجلسة مدة عشر دقائق .

في غضون ذلك وضع كل من السلطان محمد الفاتح والمعماري الرومي نفسه مكان الآخر . وفكر المعماري بمدى صرامة وحزم السلطان في شؤون الدولة ، وأنه لن يغفر أي خطيء يتعلق بها . بالمقابل افترض السلطان أن يده قطعت بين ليلة وضحاها . لم يكن ليعرف ما سيفعله من الألم والغضب . ورأى أنه اقترف خطأ بحق المعماري الرومي .

استؤنفت الجلسة مرة أخرى . وقال القاضي خضر شلبي :
- حكمت المحكمة . وفق ما تبين ، فإن السلطان محمد الثاني
قد قطع يد المدعي بغير وجه حق ...
حسب جميع من في القاعة أنفاسه . ما القرار الذي سيتخذ
يا ترى ؟ ثم تابع خضر شلبي قائلاً :
- حسب الأوامر الشرعية ، يجب قطع يد السلطان العثماني
قصاصاً ...

كان السلطان مندهشاً . ومع ذلك لوى عنقه ، وأبدى رضاه بالحكم .
ذهل المعماري الرومي لا يعرف ما الذي سيفعله ... وارتجف دهشة
من هذا الحكم الذي نطق به القاضي ... ثم استعاد رشده وقال :
- يا حضرة القاضي ، يا حضرة القاضي ؛ أتنازل عن الدعوى .
لقد استصغرت نفسي أمام عظمة العدالة الإسلامية . لن أتحمل أن
تقطع يد سلطان مثله ويُلعن حتى قيام الساعة .
قال خضر شلبي :

- إن تنازلك عن الدعوى لا يعني أن السلطان لن يلقي عقابه .
أحكم عليه بدفع مبلغ مالي تعويض لك ، انتهت الجلسة .
وبمجرد أن أعلن خضر شلبي انتهاء المحاكمة حتى اعترف
السلطان للمعماري الرومي قائلاً :

- بدأت أقنع أنني كنت مخطأ في هذه القضية كلما فكرت بها .
سامحني ، سأدفع التعويض وزيادة . كما سأشتري لك بيتاً .

ثم سمع صوت خضر شلبي من بعيد قائلاً :

- عليك أن تدفع كل ذلك من أموالك الشخصية . . .

أنهى الفاتح كلام خضر شلبي بالقول :

- بالطبع أعرف . الحمد لله ، لم يشهد أحد قط أن أكلت مالاً
حراماً باستعمال أموال الدولة في شؤوني الخاصة .

خلت قاعة المحكمة . وبقي خضر شلبي مع السلطان
وحدهما .

وكان كلاهما يرمق الآخر بنظرات ذات مغزى . من الواضح أن
هناك كلام سيقال . ثم باغت السلطان قائلاً :

- لو أنك طلبت التماساً بشأن هذه القضية لأنني سلطاناً ، لكنت
قطعت رأسك بسيفي !

لم يكن جواب خضر شلبي أقل جرأة من كلام الفاتح بقوله :

- وأنت أيضاً لو لم تؤمن بسلطنتك وتعترف بقرار المحكمة لكنت

حطمت رأسك بذلك الصولجان الواقف تحت طاولتي !

* * *

عشق السلطان المطلق

بدأ السلطان محمد الفاتح في اكتساب تقدير وإعجاب الدول المجاورة . كما انضمت أثينا ، مركز الحضارة اليونانية القديمة وشبه جزيرة المورة ، بمحض إرادتها إلى الدولة العثمانية . وبذلك دخلت منطقة البلقان بالكامل تقريباً ضمن الحدود العثمانية .

نقل السلطان محمد الفاتح الذي ضمن أمن وسلامة هذه المنطقة وجهته هذه المرة نحو الأناضول .

كان يوماً ربيعياً من سنة ١٤٦١ . خرج الجيش والأسطول في حملة ، ولكن لم يعرف أحد باستثناء السلطان عن وجهتهم . في الحقيقة ستعرف عما قريب . وذات صباح فوجيء الجنويين المسيطرين على مدينة آماسرا بالجيش والأسطول العثماني أمامهم . وبمجرد أن زالت دهشتهم أدركوا عدم جدوى المقاومة ووجدوا في الاستسلام ملاذاً لهم . وبذلك انضمت آماسرا إلى الحكم العثماني دون إراقة الدماء .

كانت سينوب تقع بالقرب من آماسرا . كما كانت حاضرة بني إسفنديار . وبالرغم من أنها كانت إمارة تابعة للدولة العثمانية ولكن

الفاتح كان يرغب بضمها إلى الأراضي العثمانية بشكل نهائي . ولم يلبث أن بدأ الحصار حتى قام الصدر الأعظم محمود باشا بالاتصال مع إسماعيل بك الذي كان حاكماً للإمارة . وبعد مفاوضات عديدة أجريت سلم إسماعيل بك المدينة إلى العثمانيين . وبهذه البادرة الودية نال تقدير وإعجاب الفاتح . ويصبح أميراً على سنجق فيليبه التابع للدولة العثمانية .

سرعان ما ظن الجميع أنه كان في طرابزون . ولكن الفاتح قلب توقعاتهم رأساً على عقب مرة أخرى . فقد كانت جيوش السلطان تتقدم نحو أرزنجان عن طريق سيواس .

فقد سبق وأعيدت السيطرة على قلعة قيولو حصار التي كانت بحوزة أوزون حسن بعد حصار دام ثلاثة أيام . وكان أوزون حسن الذي أعرب بكل المطارح تقريباً عن تفوقه وتغلبه على السلطان محمد الفاتح قد أخذ على حين غرة . وفي هذا الصدد أرسل وفداً إلى السلطان ، وقد ضم الوفد والد أوزون حسن سارة خاتون وأمير تشميش غيزك كرد حسن إلى جانب أعظم عالم فلكي في ذلك العصر علي كوشتشو .

تحدثت والد أوزون حسن ، سارة خاتون ، بنضجٍ منحها إياه سنّها المتقدم قائلة :

- يا بني السلطان محمد الفاتح بك . . .
- تفضلي يا أمي أسمعك . . .
- بما أنك تدعوني أمي إذن ستنفذ ما أقوله . . .
- هذا يعتمد على ما ستقولينه . . .
- إن الأمهات لا يدعون أبنائهن بشيء سيء . . .
- أعلم يا أمي ، أعلم .
- ما سأقوله هو أن لا تتقاتلا فيما بينكما ، ولا تهدر دماء الإخوة هباءً .
- جيد ما تقولينه يا أمي ، هذا ما أرغب به أيضاً ولكن . . .
- لا يوجد لكن في أمر كهذا يا بني ؛ لن يعص أوزون حسن لك أمراً بعد الآن .
- هذا لا يكفي . . .
- ماذا تريد أكثر ؟
- أن لا يمد يد العون إلى إمبراطورية روما الطرابزونية . . .
- حسناً ؛ سينفذ ابني مطلبك هذا .
- ثم التفت الفاتح هذه المرة إلى علي كوشتشو المتواجد ضمن الوفد وقال له :

- وأنت يا معلمي ، لقد ذاع صيتك في العالم كله . وأرى أنك
لست مجرد عالم فلك ورياضيات ولغوي كبير فحسب ، بل إنك
« وسيط » أيضاً .

- عندما وقع خلاف الإخوة هذا يا سلطاني ، أوكل إلينا أمر إنهاء
هذه الحرب . ولكنني تبين لي أن سارة خاتون قد أنهت الحرب قبل
أن تبدأ بعد . . .

- ليست هي فقط ، كلكم لديكم قدركم وقيمتكم عندي .

- شكراً لك يا سلطاني

- هل أخبرك أمراً آخر ؟

- تفضل ؟

- ماذا لو ذهبت إلى إسطنبول بينما نحن نتابع حملاتنا ، وأخذت
قدر ما تشاء من أقربائك ورجال العلم الذين تحترمهم وتقدرهم
معك ، كيف سيكون ذلك ؟ إن جامعة آيا صوفيا بحاجة لك !

فوجيء علي كوشتشو بهذا العرض غير المتوقع . ثم قال :

- إنه لشرف لي العمل معكم يا سلطاني .

ثم التفت السلطان إلى سارة خاتون مجدداً وقال لها :

- سنرسل علي كوشتشو إلى إسطنبول يا أمي . أما أنت ستكونين

ضيقتنا لفترة من الزمن . في حين سترك أمر كرد حسن أمير تشيش
غيزك إلى أوزون حسن .

لم تدري سارة خاتون ما تقوله . ولكنها أدركت أن السلطان
ما يزال غير واثق بأوزون حسن . ولهذا السبب لم يصرفها . وإن
فكرت في نفسها بأن « السلطان قد أخذني رهينة » ولكنها لم تفصح
عن ذلك .

* * *

انطلق الفاتح وقواته في رحلة شاقة .

فقد كان من الصعب للغاية التقدم في الجبال الوعرة . وفي لحظة
ما سألت سارة خاتون السلطان قائلة :

- يا بني ، هل تستحق قلعة طرابزون كل هذه المشقة والتعب
بالنسبة لسلطان مثلك أذل العديد من الأمراء وأخضعهم لسيطرته ،
فبدلاً من أن تنام على أسرة من ريش النعام تخرج في غزوة شاقة
كهذه ؟ ألا يمكن أن تغفو وتصفح عن هذا المكان ؟

فأجابها السلطان بقوله :

- هل تظني أنني أتحمّل كل هذه الصعاب من أجل قلعة
طرابزون ؟ إن السيف الذي أمسكه هو سيف الإسلام ، وهذه
المساعي والأعمال من أجل الدين وفي سبيله ، وإذا لم أتكبّد المشقة

في هذا الطريق ، أليس من الكذب أن يطلق عليّ لقب السلطان الغازي ؟ ومهما تحملت من المتاعب من أجل إرضاء الله والفوز بثواب الجهاد فهو قليل .

نالت سارة خاتون ما تستحقه . ولم تعد تتحدث في هذا الموضوع بعد الآن .

وصل الأسطول العثماني مدينة طرابزون قبل الجيش ، وبدأ بقصف قلعتها بالمدافع لتدميرها . ولكنه لم يتمكن من تحقيق أي نجاح حقيقي . وكاد أن ييأس ويفقد الأمل حتى وصل الفاتح وجيشه مخترقاً الطرق الموصوفة بالحصينة . عندها اعتقد الإمبراطور ديفيد أنه قد وقع في الفخ . وأصيب بحالة من الدهشة الشديدة لما علم أن والده أوزون حسن ترافق السلطان الفاتح ، وأدرك أن صديقه أوزون حسن لن يأتي لنجده .

كان الإمبراطور رجلاً ذكياً . لذلك رأى أنه الأفضل تسليم المدينة بدلاً من مواصلة الحرب مع العثمانيين . وهكذا في ١٥ آب ١٤٦١ طويت صفحة الإمبراطورية طرابزون الرومية وأصبحت من الماضي .

وزع السلطان الفاتح أموال القوات الطرابزونية الرومية على الجيش العثماني . كما أهدى سارة خاتون أغلى وأثمن الأشياء الموجودة في الخزانة .

لم يكتفي بذلك ، فقد زوج جوهر سلطان ابنة زوجته الأولى غولبهار من أوغورلو محمد بك ابن أوزون حسن . وكان الهدف هو صون الوحدة التركية في الأناضول بهذه الطريقة .

* * *

عاد السلطان محمد الفاتح إلى أدرنة بعدما فتح طرابزون . كانت البلقان قد تحركت مجدداً أثناء انشغاله بحملته في الأناضول .

في سنة ١٤٦٢ أذل السلطان العظيم حاكم الأفلاق الذي أطلق عليه لقب الأمير الوند « قازقلي فوفودا » أي الأمير الظالم بسبب أعمال التعذيب الوحشية واللاإنسانية التي ارتكبها . وبذلك أصبحت أراضي الأفلاق داخل حدود الدولة العثمانية . كما كبح انتصار الفاتح هذا جماح الدول التي تكن العداء والكرهية تجاهه .

تلا ذلك دخول كل من البوسنة والهرسك ومدللي والمجر وألبانيا وإيري بوز ضمن الهيمنة العثمانية . ولاسيما الشعب البوسني الذي اعتنق الدين الإسلامي نتيجة حسن المعاملة التي تلقاها .

استغل بني قرمان انشغال الفاتح بحملاته الأوروبية وثاروا على أميرها مصطفى واستعادوا السيطرة على مدينة لارينده . إضافة إلى إلحاقهم الهزيمة بمحمد باشا الرومي المرسل إليهم ، حتى أنه خلص نفسه بصعوبة بالغة . بناء على ذلك أرسل السلطان هذه المرة

الصدر الأعظم إسحاق باشا لإخضاع بني قرمان . حيث إزيلت دولة بني قرمان التي انتزعت منها جميع الأراضي المحيطة بمدينة قونية من الساحة التاريخية .

لم يرق لقبيلة آق قيونليو المصير الذي آل إليه بني قرمان .

ورغم الهزائم العديدة التي تعرض لها أوزون حسن لكنه لم يتردد في التمرد والعصيان على العثمانيين ، وقد شجعتته كثرة قواته على القيام بكل شيء . غير أن الميزة الأكبر للجيش العثماني الذي كان أقل عدداً من جيش أوزون حسن ذي الأعداد الغفيرة كانت وجود سلطان مثل محمد الفاتح . على أي حال كان الجيش العثماني الطرف المنتصر من الجيشين اللذين التقيا في معركة أتلو بلي . بناء عليه طلب أوزون حسن الصلح مرسلأ سفيراً له . وتمت الموافقة على طلبه شريطة ألا يهاجم الأراضي العثمانية مرة أخرى . ولكنه لم يف بوعده وأجرى اتصالاته مع البنادقة هذه المرة ، غير أنهم كانوا عاجزين عن مجابهة الدولة العثمانية . وبذلك اضطرت أوروبا بأكملها للاعتراف بقوة السلطان محمد الفاتح .

* * *

واصل السلطان الفاتح توسيع رقعة أراضيه واثقأ من نفسه .

إذ لم يكن صعباً ضم القرم وبوغلان وأشكودرا إلى الأراضي

العثمانية . وقد واجه السلطان الفاتح بعض الصعوبات مع البنادقة وحدهم ، ولكنهم اضطروا في النهاية إلى الرضوخ له مرغمين .

عقب حل مشكلة البندقية بشكل حاسم صرف السلطان الفاتح انتباهه نحو إيطاليا . حيث توجه أولاً نحو مدينة أوترانتو القريبة من تلك المنطقة في تموز ١٤٨٠ ، غير أنها لم تصمد طويلاً أمام الهجوم الحاصل من محورين اثنين وتم تسليمها . وبهذا الانتصار حاز السلطان الفاتح على قاعدة متقدمة للهيمنة الإيطالية على غربي البحر الأبيض المتوسط . قوبل هذا الأمر بخوف وقلق من قبل البابوية . لأنه في حال استولى الفاتح على مدينة روما يعني ذلك أن البابا سيوضع تحت حماية السلطان . وهو أمر لا يمكن أن يقبل به العالم المسيحي . لهذا السبب دعا البابا الممالك الأوروبية إلى توحيد صفوفها والاتفاق مجدداً ضد الأتراك . غير أن هذه الدعوة لم تلق استجابةً ، ولم تجرأ الممالك الأوروبية على مواجهة الجيش العثماني .

* * *

الفاتحون يموتون أيضاً

في مطلع عام ١٤٨١ كان على جدول أعمال الفاتح ثلاث قضايا :

القضاء على دولة المماليك الحاكمة في مصر ،
استلام رودوس وجميع الجزر المحيطة بها ،
وأخيراً فتح إيطاليا . . .

في ربيع عام ١٤٨١ بدأت رايات السلطان ترفرف في أسكودار ،
بينما كانت فرقة المهتار تعزف أجمل الألحان ؛ والجيش ينتظر في
حالة استنفار من أجل الحملة . ولكن لا أحد يعلم وجهتها بما فيهم
الوزراء ، بل مجرد تخمينات وتوقعات تصدر فحسب .

ورغم مرور ثلاثة أيام لم تصدر الأوامر بالتحرك . وكيف للجيش
أن يعرف أن مرض السلطان قد ازداد . إذ تضاعف عليه مرض
النقرس المصاب به في قدميه وثقلت وطأته لدرجة عجز فيها السلطان
الكبير عن ركوب حصانه .

وأخيراً أعطيت الأوامر للحملة بالتحرك ولكن هدفها ما يزال

مجهولاً . حيث استجمع السلطان كامل قواه حتى تمكن من المسير
راكباً على العربة .

وبعد فترة وجيزة أمر الفاتح - الذي لم يعد بوسعه ركوب العربة -
الجيش بالتزول في مكان وجودهم والمعروف باسم مرج هنكار
بالقرب من مدينة جيبزه .

حاول سلطان الدنيا الاستراحة في خيمته ، ولكن كانت آلامه
شديدة إلى حد أصبحت فيه الراحة بمثابة عذاب بالنسبة له .

وتيقن جميع المقربين منه وعلى رأسهم الوزراء بأن النهاية
الحتمية باتت قريبة . وشرع الحفاظ الذين استدعوا إلى الخيمة بتلاوة
القرآن الكريم على رأس السلطان . ولم يقتصر الأمر عليهم فقط ،
بل كان جميع الموجودين في الخيمة يقرأون السور القرآنية التي يحفظها
عن ظهر قلب ويدعو لسلطانهم .

وبعيداً جداً عن خيمة الفاتح ، كان هناك مشهد مشابه يحصل في
غوينوك . حيث كان آق شمس الدين يقرأ القرآن الكريم لفاتح
إسطنبول وكأنه تنبأ بما يحصل .

في إحدى زوايا الخيمة كان الأطباء المتواجدين بجوار السلطان
يُقيِّمون وضعه الصحي باستمرار . سأل رئيس الأطباء الفارسي
مساعديه قائلاً :

- هل هناك أي نقص في علاج السلطان ؟

- لا يا سيدي . . .

- إن أردتم يمكننا استدعاء يعقوب بك رئيس الأطباء السابق للسلطان ، ونسأله عن رأيه .

- لا بأس يا سيدي ، إن من واجبنا فعل كل ما يلزم من أجل إنقاذ حياة السلطان .

وصل يعقوب بك إلى المعسكر في أقصر وقت ممكن . وناقش الأطباء الجدد والقدماء العلاج المطبق على السلطان .

قال يعقوب بك :

- لقد قمتم بكل شيء ، ولو كنت مكانكم لفعلت ذلك أيضاً .

- ولكننا عاجزون عن إنقاذ سلطاننا .

- نحن أناس مؤمنون ، ونعلم جيداً أن الفاتحين سيموتون مثل غيرهم . . . أثارت هذه الجملة غضب الأطباء رغم واقعيتها .

ولا سيما رئيس الأطباء الفارسي :

- لقد طلبنا منك إيجاد حل وليس تقديم النصيحة يا يعقوب

بك . . .

- أنت محق ، لقد أخذتُ على حين غرة ولم أنتبه ، سامحني . . .

- ما الحل يا يعقوب بك ، ما الحل ؟

- الحل الأخير هو أن نأخذ الدم من قدمه ، ونحلله ونرى كيف ستكون النتيجة . . .

كانت هذه الطريقة في الواقع طريقة معروفة ولكنها تطبق على المرضى الذين يعيشون المراحل الأخيرة من مرضهم .

تم تحليل عينات الدم المأخوذة من قدم السلطان العظيم . وتبين أن الحمض المتراكم في الجسم أكثر من اللازم قد استحوذ على مفاصله . وهو السبب وراء الألم الشديد في قدميه وساقيه . إضافة إلى تمركز الالتهاب في مواضع الألم إلى حد يعجز فيه الإنسان عن تحمله . وبالطبع لم تفاجيء هذه النتيجة الأطباء . علق رئيس الأطباء الفارسي على ذلك قائلاً :

- سبق وأخبرنا سيدنا السلطان بضرورة أن لا يجهد نفسه كثيراً .

قال رئيس الأطباء السابق يعقوب بك :

- أنا أيضاً يا سيدي طلبت منه أن لا يجهد نفسه أكثر من اللازم . . .

- لم نتمكن من جعله ينصت إلينا .

- وأنا أيضاً . . .

- كان يقول سأواصل الجهاد طالما أن شغف الفتح لم ينطفئ
بداخلي .

- ويسعى جاهداً ليكون جديراً بالفتح المبين .

- في إحدى المرات عاتبني وأنبني لأنني طلبت منه أن يستريح ،
بقوله : وهل سأكون عبداً يرضى الله عنه إن فعلت هذا .

- ويضيف أيضاً إياك أن تحاول منعي في سبيل أن تكون الأمة
جديرة بحمل رسالة النبي ﷺ .

بينما كان الأطباء يتهامون فيما بينهم ارتعشوا خوفاً من صوت
ضعيف سمعوه يقول :

- أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله .

ثم سُمع صوت الحفاظ يقولون :

- إن لله وإن إليه راجعون . . .

بعدها ، الدموع بللت لحاهم . . .

بعدها ، التنهيدات تردد صداها داخل الخيمة . . .

بعدها ، إرتباك الوزراء . . .

بعدها ، صوت الصدر الأعظم الباعث على الاطمئنان . . .

بعدها ، قرار عدم إبلاغ الجيش بوفاة السلطان . . .

في يوم ٣ أيار ١٤٨١

أنهى السلطان الغازي محمد الفاتح خان حكمه الذي دام مدة ٣٠ عاماً ، والذي أنهى بفتح مدينة إسطنبول حقبة العصور الوسطى وافتتح العصر الحديث ، وزاد من رقعة الأراضي العثمانية التي استلمها - بمساحة قدرها ٩٦٤ ألف كم^٢ إلى مليونين و٢١٤ ألف كم^٢ - مدة حياته في هذا العالم ، وخرج في حملة جديدة تماماً في عالم الخلود .

لم يكن هناك أحد يرافق السلطان الفاتح في حملته الجديدة هذه .

لا زوجاته ولا أولاده ولا الصراعات على السلطة الناشئة فيما بينهم ؛

لا وزرائه ولا مؤامراتهم ؛

لا علمه ولا أساتذته ؛

لا شعره ولا أبيات شعره المبطنة ؛

لا المال ، ولا الجاه ، ولا الثروة ، ولا العرش ، ولا التاج . . .

لا شيء أبداً ، لا شيء معه على الإطلاق .

لا شيء سوى كفته الذي حملته على رأسه لسنوات عديدة ويلف

قلنسوته الهائلة الحجم . نعم ، لقد لف السلطان الكبير بالكفن الذي كان يحمله على رأسه منذ سنوات عديدة .

وإن رحل سلطان العالم وحيداً ولكن جيشاً هائلاً من الصلوات والأدعية كان يرافقه .

إن مكانه الآن في مجمع الفاتح .

المكان الذي كان بالإمكان اتخاذه غرفة لإجراء امتحان ذات مرة ، بات ينتظر ضيف شرفه الآن . هذا الضيف ذو الشرف العظيم لدرجة لا يعرف فيها كيف سيتحمل المكان وجوده داخله ؟ وكيف سيحرك القلوب ؟ الأمر ليس واضحاً... غير أن هذه الأرض الأصيلة... من الذي أتى إلى أحضانها وقد رفضته ؟ أو من الذي قالت له ليس عندي مكان لك ؟

* * *

كان أول أيام عيد الأضحى المبارك .

استند الشاب المؤهل لأن يصبح كاتباً لامعاً في المستقبل على الأريكة المدمجة لساعات عديدة . فقد أنهى كتابة النسخة الأولى من الرواية التي كان يعمل عليها منذ عدة أشهر . وفيما يتعلق بالمشاعر والعواطف عبر عن شكره وامتنانه للجميع على الدعم غير المحدود الذي قدموه له . ثم دعا إلى الله سبحانه وتعالى قائلاً :

« الحمد والشكر لك يا رب دائماً وأبداً ! لولا فضلك ومعونتك
لما استطعت إنهاء هذه الرواية .

الصلاة والسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم تسليماً
كثيراً ! لولا همة النبي الحبيب لما اكتملت هذه الرواية وبقيت
ناقصة .

الشكر الجزيل إلى عبدك السلطان محمد الفاتح يارب ! لولا
دعمه الروحي والمعنوي لما تمكنت من البدء بكتابتها أصلاً .

يارب أنا عبدك الفقير العاجز أسألك من كنزك وخزائنك التي
لا تنفذ :

أن ترزق عبدك هذا في حرمة هذه الأيام المباركة التي نحن فيها
أن يهب المصنفات كصدقة جارية .

إنك على كل شيء قدير .

آمين » .

* * *

المحتويات

القسم الأول: رؤيا الفتح

11	ضرورة اكتساب الخبرة
19	حباً بالفتح
23	تهويدة صغيري محمد
31	مع كل ولادة يبنى العالم من جديد
36	الأمراء في عهدتكم
40	ثلاثة أمراء في آماسيا
43	الدرس الأول
48	كيف هي الجنة؟
53	محمد فقط
60	مدي يدك يا مانيسا
65	هل يهرب الأمير محمد من الدرس؟
71	لا تدعها تذهب أبعد من ذلك
77	هذا الأستاذ مختلف

84	ليبقى الأمر بيننا
88	أخبار... أخبار
94	سأتنازل إن لزم الأمر
100	نزهة في الحديقة
108	الأمير محمد يصبح سلطاناً
115	تدريب السلطنة
118	المسيحيون يحتفلون
121	لن يكسب هذا الطفل هذه الحرب
140	زفاف الأمير
144	توفي والدك البقية في حياتك يا سلطاني

القسم الثاني: حباً بالفتح

151	ليتبني من يحبني
160	الأمير محمد يصبح سلطاناً
165	الأيام الأولى والإجراءات الأولى
177	أوربان مهندس المدفعية
181	أعطني قلب بيزنطة أيها الباشا!
188	ارفع رأسك يا إنكشاري
195	شجار الرعاة

200	سبك المدافع
207	لن يكون بغير ذلك أبداً!
214	نقل المدافع
217	الخوف أكبر من الجبال
227	في الحركة بركة
232	يوميات الحصار
312	حسن الأولوباتي على الأبراج
315	اخترق طوب كابة تفتح الطريق

القسم الثالث: فاتح العصر الحديث

321	صلاة الجمعة في آيا صوفيا
329	خطابات الفتح
335	أوروبا تذرِف دماً
338	العهود
344	جزاء قول الحقيقة
348	دستور الفاتح
350	تغيير وجه المدينة
360	ما بعد الفتح
365	السلطان الشاعر

373		جعل الألم عسلاً
375		اقطع يد السلطان
380		عشق السلطان المطلق
389		الفاتحون يموتون أيضاً
397		المحتوى